ISSN:
: 3005-6713
: 3005-6721

أمم

للدراسات الإنسانية والاجتماعية

فصليّة محكّمة
تُعنى بنقد الرؤى الغربية
في الإنسان والمجتمع
تصدر عن مركز براثا للدراسات والبحوث

المجلد (٣) - العدد (٩) خريف ٢٠٢٥ م ١٤٤٧ هـ

حُرُوبُ السَّيطَرَةِ عَلَى الوَعِي

■ **أوّل الكلام**
- الواقعُ المُصنَّع وبرمجةُ العقول

■ **المحور**
- اللغّة بوصفها أداةً استعماريّة
- الهندسة النفسيَّة للمشاعر
- العقل المدبّر لحروب الوعي

■ **تأصيل**
- الرؤية القرآنية لصناعة الوعي

■ **دراسات وبحوث**
- نهاية وهم الهيمنة

■ **قراءة في كتاب**
- احتلال العقل

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

حُرُوبُ السَّيطَرَةِ على الوعِي

المجلد (٣) – العدد (٩) خريف ٢٠٢٥ م ١٤٤٧ هـ

ISSN:
: 3005-6713
: 3005-6721

أُمم
للدراسات الإنسانية والاجتماعية

تصدر عن:

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

مجلة علمية فصلية محكّمة تُعنى بنقد
الرؤى الغربية في الإنسان والمجتمع

www.barathacenter.com
www.oumam.barathacenter.com
Oumam.magazine@gmail.com

التّابع لجمعيّة براثا الثقافيّة المرخّصة في لبنان بموجب علم وخبر رقم: ٥١٦

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ
وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ
وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

(الأعراف:١٦٨)

رسالة المجلة

مواجهة التحديات الفكرية التي يفرضها الغرب وغيره على مجتمعاتنا العربية والإسلامية، وذلك من خلال:

- تفنيد "الشبهات والأفكار المستوردة" بطريقة أكاديمية علمية ومنهجية، وإظهار معاثرها وعيوبها، ونقد جذورها وسياقاتها.
- الكشف عن الدوافع السياسية والاقتصادية والاستعمارية التي تقف خلف محاولة الهيمنة الثقافية على مجتمعاتنا.
- تقديم إحصاءات علمية من داخل المجتمعات الغربية، ترصد النتائج التدميرية للثقافة المادية العلمانية على المجتمعات.
- تقديم رؤى أصيلة وبديلة عن النظريات الغربية من منطلق انساني عالمي، يتناسب ومقتضيات الفطرة البشرية، ويتأسس على الرؤية الكونية الميتافيزيقية للاجتماع البشري.

■ المشاركون في العدد:

● أ. د. أحمد إيبش (سوريا) ● زكيه قرنفل(سوريا) ● أ.د.احمد رضوان نصر الله(لبنان) ● سكينة حسن(لبنان) ● محمد باقر كركي(لبنان) ● م.د سجاد هادي العنبكي(العراق) ● محمد المستاري(المغرب) ● لينا السقر(سوريا).

مجلـة «أمم للدراسـات الإنسـانية والاجتماعيـة»، مجلة علميـة فصلية محكّمـة، تصدر كل ثلاثة أشـهر عن «مركز براثا للدراسـات والبحوث». وتُعنـى المجلة بنقد الـرؤى الغربية في الإنسـان والمجتمـع في مختلف المجـالات والتحديـات المعاصرة؛ في الفلسـفة، والتاريـخ، والاجتماع، والانثروبولوجيا، وتأصيلها من منطلق عقلاني ينسـجم ومقتضيات الفطرة البشرية ومع الرؤية الكونية الميتافيزيقية الأصيلة للإجتماع البشري.

ترحب المجلة بمسـاهمات الكتـــاب والباحثيـــن في المجالات المتعلقة باهتمامات المجلـة العلمية، ويمكـــن للراغبين مراسـلة المجلة على العنوان التالي: مركز براثـــا للدراسـات والبحوث - مجلة أمم: بيروت، بغداد.

في العدد المقبل:

الذَّاتُ المَأْزُومَةُ: جَدَلِيَّةُ الإِنْسَانِ الحَدِيْثِ

موقع المركز:
www.barathacenter.com

موقع المجلة:
oumam.barathacenter.com

بريد المجلة:
Oumam.magazine@gmail.com

رئيس التحرير: 009613821638

مدير التحرير: 0096176949904

■ الهيئة العلمية:

● أ.د. حافظ عبد الرحيم. (علم اجتماع سياسي واقتصادي- جامعة قابس- تونس)
● أ.د. حسن بشير. (علم اجتماع التواصل الدولي والثقافي-جامعة الامام الصادق(ع)- ايران).
● أ.د. بن شرقي بن مزيان. (فلسفة-جامعة وهران(٢)- الجزائر).
● أ.د. حيدر حسن اليعقوبي.)علم نفس تربوي-جامعة الكوفة- العراق)
● أ.د. خنجر حميّة. (فلسفة غربيّة معاصرة- الجامعة اللبنانيّة- لبنان)
● أ.د. طالب عمران. (منطويات تفاضلية وفلك- جامعة دمشق- سورية).
● أ.د. عقيل صادق. (فلسفة-جامعة البصرة- العراق).
● أ.د. محسن صالح. (فلسفة-الجامعة اللبنانية-لبنان).
● أ.د. محمد شعلان الطيار. (علم آثار- جامعة دمشق- سورية).
● أ.د. معمر الهوارنة. (علم نفس- جامعة دمشق- كلية التربية-سورية).
● أ.د. ياسر مصطفى عبد الوهاب. (تاريخ عصور وسطى- جامعة كفر الشيخ- مصر).
● أ.د. يوسف طباجة. (علم اجتماع- الجامعة اللبنانية- لبنان).

■ هيئة التحرير:

● أ.د هنى الجزر. (فلسفة-جامعة دمشق-سورية).
● أ.د. سعد علي زاير. (فلسفة تربية ومناهج اللغة العربية-العراق).
● أ.د. عادل الوشاني (علم اجتماع الثقافة والاتصال- جامعة قابس-تونس).
● أ.مشارك. د نعمة حسن البكر. (تاريخ حديث ومعاصر-جامعة عين شمس-مصر).
● د. علي الحاج حسن. (فلسفة اسلامية-لبنان).
● الشيخ د. محمد نمر. (مناهج تربوية- لبنان).

المشرف العام:
الشيخ جلال الدين علي الصغير
(العراق)

رئيس التحرير:
د. محمد محمود مرتضى
(جامعة المعارف-لبنان)

مدير التحرير:
الشيخ د. محمد باقر كجك
(جامعة المعارف-لبنان)

المدير المسؤول:
أ. آية بيضون (لبنان)

المدير الفني:
أ. خالد معماري (سورية)

التدقيق اللغوي:
د. محمود الحسن (سورية)

ترجمة:
لينا السقر (انكليزي)
(إجازة في الترجمة الانكليزية-جامعة دمشق-سورية)

قواعـــد النشـــر في مجلّـــة "أُمم"

شروط النشر في المجلة

- البحوث والدراسات المنشورة لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- عند قبول البحث يتعهد المؤلف بنقل حقوق ملكية البحث إلى المجلة، وعدم نشره في أية مجلة أخرى إلا بعد أخذ موافقة خطية من إدارة المجلة، ويكون من حق المجلة نشر البحث في كتاب جماعي؛ وفي حال أراد الباحث نشر بحثه في أي وسيلة نشر ورقية أو الكترونية، فيجب عليه أخذ موافقة خطية مسبقة من إدارة المجلة.
- تلتزم المجلة بإعلام المؤلف بالموافقة على نشر البحث من دون تعديل، أو وفق تعديلات معينة بناءً على ما يرد من ملاحظات المقوّمين، أو الاعتذار عن عدم النشر في غضون مدة لا تتجاوز (٣٠) يوماً، إلّا في حال الاستكتاب المبكر، لكن يتم إعلام المؤلف بذلك.
- في مسألة رفض البحث فمن حق المجلة إعلام المؤلف بأسباب الرفض أو عدم إعلامه بذلك.
- ترتيب البحوث (المقالات) في داخل المجلة يخضع لأغراض فنيّة، ولا علاقة له بمكانة المؤلف (الباحث) وشهرته.
- تدفع المجلة مكافأة مالية لكل بحث يُنشر في المجلة، وتُعلِم المؤلف بقيمتها أو طريقة احتسابها مسبّقاً.
- المراسلات ترسل بإسم رئيس التحرير: الدكتور محمد مرتضى على العناوين التالية:

رقم الهاتف: ٠٠٩٦١٣٨٢١٦٣٨ أو على البريد الإلكتروني:
oumam.magazine@gmail.com

خُلُقيّات النشر

- تلتزم إدارة المجلة بالحفاظ على حقوق الملكية الفكرية للمؤلفين.
- تلتزم إدارة المجلة بمراعاة مبدأ عدم التمييز على أساس العِرق أو الجنس، بل الالتزام بقواعد التفكير العلمي ومناهجه، ولغته في عرض وتقديم الأفكار والاتجاهات والموضوعات ومناقشتها أو تحليلها.
- تلتزم إدارة المجلة بعدم الإفصاح عن أسماء المقوّمين (المُحكمين) للمؤلفين، كذلك تلتزم في الوقت نفسه بعدم الإفصاح عن أسماء المؤلفين للمقوّمين ويبقى هذا الأمر على نحو سري عند رئيس ومدير التحرير فقط.
- احترام حقوق الملكية الفكرية للبحوث المترجمة.
- يُشترط أن يكون البحث متوافقاً مع معايير الأمانة العلمية وأخلاقيات البحث العلمي.
- يشترط ألاّ يكون البحث المرسل للنشر في المجلة منشوراً سابقاً في مجلة أو في كتاب، أو مستلاً من رسالة أو أطروحة، وألاّ يكون تم تقديمه للنشر إلى مجلة أخرى.

دليل المقوّمين

- **إن المهمة الرئيسة للمقوّم العلمي للبحوث المرسلة للنشر، هي أن يقرأ البحث الذي يقع ضمن تخصصه العلمي بعناية فائقة، وتقويمه وفق رؤية ومنظور علمي وأكاديمي لا يخضع لأية أهواء شخصية، ويقوم بتثبيت ملاحظاته البناءة والصادقة بشأن البحث المرسل إليه.**
- **قبل البدء بعملية التقويم يتأكد المقوّم إذا ما كان البحث المرسل إليه يقع ضمن تخصصه العلمي أم لا، فإن كان البحث ضمن تخصصه العلمي فعليه تقدير كونه يمتلك الوقت الكافي لإتمام عملية التقويم؛ ذلك أنَّ عملية التقويم يجب أن لا تتجاوز (١٥) يوماً.**
- **بعد موافقة المقوّم على إجراء عملية التقويم وإتمامها في المدة المحددة يلتزم بإجراء عملية التقويم على وفق المحددات الآتية:**
  - **أ. تحديد درجة الأمانة العلمية للبحث.**
  - **ب. تحديد درجة مطابقة عنوان البحث لمحتواه.**
  - **ت. تحديد درجة وضوح ملخص البحث.**

ث. تحديد درجة إيضاح مقدمة البحث لفكرة البحث.
ج. تحديد درجة تناسب العناوين الفرعية وترابطها.
ح. تحديد درجة المستوى العلمي للبحث.
خ. تحديد درجة المستوى اللغوي والأدبي.
د. تحديد درجة قيمة المصادر ودقة الاعتماد عليها.
ذ. تحديد درجة أهمية البحث وأصالته من حيث الآلية والنتائج.
ر. تحديد درجة حجم البحث.
ز. تحديد درجة صلاحية البحث للنشر.
س. يحدد المقوّم بشكل دقيق الفقرات التي تحتاج إلى تعديل من المؤلف.

- يحدد المقوّم أسباب الرفض في حال قرر عدم صلاحية البحث للنشر.
- تجري عملية التقويم على نحو سري.
- يتم تبليغ رئيس التحرير في حال أراد المقوّم الأول مناقشة البحث مع المقوّم الثاني.
- ترسل ملاحظات المقوّم العلمي إلى رئيس التحرير لإرسالها إلى المؤلف في حال وجود ملاحظات على البحث؛ لكي يأخذ المؤلف بها للموافقة على النشر، من دون أن يعرف المقوّم من هو المؤلف، ولا أن يعرف المؤلف من هو المقوّم.
- تعتمد ملاحظات المقوّمين وتوصياتهم في قرار اعتماد نشر البحث من عدمه.

دليل المؤلفين

- يجب أن يكون البحث جديداً في طرحه، ولم يسبق لأحد أن تناول الموضوع بالآلية نفسها ووصل إلى النتائج نفسها، وأن يتسم بالعمق والتحليل والنقد.
- يجب أن تكون لغة البحث خالية من الأخطاء اللغوية والطباعية، وأن تراعى في كتابتها علامات الترقيم.
- المعلومات الواردة في البحث يجب أن تكون موثقة من خلال المصادر والمراجع العلمية الدقيقة.
- على المؤلف مراعاة أن تكون عدد كلمات بحثه تتراوح ما بين (٤٥٠٠) إلى (٥٥٠٠) كلمة.

- سيتم استعمال برنامج فحص نسبة الاستلال (Plagiarism Check X).
- سيعرض البحث على برنامج الاستلال قبل تحويله للتقويم، وسيرفض البحث إذا تجاوزت نسبة الاستلال النسبة المقبولة عالمياً (٢٥٪).
- في تسجيل الهوامش المرتبطة بالحواشي المرجعية، فإن الكاتب سيستعمل نظام (شيكاغو المعدل)، ويُدرج الهوامش في أسفل الصفحة (Footnote) عبر الادراج التلقائي.
- مثال على نظام شيكاغو المعدّل:
  - في حال التوثيق من كتاب: اسم المؤلف: عنوان الكتاب، ذكر الجزء أو المجلد، رقم الصفحة.
  - في حال التوثيق من مجلة: اسم كاتب البحث أو المقال: عنوان البحث، اسم المجلة، العدد، رقم الصفحة.
  - في حال التوثيق من كتاب جماعي: اسم كاتب مع عبارة وآخرون: عنوان الكتاب أو البحث، رقم الصفحة.
  - في حال التوثيق من رسالة أو أطروحة: اسم الباحث: عنوان الرسالة أو الأطروحة، الجامعة والكلية، رقم الصفحة.
  - توثّق الآيات في المتن عقب النص القرآني مباشرة بذكر السورة متبوعة بنقطتين، ثم رقم الآية داخل حاصرتين، هكذا: [الإنسان: ٢٥].
  - الآيات القرآنية تُدرج محرّكة وفق التشكيل القرآني، وتوضع بيم مقوسين خاصين، هكذا: ﴿بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ﴾
  - ملاحظة: ما تم ذكره في أعلاه من مصادر إن كانت إلكترونية فيتم إدراج الرابط بعد رقم الصفحة في الأسفل.
- يُدرج في نهاية البحث ثبت بالمصادر والمراجع، وفق ما ذكرنا أعلاه مع اضافة باقي التفاصيل المرتبطة به: دار النشر، مكان النشر، تاريخ النشر، رقم الطبعة.
- يستعمل الكاتب في بحثه باللغة العربية خط (simplified Arabic) بحجم (١٤) في المتن، ونفس الخط بحجم (١٢) في الهامش.

- أما باللغة الإنجليزية فيستعمل (Times New Roman) بحجم (١٤) في المتن، وبحجم (١٢) في الهامش.
- يكتب في الصفحة الأولى الآتي:
  - عنوان البحث باللغة العربية.
  - اسم المؤلف باللغة العربية (اذا كان عربيا)، مع ادراج حاشية سفلية يذكر فيها: جنسيته، توصيفه العلمي، الدرجة العلمية والشهادة، وجهة الانتساب (الجامعة، الكلية)، أو (المؤسسة البحثية).
  - ملخص للبحث باللغة العربية على أن لا يتجاوز الملخص الواحد (١٠٠) كلمة.
  - الكلمات المفتاحية على أن لا تتجاوز (٧) كلمات.
  - تقوم المجلة بإجراء ترجمة الملخصات الى اللغات التي تراها مناسبة.

تعهد حقوق الملكية

أنا الموقع أدناه المؤلف (الباحث): .....

صاحب البحث الموسوم بـ: .....

.....

أتعهد بنقل حقوق الطبع والنشر والتوزيع إلى مجلة (أمم) ومركز براثا للدراسات والبحوث.

التاريخ:

التوقيع:

تعهد الملكية الفكرية

أنا الموقع أدناه المؤلف (الباحث): .....

صاحب البحث الموسوم بـ: .....

.....

أتعهد بأن البحث الذي أنجزته لم يتم نشره أو تقديمه للنشر إلى مجلة أخرى، سواء أكانت داخل لبنان أو العراق أو أي دولة أخرى، وأرغب بنشره في مجلة (أمم).

التاريخ:

التوقيع:

المحتويات

أوّل الكلام

الواقع المُصنّع وبرمجة العقول ١٥
■ د. محمد محمود مرتضى

المحور

اللغّة بوصفها أداةً استعماريّة: كيفَ تُشكّل اللغة وعيَ الشعوبِ وتُخضعُها؟ ٣٣
■ أ. د. أحمد إيبش

إعَادَةُ تَشْكيلِ العَالَم: الإعلامُ رَافِعَةُ الهَيْمَنَةِ الثَّقَافِيَّةِ الغَربِيَّة ٥٩
■ زكيه قرنفل

الهندسة النفسيَّة للمشاعر: كيف يصوغ الإعلامُ الحُبَّ والخوفَ والعداوةَ؟ ٨٩
■ أ.د.احمد رضوان نصر الله

صِناعةُ الحقيقة: بينَ النخبِ الإعلاميّة ومراكز الدِّراسات والتفكير ١١١
■ سكينة حسن

العقلُ المُدبِّر لحروب الوعي: مراكزُ التفكير الغربيَّة والأذرع الاستَراتيجيَّة للهيمنة ١٣٩
■ محمد باقر كركي

تأصيل

الرؤية القرآنيَّة لصناعة الوعي: العقل، الوحي، الدولة الإيمانيَّة ١٦٥

م.د سجاد هادي العنبكي

دراسات وبحوث

نهاية وَهْم الهيمنة -في نقدَ خطاب القوَّة المطلقة الأمريكيَّة وحدودها البِنيويَّة- ١٩٥

محمد المستاري

قراءة في كتاب

احتلال العقل: الإعلام والحرب النفسيَّة ٢١٩

لينا السقر

الواقع المُصنّع وبرمجة العقول

رئيس التحرير
■ د. محمد محمود مرتضى

مقدِّمة

ثمَّـة تغيّر هائل يجري في هـذا العالم على مسـتوى الصراعات؛ حيث غـدت العقول هدفًا للاحتلال هي الميدان الأهمّ، فلم يعد الانتصار يُقاس باحتلال الأرض، وإنما باحتلال الإدراك.

فنحـن أمام حـروب من نوعٍ جديـد؛ حيث تُخـاض بالمفاهيم، والصـور، والمصطلحات، والسرديَّات. إنّها حروب السـيطرة على الوعي؛ حيث يصبح تشـكيل الـرأي، وصناعة الواقع، وتوجيه القناعات، جزءًا من معركة أشد فتكًا من الحرب التقليديَّة؛ لأنّها تُمارَس من الداخل، في صمتٍ ونعومة، دون أن تترك وراءها دماء، بل تخلّف إنسـانًا مُفرَّغًـا، راضيًا بقهره، ومدافعًا عن سجّانه.

لقد تغيَّرت بنية السيطرة: فبدلاً من القمع، هناك الإقناع، وبدلاً من الوصاية الفجَّة، هناك صناعة الرغبة. لم تعد الهيمنة تفرض بالقوة، بل تُزرع في النفوس عبر الإعلام، والتعليم، والفنّ، والتقنيَّة، وحتى الدين حين يُفرَّغ من مضمونه ويُعاد تصنيعه. ووسـط هذا المشهد، أضحت المعركة بين وعي مستنير، ووعي مبرمج، بين من يرى العالم بعينيه، ومن يُملى عليه كيف يراه.

وفي قلـب هذه المعركة، تلعب النخب الثقافيَّة دورًا محوريًّا: فمن كان يُفترض بهم أن يقودوا

الوعــي، أصبح كثير منهم يُعيد إنتاج أدوات الســيطرة بلغةٍ «عقلانيَّــة»، أو خطابٍ «حداثي»، أو تحليلٍ «موضوعيّ» يخفي في طيّاته تسليمًا بالهزيمة، وتطبيعًا مع المستبدّ.

أولًا: تحوّلات أدوات السيطرة

١ - من العنف الصلب إلى الهيمنة المعنويَّة

عندمــا تحدث (ميشــيل فوكــو-Michel Foucault) عن انتقال الســلطة من نمــوذج القمع الخارجــيّ إلى التحكّم الانضباطــيّ الداخليّ، كان يصف ديناميكيَّة حاضرة آخذة في الترسّــخ. لقد شــهد القرن العشرون تحوّلًا جذريًّا في أساليب الســيطرة؛ إذ لم تعد تكتفي باستخدام القوّة المسلحة، وإنّما بدأت تتحوّل إلى آليّات تطويع رمزيَّة، وهندسة للسلوك الاجتماعيّ والمعرفيّ، ما أدّى إلى ما يمكن تسميته بـ "الاحتلال غير المَرئيّ" للعقول.

وفي حين كان مفهوم "الاســتعمار" في القرن التاسع عشر يرتبط مباشرة بالغزو العسكريّ المباشر، فقد أصبح في العالم المعاصر يُدار بالثقافة، والإعلام، والتمثيلات المعنويَّة، وقواعد البيانــات، ومنصَّات التواصل، وكلّها أدوات تعمل على إعادة تشــكيل تصوّرات الناس عن أنفســهم والعالم، دون الحاجة إلى اســتخدام جيوش فعليَّة. فالحــروب اليوم تُخاض على مســتوى الصور أكثر من الأجســاد، وهذا دليل على تفوق القوَّة المعنويَّة على القوة الماديَّة في صناعة الإدراك الجمعيّ للواقع، بل في صناعة "الواقع" نفســه باعتباره تمثيلًا، لا حقيقة مباشرة.

٢ - الرقابة الناعمة

إنّ الانضبــاط اليــوم يُمارَس مــن خلال مصفوفــات برمجيَّــة تراقب تحــرّكات الأفراد على مــدار اللحظة، وتعيد توجيههم دون أن يشــعروا. وهو ما بات يُعرف بـــ «الرقابة الناعمة» (Soft Surveillance)، والذي تجاوز مفهوم "الأخ الأكبر"، الذي تحدث عنه (جورج أورويل - George Orwell)، إلى نموذج أكثر تعقيدًا وأشد خفاءً، وهو التحكّم الذاتيّ المبرمج.

فعـبر الذكاء الاصطناعـيّ، والتعلّم الآلي، وخوارزميَّات التوصية، بات يُعاد تكوين السـلوك الإنسـانيّ من خلال ما يُعـرض عليه، وما يُخفى عنـه، وما يُقترح له، دون أن يشـعر أنه خاضع لتوجيه. فقد أصبحت الخوارزميّات أدوات هندسـة للوعي، لا مجرّد تقنيّات عرض أو تصنيف. وهذا ما حذّر منه (موراي شاناهان-Murray Shanahan) في كتابه "الذكاء الاصطناعي ومستقبل الإنسان"، حين يشير إلى أنَّ الآلات الذكيَّة لا تكتفي بتنفيذ المهام، بل تُعلّم الإنسان كيف يفكر، ومتى يشك، وماذا يختار[1].

وهكذا، فإنّ الإنسـان المعاصر يعيش داخل شـبكة مراقبة لا يدرك وجودهـا؛ لأنَّها مصمَّمة كي تبدو كأنّها تمنحه الحريَّة. لكنّه، في الحقيقة، يسـير وفق مسارات محدَّدة مسبقًا: ما يشتري، وما يقرأ، وما يُغضبه، وما يُضحكه، كلّها عناصر تُدرس وتُبرمج ضمن ما يُعرف اليوم بـ "اقتصاد الانتباه" (Attention Economy).

٣ - احتلال الوعي بدل الأرض

لقد أصبحت وسـائل الإعلام سـلاحًا أكثر فتكًا من الطائرات دون طيَّار؛ لأنّها تقتل البصيرة. فبثّ الصور، وتكرار الشـعارات، وتحديد المفردات، وصناعة النجوم، كلّها تقنيات تسـتهدف بنية الإدراك البشريّ، وتعمل على تحويل الاسـتلاب إلى وعي زائف، والهيمنة إلى قناعة؛ إذ لا يختلف اثنان اليوم على أنّ أفضل أشكال الرقابة، هي تلك التي تجعل الناس يعتقدون أنّهم أحرار في حين أنهم خاضعون تمامًا لمصفوفات التوجيه الخفيّ[2].

بـل إنّ الإعلام لم يعد مرآة للعالَم، بـل صانعًا له. فمن يملك الإعلام اليوم، لا يُخبر الناس بما يجري فقط، بل يُخبرهم كيف يجب أن يشعروا حيال ما يجري. فهو إذاً، لا ينقل "الواقع"، وإنما ينتج واقعًا بديلاً، يُزرع في وعي الجمهور، ويُقدَّم لهم باعتباره الحقيقة المطلقة. ولهذا، فـإنّ الحروب الحديثة لم تعد تتطلّب إقناع العدوّ بالقوّة، وإنما إقناع الضحيَّة بأنّ الاستسـلام فضيلة.

---

1 - See: Murray Shanahan: The Technological Singularity, p. 117.

٢ - راجع: نعوم تشومسكي: السيطرة على الإعلام، ص١٩.

٤ - التعليم جهاز أيديولوجيّ لإعادة الإنتاج

في تحليله للمؤسّسات الاجتماعيَّة، يُدرج (ألتوسير-Althusser) النظامَ التعليميّ بوصفه أحد أهمّ "أجهزة الدولة الأيديولوجيَّة" (Ideological State Apparatuses)؛ لأنّه لا يقوم بنقل المعرفة فحسب، وإنّما يُعيد إنتاج البنية الرمزيَّة التي تخدم النظام السائد؛ إذ إنّ المدرسة لم تعد مكانًا للتفكير الحُرّ، بقدر ما هي فضاءً لصياغة الطاعة والانتماء للمنظومة المُهيمنة.

لا يقتصر هذا التحليل على المجتمعات الغربيَّة، بل يمتدّ إلى كثير من دول العالم التي استنسخت المناهج والمفاهيم التربويَّة الحديثة دون مساءلة. فالمتعلّم اليوم يتخرّج محمَّلاً بـ "البداهات" الليبراليَّة: الحُريَّة بمعناها الفردانيّ، والتقدّم بمعناه الغربيّ، والعدالة بوصفها حيادًا قانونيًّا، إلى غير ذلك من القِيَم التي لا تُقدَّم بوصفها مفاهيم قابلة للنقاش، وإنّما بوصفها حقائق كونيَّة. وقد حذّر (باولو فريري-Paulo Freire) من هذا التلقين البنكيّ للمعرفة، مشيرًا إلى أن التعليم في ظلّ الهيمنة يتحول إلى عمليَّة إيداع معرفيّ، يُنتَظر من الطالب أن يُكرّره دون نقد[1]. وهو ما يؤسِّس لجيلٍ يُعيد إنتاج الواقع بدل تغييره.

٥ - سياسات الفضاء الرقميّ

لقد أحدثت الرقمنة قفزة نوعيَّة في طبيعة السيطرة؛ إذ لم تعد مرتبطة بالمكان والحدود السياسيَّة، وإنما تغيّرت لتصبح معركة سيادة تدور في الفضاء الرقميّ. فالمنصَّات العالميَّة مثل: (X)، (Facebook)، (Google)، وغيرها، باتت تتحكَّم بسيرورة المعرفة والمعلومة. والمخيف في الأمر أنّ هذا التحكم يُمارَس عبر آليّات غير خاضعة للمساءلة العامَّة، ولا للشفافيَّة الديمقراطيَّة.

فعندما تُخفي محرّكات البحث نتائج معيّنة، أو تُروّج لرواية دون أخرى، فإنها تؤثّر في اتجاهات الوعي العالميّ دون حاجة إلى رقابة بوليسيَّة. وهذا ما يجعل السيطرة على الإنترنت اليوم شبيهة بالسيطرة على المجال الجوي في الحروب العسكريَّة: من يتحكّم به، يتحكّم بكلّ ما تحته.

وتؤكد (شوشانا زوبوف-Shoshana Zuboff)، في كتابها عصر رأسماليَّة المراقبة، أنّ الشركات

1 - Paulo Freire: Pedagogy of the Oppressed, p. 72.

التكنولوجيَّة لا تكتفي بجمع البيانات، بل تستثمر في إعادة توجيه السلوك البشريّ نفسه، بشكل يضمن الطاعة الاستهلاكيَّة، والاستقرار الاجتماعيّ في الحدود المرغوبة[1].

٦ - السيطرة الناعمة والهندسة الاجتماعيَّة بلا جدران

هذا نمط جديد من السيطرة، الذي يعتمد على الإقناع لا الإكراه. فحين تُقنع الشعوب بأنّ النموذج الليبراليّ هو الأفق الوحيد الممكن، وأنّ النجاح هو في تبنّي القِيَم الغربيَّة، وأنّ التحرّر لا يكون إلا بالتخلّص من الدين والتقاليد، فإنّك تكون قد ربحت الحرب دون أن تطلق رصاصة واحدة. إنّها حرب تجري في "المعنى"، لا في الجغرافيا، وهي أخطر من الاحتلال العسكريّ؛ لأنّها تُخضع الإنسان من داخله، لا من خارجه. ويمكن ملاحظة أنّ أخطر ما تفعله وسائل السيطرة الحديثة هو تحديد نطاق النقاش سلفًا، ثمّ السماح بقدر من الجدل داخله، بحيث يظنّ الناس أنّهم أحرار في التعبير.

إنّ تحوّل السيطرة من أدواتها الصلبة إلى أدوات ناعمة نقل الصراع إلى مستوى أعمق وأخطر: صراع على الوعي نفسه. فالإنسان المعاصر قد لا يشعر بأنّه محتلّ أو خاضع، لكنّه في كثير من الأحيان يتحرّك ضمن منظومة مصمَّمة، تختار له ما يراه، وتحدّد له كيف يفكّر، وتؤطّر له العالم بحيث لا يرى خارج الإطار. وهذا ما يجعل معركة اليوم معركة ضدّ التوجيه الخفي، وضدّ الاحتلال المعنويّ للذات، وهي لا تقلّ أهميَّة ولا قسوة عن أي معركة بالسلاح.

إنّ ما سبق يمهّد للانتقال إلى سؤال أعمق: كيف يُصنع هذا الواقع الذي يُفرض علينا؟ ومن يملكه؟ وكيف تتواطأ الأدوات الثقافيَّة والإعلاميَّة والتعليميَّة لإعادة إنتاج الهيمنة؟

ثانيًا: صناعة الواقع وإنتاج الزيف – كيف تُبرمَج العقول؟

١ - من الواقع إلى التمثيل: تحوّل الحقيقة إلى سرديَّة

ذكرنا سابقا بأنّ من أخطر ما تنتجه حروب السيطرة على الوعي أنّها لا تكتفي بتوجيه التفكير،

1 - See: Shoshana Zuboff: The Age of Surveillance Capitalism, p. 315.

بل تعيد صياغة الواقع نفسه داخل الذهن. فما يراه الإنسان اليوم يُغربَل عبر شاشات، ومنصّات، ومحرّكات بحث، وأساليب عرض تُنتج له "نسخة" من العالَم. وهذا يعني أنّ السيطرة لم تتعلَّق بالكذب الصريح، وإنّما بالتحكّم فيما يراه الناس بوصفه الحقيقة.

من هنا، ينبغي التمييز بين الواقع والتمثيل المفرط (hyperreality)؛ حيث تصبح "الوقائع" التي يتلقّاها الإنسان مختلقة بالكامل، لكنّها مقنعة لدرجة أنّها تحلّ محل الواقع نفسه.

ومن هنا، فإن من يتحكّم بالإعلام، والإعلان، ووسائل التواصل الاجتماعيّ، لا يُخبر الناس بقدر ما هو يُعلّمهم كيف يفهمون العالَم، وكيف يشعرون، وماذا يصدّقون. وهذا هو جوهر الحرب على الوعي.

٢ - التضليل الناعم: صناعة الشكّ وتآكل الحقيقة

في الأزمنة الغابرة، كان التلاعب بالحقيقة يُمارس عبر الكذب المباشر أو الإخفاء، لكن تقنيّات السيطرة الحديثة تستخدم استراتيجيَّة أكثر تطوّرًا: خلق بيئة من الشكّ المزمن؛ بحيث لا يعود الناس يثقون بأيّ شيء. فالطغاة المعاصرون لا يكذبون ليُقنِعوا، بل ليخلقوا بيئة يُصبح فيها كلّ شيء مشكوكًا فيه، فلا يثق الناس بشيء، ويصبح الطاغية هو مصدر الحقيقة الوحيد[1].

إنّ الإعلام الحديث يمارس هذا النوع من التضليل الناعم عبر طوفان المعلومات (information overload) الذي يُغرق المتلقّي في سيل من الأحداث والتحليلات والصور المتناقضة، بحيث يُصاب الذهن بالتشويش، ويصبح من الصعب تمييز الحقيقة من الزيف. هذا ليس "تضليلاً" بالمعنى التقليديّ، وإنّما هو إرهاق للحقيقة وإغراق للعقل.

٣ - تسييس اللغة وتوجيه الإدراك

هذا وتلعب اللغة دورًا أساسًا في تشكيل الإدراك، وتُستخدم بوصفها أداة مركزيَّة في حروب السيطرة على الوعي؛ إذ إنّ الكلمات ليست مجرّد وسائط محايدة، وإنّما أدوات لتأطير الفهم

1 - See: Timothy Snyder: On Tyranny: Twenty Lessons from the Twentieth Century, P. 65.

وبناء الموقف. وهذا ما يعرف في علم تحليل الخطاب بـ"استراتيجيات الإطار" .(Framing Strategies) فعلى سبيل المثال:

- تسمية مقاومة الاحتلال بـ "الإرهاب"
- أو تسمية الاستسلام بـ"الواقعيَّة"
- أو اعتبار الاستعمار الثقافي "عولمة"

هـذه كلّها أمثلة على تزييف المعنى عبر اللغـة، وهو ما يجعل الجمهور يتقبّل الباطل بوصفه تطوّرًا، وينفر من الحقّ؛ لأنّه قد قُدِّم له بعبارات منفِّرة.

في هـذا السـياق، تُسـتخدم المصطلحات بمكـرٍ بالغ: فالاحتلال يُسـمّى "حربًـا وقائيَّة"، والاستعمار "مَهمَّة إنسـانيَّة"، والاسـتغلال "تنمية"، والقهر "حماية للحقوق"، وهكذا تُطمس الحقائق في قوالب اللغة نفسها.

٤ - استراتيجيّات الهيمنة السرديَّة

على أنّ السرد هو أحد أهم أدوات تشكيل الوعي الجمعيّ. فمن خلال الأفلام، والمسلسلات، والروايات، والنشرات الإخباريَّة، يُعاد تشـكيل الذاكرة، وتُبنـى القِيَم، ويُحدّد العدوّ والصديق. فالسرد لا يقتصر على إخبارنا بما حدث فحسب، وإنّما يُقدِّم لنا "طريقة" لفهم الحدث.

فقد أدركت القوى الكبرى أهميَّة السرد مبكرًا، فأنشأت مؤسّسات ضخمة لإنتاجه وتصديره، أبرزهـا هوليوود، التي لعبت دورًا محوريًّا في تسـويق النموذج الأمريكي، وتجميل العسـكرة، وتشـويه الآخر، وفرض الهيمنة الثقافيَّة. وقد كان ذلك من أهمّ مَهام الاسـتشراق، الذي لم يكن فقط بناءً معرفيًّا، وإنّما سرديَّة كبرى، شكّلت نظرة الغرب للشرق[1].

وعلى هذا المنوال، فإنّ كلّ خبر هو قصّة، وكلّ تحليل سياسيّ هو حكاية، وكلّ عرض إعلاميّ هو نصّ مؤطَّـر فكريًّا، وموجَّه لهدف معين. من هنا، فإنّ المعركـة الحقيقيَّة تتعلّق بمن يرويها، وكيف يرويها، ولمصلحة من تُروى.

١ - راجع: إدوارد سعيد: الاستشراق، ص٣٤.

٥ - تسليع الوعي: بين الإعلان والتمثيل

من ملامح هذه الحرب ما يُعرف بـ«تسليع الوعي» (Commodification of Consciousness)، أي تحويل الأفكار والمواقف إلى منتجات تُباع وتُستهلك، تمامًا كما تُباع السلع. فالشخصيَّة العامة أصبحت "علامة تجاريَّة" قابلة للتسويق، والمعرفة تحوّلت إلى "محتوى" خفيف يُستهلك سريعًا.

فالإعلانات والمحتوى الرقمي والنجوم الجدد على منصات التواصل جميعهم يُسهمون في تحويل القضايا إلى مجرد اتجاهات "ترنديَّة" قابلة للنسيان بمجرد زوالها من الشاشات. وهكذا، يفقد الوعي عمقه وزمنه وصلابته، ويتحوّل إلى تفاعل لحظي يُقاس بعدد الإعجابات والمشاهدات.

٦ - تشويه الرموز وتفكيك المعاني

ضمن مشروع السيطرة على الوعي، تُستهدف الرموز الجامعة، والقيم الكبرى، والشخصيات التاريخيَّة المقاومة، إما بالتشويه أو بالتفريغ. فالرمز الديني يُقدّم بوصفه رجعيَّة، والرمز المقاوم يُصوَّر باعتباره متطرّفًا، والبطولة تُختزل في الشهرة، والكرامة تُستبدل بالنجاح المادي.

هذا التفكيك المعنويّ غالبًا ما يجري عبر إعادة صياغة صورة الرمز في المخيال العام؛ حيث يفقد قيمته وقدرته على الإلهام، دون أن يُمنع رسميًّا. إنّها استراتيجيَّة ناعمة في اغتيال الرموز ومعانيها. فقد ننهزم في معركة، لكن عندما نقبل برواية العدوّ عنها، فإنّنا نضع أنفسنا أمام خسارة الحرب، لا المعركة فحسب.

٧ - من نقد الإعلام إلى تفكيك المنهج

إنّ مقاومة هذه الحرب لا تقتصر على كشف كذبٍ هنا أو تحيّزٍ هناك، بل تتطلّب تفكيك المنهج الذي تُصنع به الرؤية. فلا يكفي أن نردّ على رواية معيّنة، وإنما لا بدّ من تفكيك منطق صناعة الروايات ذاته: من يملك المنصّة؟ ومن يُحدّد الموضوع؟ ومن يُقرّر ما هو مُهمّ وما هو هامشي؟

الوعـي الحقيقي يبـدأ من هنا: من تفكيك بنية السـلطة المعرفيَّة والإعلاميَّـة، لا من الجدل داخلها فقط.

وفي ضوء ما سـبق، تتَّضح الصورة المرعبة: إنَّنا لسنا أمام واقع مشوّه، وإنما أمام واقع مصنَّع بالكامـل، تُخاض فيه الحروب داخل الرؤوس، ويُعاد تشـكيل العالم وفقًا لمصالح الأقوى، لا لحقائق الوقائع. هذا الواقع يُصنع بمشـاركة نشطة – أحيانًا – من النخب الثقافيَّة التي تتواطأ في بناء الزيف أو الصمت عنه.

ثالثًا: المثقف الموظَّف وصناعة القبول

١ - تحوّلات وظيفة المثقف

في النـماذج التقليديَّـة، كان المثقّف يُفترض به أن يكون صـوت الضمير الجمعيّ، وحارس الوعي، وناقد المنظومات المُسيطِرة. من (سقراط) إلى (غرامشي- Gramsci)، ومن (الكواكبيّ) إلى (إدوارد سـعيد)، ظلّ المثقّف رمزًا للمساءلة، وأحيانًا للمجابهة. لكن في الحقبة النيوليبراليَّة وما بعدها، حدث انقلاب وظيفيّ عميق: لقد أصبح كثير من المثقّفين جزءًا من ماكينة السـيطرة على الوعي، بدل أن يكونوا أداةً لكشفها.

يشـير (غرامشي) إلى ما يسـمّيه بـ"المثقّفين العضويّين"، أي أولئـك الذين يرتبطون عضويًّا بطبقة اجتماعيَّـة معيّنة، ويدافعون عن مصالحها. لكن ما نراه اليـوم هو مثقّف وظيفيّ أكثر منه عضويًّا، لا ينتمي لطبقة محدّدة، بل يعمل لحسـاب نظام الهيمنة السـائد، سواء في الجامعات، أم الإعـلام، أم مراكز الأبحاث. وهذا المثقّف لا يقول ما يراه حقًّا، وإنما ما يُطلب منه قوله، وما يضمن له الظهور والتمويل والقَبول. وهكذا، تتحوّل مواقع المثقّفين إلى رأسمال يُستثمر داخل الحقل الثقافيّ، لتثبيت السلطة لا لمقاومتها.

٢ - مراكز التفكير وصناعة الأفكار بدل اختبارها

واحدة من أهمّ مؤسّسـات إنتاج الوعي المُعَولَم اليوم، مـا يُعرف بـ«مراكز التفكير» (Think

Tanks)، والتي تقوم بدور حاسم في صياغة السياسات العامة، وتوجيه الخطاب الإعلاميّ، وتوفير الإطار المفاهيميّ للنخب السياسيَّة والإعلاميَّة. ورغم ما تدّعيه هذه المراكز من حياديَّة علميَّة، لكنّها، في معظمها، تعمل ضمن مخطَّطات واضحة تخدم المصالح الجيوسياسيَّة للقوى المهيمنة. وهذه المراكز لا تنتج معرفة لذاتها، وإنما تمارس ما نسميه بـ "إدارة المعنى" (Management of Meaning)؛ حيث يُعاد تأطير القضايا الكبرى في قوالب مفاهيميَّة، تمُكّن النظام من إعادة إنتاج نفسه دون مقاومة.

والأخطر من ذلك، أنّ كثيراً من النخب في العالم العربيّ، باتت تُعيد إنتاج هذه الإطارات دون تمحيص، وتترجمها إلى خطاب عربيّ يروّج للانفتاح، والحريَّة، والسلام، والحوار، بينما يُفكّك كل ما يخصّ الوعي المقاوم، والهُويَّة المستقلّة، والذاكرة التاريخيَّة.

٣ - من التفلسف إلى الترفيه

مع صعود الإعلام الفضائيّ ثمّ الرقميّ، تحوّلت العلاقة بين المثقّف والجمهور. فلم يعد المثقف هو مَن يكتب للمهتمّين، وإنّما صار «نجمًا» يظهر على الشاشات والمنصّات، ويُقاس حضوره بعدد المشاهدات لا بجودة الأفكار. وهكذا، بدأ يتشكّل نموذج جديد هو "المثقّف التلفزيونيّ"، الذي يُفترض به أن يعلّق على كلّ شيء، من الاقتصاد إلى الفنّ، بلغة مبسّطة وسريعة، تُرضي الجميع ولا تزعج أحدًا. وهكذا، فحين تصبح الشاشة هي المنبر الأساس للفكر، فإنّ الأفكار تُختزل إلى صور، والمفاهيم إلى شعارات، والنقاش إلى استعراض.[1]

إنّ هذا النموذج من المثقّفين يُلهي العقول، ويُقنّعها بالسطحيّات، ويتماهى مع النظام، وتلك هي وظيفته الجوهريَّة في هندسة القَبول.

٤ - العقلانيَّة أداة للهيمنة

ثمَّة شكل آخر من المثقّفين المسيطرين على الحقل العموميّ وهو «التكنوقراطي»، أي المثقّف

1 - See: Neil Postman: Amusing Ourselves to Death, p. 16.

الذي يُقدّم نفسه بوصفه خبيرًا محايدًا، يُقوّم السياسات وفق مؤشّرات ومقاييس «علميَّة»، لكنّه، في الواقـع، يمُارس دورًا أيديولوجيًّا خفيًّا في تجميل السياسـات الظالمة، وإعادة تقديمها بلغة الأرقام والمنطق.

وهنا تكمن خطورة "الحياد العلميّ" الذي يدّعيه هذا النموذج من النخب؛ لأنّه يُفرغ القضايا من أبعادها القِيَميَّة والخُلُقيَّة، ويُعيد صياغتها باعتبارها مسـائل تقنيَّة لا سياسـيَّة. فالقمع يُصبح "إجراءً أمنيًّا"، والاستغلال "سياسة اقتصاديَّة"، والتطبيع "خيارًا استراتيجيًّا"، وهكذا.

٥ - إنتاج الهيمنة بالصمت

ليـس كلّ تواطؤ يأتي من الفعل، فالصمت ذاته قد يكون مشـاركة في مشروع السـيطرة على الوعي. فالنخب التي تملك أدوات التحليل والرؤية والتأثير، لكنّها تختار الصمت أمام المذابح، والاستلاب، والخضوع، تكون قد أدّت وظيفتها في تثبيت النظام القائم عبر الامتناع عن الفضح.

هـذا النمط من التواطؤ الصامـت، يُعبّر عنه (ثيودور أدورنـو-Theodor Adorno) بتوصيفه للمثقّف الذي يعرف أنّ العالم يسـير إلى الكارثة، لكنّه يفضّل تحليل أسـبابها من بعيد بدلاً من مناهضتها.[1]

إنّ النخبة التي تلوذ بالصمت ليست محايدة، بل تُعيد إنتاج الوضع القائم عبر تجاهله، أو عبر تحويله إلى مجرّد «واقعة عابرة» في سجلّات التحليل.

٦ - تبرير الاستسلام

ومن أخطر أدوار النخب في حروب السيطرة على الوعي، هو أنّها تُبرمج المجتمعات على تقبّل الاستسلام بوصفه حكمة، والتراجع بوصفه واقعيَّة، والخضوع بوصفه وعيًا. في هذا النموذج، لا يُصوَّر العدو قاهرًا، بل يُقدَّم على أنه "أقوى واقعيًّا"، و"لا يمكن هزيمته"، و"من العقل أن نتكيّف معه"، فيجري تجريد الشعوب من إرادة المواجهة حتى قبل بدء المعركة.

1 - See: Theodor Adorno: Minima Moralia, P.P. 39-42.

وهنا، لا تُستخدم مفردات الذلّ المباشرة، وإنما يُعاد إنتاجها بمصطلحات برّاقة: الواقعيَّة السياسيَّة، والبراغماتيَّة، وإدارة الخسائر، وتقليل الأضرار، إلخ.

فالاستعمار لا يُهزم أولاً في المعركة، بل يُهزم حين نرفض منطقه الداخلي، ونكفّ عن تبرير وجوده.

٧ - المثقّف المقاوم والحاجة إلى نموذج بديل

في مقابل كل ذلك، تبرز الحاجة إلى استعادة نموذج «المثقّف المقاوم»، لا بمعنى المزايدة أو الخطابة، بل بوصفه المثقّف الذي يتمسّك بدوره الخُلُقي في مساءلة السلطة، وفضح الهيمنة، وتفكيك الزيف، والوفاء للحق، حتّى لو كلّفه ذلك موقعه أو منصّته.

إنّ المقاومة تبدأ من الكلمة، ومن تحليل الخطاب، ومن التمسك بالبصيرة، ومن إنتاج خطاب موازٍ لا يستعير مفاهيم العدوّ، ولا يعيد إنتاج لغته. وهذه هي الوظيفة البنيويَّة للخطاب الثقافيّ في زمن التشويه.

إنّ الحروب على الوعي باتت تُخاض علنًا، وبمشاركة من نخب تملك المنابر والسلطة المعرفيَّة، لكنّها اختارت أن تُعيد إنتاج الهزيمة، لا أن تواجهها. لقد أصبحت النخبة، في كثير من الأحيان، الجسر الذي تمرّ عليه الهيمنة لتدخل إلى وعي الناس بأناقة.

ومن هنا، فإن استعادة الوعي تبدأ من تفكيك دور النخبة نفسها.

رابعًا: الوعي القرآني والفعل المقاوم

١ - من الإدراك إلى البصيرة

ليست كلمة «الوعي» واردة بنصّها في القرآن، لكنّها حاضرة بمعانيها، ومجالاتها، ومقاصدها، في عشرات المصطلحات القرآنيَّة التي تصف حال الإنسان مع الحقيقة: يعقلون، ويتفكّرون، ويتدبّرون، ويعلمون، ويفقهون، ويبصرون، ويتذكّرون... وهي مفردات تعبّر عن مواقف وجوديَّة من الحقّ والباطل، ومن الوحي والهوى، ومن الله والعالَم.

يضـع القرآن الوعي في صلب معركة الهدايـة والضلال. ومن هنا، فإنّ الوعي في القرآن ليس إدراكًا لما هو كائن، بقدر ما هو تمييزٌ لما ينبغي أن يكون. إنه بصيرةٌ نافذة لا مجرّد عينٍ ترى.

يقول تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤].

فـ "البصائر" هنا هي أنوارٌ تهدي، وتكشف، وتنقذ من العمى.

٢ - الباطل لا يُسقطه العقل فقط، بل النبأ اليقين

إحدى أبرز إشارات القرآن أنّ الحقّ لا يُدرك وحده عبر التفكير الحُرّ بمعزل عن النبوّة، بل إنّ النبـأ هو مفتاح التمييز؛ لذلك كان النبأ العظيم هو الـذي يقطع الطريق على الفتنة الفكريَّة، كما في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ١-٣].

ففي عالم "الاختلاف"، لا يكون الخلاص في النسـبيَّة ولا في الحياد، وإنما في الرجوع إلى النبأ اليقين، أي إلى الوحي بوصفه مصدرًا يقينيًّا للحقّ والمعنى.

وفي هذا السياق، لا يُعرّف القرآن "الجاهل" بأنّه من لا يملك معلومات، بل من غاب عنه النبأ، أو أعرض عن الذكر، أو غُلِّب على عقله بالهوى والظن. وهذا المعنى يتّضح في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

فالآية إدانة صريحة لهيمنة السرديّات الكاذبة حين تسود، وتحذير من الخضوع لما يبدو "رأيًا عامًّا"؛ لأنّه قد يكون مبنيًّا على الظنّ والخُرص، لا على البصيرة والحقّ.

٣ - الوعي القرآني مقاومة للفتنة لا استسلام لها

ومن أبرز المفاهيم القرآنيَّة المرتبطة بحروب الوعي، هو مفهوم الفتنة. ومن أهم مصاديق الفتنة هو التشويش على الحقيقة، وإغواء القلب، والتزييف للواقع. ولذلك، يُقدّم القرآن الفتنة بوصفها سلاحًا يستعمله المستكبرون وأهل الباطل: ﴿لِيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٧٣].

إنّ الفتنة، في جوهرها، تشويشٌ على البصيرة، وتلاعبٌ بالمقاييس، وتبديلٌ للحقائق، وهي ما تتطلّب وعيًا يقظًا وموقفًا مقاومًا، لا مجرّد تأمّل ساذج في الظواهر.

ولذلك، فإن مَهمَّة المؤمن ليست في "التكيّف" مع هذه الفتنة، بل في فضحها، وتجاوزها، وفضّ اشتباكها مع الحقيقة. فالوعي القرآنيّ فعلٌ يُنتج مسارًا، وينحاز إلى الحقّ مهما بدت كثرة على خلافه.

٤ - معايير التمييز القرآني: لا تُسلّم للظاهر

يُعلّمنا القرآن ألا ننخدع بالمَظهَر، ولا بالسرديَّة المسيطرة، ولا حتى بالعلامات الزائفة للقوّة، أو النجاح، أو الحداثة. يقول تعالى: ﴿**فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ**﴾ [التوبة: ٥٥]؛ ﴿**وَإِن يَرَوْا كُلَّ آية لَا يُؤْمِنُوا بِهَا**﴾. [الأنعام: ٢٥].

وهذا يعني أنّ معيار الوعي القرآني، هو في التلقّي النورانيّ القائم على الصدق والتقوى. فالحقّ لا يُعرَف بسطوة الإعلام، ولا بكثرة المتابعين، وإنّما بما هو عليه في ذاته، وبما يوافق الوحي والعدل والفطرة. ومن هنا، فالمؤمن مطالب أن يُبقي على "غربته المعرفيَّة" في زمن الفتن، لا أن يندمج في منطق العالم ويُعيد إنتاج سرديّاته.

٥ - تقويض المنطق الجماعي الزائف

يدعو القرآن إلى مقاومة التقليد والانقياد غير الواعي، ويدين ما يُعرف اليوم بـ «القطيع المعرفيّ»، الذي يتبع السائد لمجرّد أنّه سائد. وقد ورد هذا بوضوح في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الزخرف: ٢٢].

وهذا النمط من التبرير الاجتماعي للرؤية، هو بالضبط ما يُنتَج اليوم عبر النخب والإعلام والتعليم؛ حيث يُقدَّم النموذج الغربيّ بوصفه العقل، والتاريخ، والحداثة، ولا يُسمح بنقده إلا في الهوامش؛ لكنّ القرآن يُعيد الفرد إلى مسؤوليته، ويطلب منه أن يعقل، ويفكّر، وينظر، ويذكّر، ويتدبّر، لا أن يسلّم بحكم القطيع.

٦ - الوحي مصدر بديل للمعرفة

في مواجهة سطوة «المعرفة المصنَّعة»، يقدّم القرآن مصدرًا بديلاً للوعي، لا يخضع لتوجيه

الخوارزميات، ولا لمصالح السوق، ولا لتلاعب السلطة. فالوحي هو ميزانٌ يُفكّك الموازين الزائفة.

إنّ الرجوع إلى الوحي هو استئناف لمسارٍ أصيل من المعرفة المقاومة، التي ترفض الخضوع لهيمنة الرموز، والمؤسّسات، والتمثيلات. فهو تذكير، وتحرير، وبصيرة، ومقاومة.

إنّ الحرب على الوعي هي المعركة الحقيقيَّة التي تتوقّف عليها سائر المعارك. ومن خسر وعيه، خسر حُريَّته، ودينه، وإنسانيته.

وفي زمن كهذا، لا يكون الانتصار في الميدان إلا حين ننتصر أوّلًا في عقولنا وقلوبنا. لا بنفي الآخر، وإنما بإحياء الذات الواعيَّة، التي ترى، وتفكّك، وتُبصر، وتقاوم.

من هنا، تأتي رسالة هذا العدد من مجلة (أُمم): أن نعيد السؤال عن الوعي، لنحفر في بنية الواقع، ونفضح أدواته، ونستأنف الرؤية من مصدرها الأصيل: النبوّة والوحي والبصيرة.

وقد جمع هذا العدد من المجلَّة بين دفتيه ثمانية أبحاث، جاءت على الشكل الآتي:

في المحور كتب البحث الأوّل الأستاذ الدكتور (أحمد إيبش) عن " اللغة بوصفها أداة استعماريَّة: كيف تُشكّل اللغة وعي الشعوب وتخضعها؟». فيما البحث الثاني تصدت له الاستاذة (زكيه قرنفل) وجاء بعنوان: « إعادة تشكيل العالم: الإعلام رافعة الهيمنة الثقافيَّة الغربيَّة»، أما بحث « الهندسة النفسيَّة للمشاعر: كيف يصوغ الإعلام الحب والخوف والعداوة؟» فقد أتحفنا به الأستاذ الدكتور (أحمد نصر الله)، فيما البحث الرابع الذي جاء بعنوان: « صناعة الحقيقة: كيف تنتج مراكز الأبحاث والنخب الإعلاميَّة خطاب السيطرة؟» فقد كتبته الأستاذة (سكينة حسن)، أما الاستاذ (باقر كركي) فقد حفر في « العقل المدبّر لحروب الوعي: مراكز التفكير الغربيَّة والأذرع الاستراتيجيَّة للهيمنة».

وفي باب التأصيل، عالج الدكتور (سجاد العنبكي) "الرؤية القرآنيَّة لصناعة الوعي: العقل، والوحي، والدولة الإيمانيَّة".

وفي باب دراسات وبحوث كتب الدكتور (محمد المستاري) « نهاية وَهْم الهيمنة: في نقد خطاب القوّة المطلقة الأمريكيَّة وحدودها البنيويَّة».

وأخيراً، قدّمت لنا الاستاذة (لينا السقر) قراءة ماتعة في كتاب «احتلال العقل».

إنّنا إذ نقدّم هذا العدد في ظروف اســتثنائيَّة يمرّ بها العالَم، فإنّنا نســأل الله أن يمنّ على الأمة بالعافية، وأن يهديها بصيرتها، ويهديها إلى صراطه المستقيم.

والحمد لله أولًا وآخرًا

المصادر والمراجع:

- إدوارد سـعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربيَّة، بيروت، الطبعة الثانيَّة، ١٩٩١.
- نعوم تشومسكي، السيطرة على الإعلام، ترجمة طلعت الشايب، دار سواف، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦.
- Shanahan, Murray. The Technological Singularity, MIT Press, Cambridge, 2015.
- Paulo Freire, Pedagogy of the Oppressed, Continuum, New York, 2005.
- Shoshana Zuboff, The Age of Surveillance Capitalism, Public Affairs, New York, 2019.
- Timothy Snyder, On Tyranny: Twenty Lessons from the Twentieth Century, Tim Duggan Books, New York, 2017.
- Neil Postman, Amusing Ourselves to Death, Penguin, London, 1985.
- Theodor Adorno, Minima Moralia, Verso Books, London, 2005.

Language as Colonial Tool: How Language Shapes, Subjugates Consciousness of Nations

■ Dr. Ahmad Ibish[1]

Abstract

Language was not merely a neutral medium of communication within the colonial project. Rather, it functioned as a powerful instrument for subjugating populations and dismantling their cultural identities.

By imposing the colonizer's language as the official medium in administration, education, and the judiciary, a deliberate epistemic rupture was created between colonized societies and their cultural heritage. Mastery of the colonizer's language became a prerequisite for access to prestigious social and economic positions.

This linguistic policy was not only aimed at facilitating colonial governance, but also at cultivating local elite fluent in the colonizer's tongue, elite socially and culturally distanced from the so-called "natives." The result was a deepening of class divisions and a weakening of social cohesion within colonized societies.

In contrast, many national liberation movements turned to the revival of indigenous languages as a form of resistance. This was evident, for example, in Algeria, where Arabic education was intensified during the war of independence, or in India, where the Hindi movement emerged as a response to English dominance. In this way, language itself became a central battleground in the struggle for liberation, a site of contestation between cultural survival and colonial domination. As the Algerian thinker Malek Bennabi said: "Colonialism does not merely seize land, it seizes consciousness through language[2].

Keywords: Language, Colonialism, Liberation, Cultural Identity, Hegemony.

1 - Syrian academic researcher, PhD in History and a Master in Philology, Department of Textual Criticism. This research was written using the references of the Akdeniz University Library in Antalya, Turkey. I thank all the staff at the aforementioned library for their cooperation and kind treatment.

2 - Malek Bennabi: Conditions of the Renaissance, pp. 73-75.

اللغّة بوصفها أداةً استعماريّة: كيفَ تُشكّل اللغة وعيَ الشعوبِ وتُخضعُها؟

■ أ. د. أحمد إيبش[1]

ملخّص

لم تكن اللّغة مجرّد وسيلة عابرة للتّواصل في المشروع الاستعماري، بل كانت أداة فعّالة لإخضاع الشّعوب وتفكيك هويّاتها الثقافيّة. فمن خلال فرض لغة المُستعمِر باعتبارها لغةً رسميّة في الإدارة والتّعليم والقضاء، جرى إحداث قطع معرفي بين المجتمعات المُستعمَرة وتُراثها؛ حيثُ صار إتقان لغة المُستعمِر شرطًا للوصول إلى المراكز الاجتماعيّة والاقتصاديّة المرموقة. هذه السّياسة اللّغويّة لم تهدف فقط إلى تسهيل إدارة المُستعمرات، بل أيضًا إلى خلق نُخبة محلّيّة مُتحدّثة بلغة المُستعمِر، منفصلة عمّن يُطلق عليهم «الأهالي»، ما عمَّق الفجوات الطّبقيّة وأضعف التّماسك الاجتماعي في تلك البلاد. وعلى النّقيض، لجأ كثير من حركات التّحرّر الوطني إلى إحياء اللّغات المحلّيّة بوصفها فعلَ مقاومة، مثلما حدث في الجزائر مع تكثيف تعليم اللّغة العربيّة خلال الثّورة التّحريريّة، أو في الهند مع حركة «الهنديّة» لمقاومة الهيمنة الإنكليزيّة. وهكذا، أصبحت المعركة اللّغويّة جزءًا جوهريًا من معركة التّحرّر؛ حيثُ مثّلت اللّغة ساحة للصّراع بين إرادة البقاء الثّقافي وإرادة الهيمنة. وكما يقول المفكّر الجزائري (مالك بن نبي): «الاستعمار لا يكتفي بسرقة الأرض، بل يسرق الوعي نفسه عبر اللّغة.

الكلمات المفتاحية: اللغة، الاستعمار، التحرّر، الهويَّة الثقافيَّة، الهيمنة.

---

١ - باحث أكاديمي سوري، يحمل دكتوراة في التّاريخ، وماجستير في الفيلولوجيا، قسم النّقد النّصّي.
تمّت كتابة هذا البحث بالاستعانة بمراجع مكتبة جامعة (آق دنيز) Akdeniz Üniversitesi في مدينة أنطاليا، تركيّا. وأشكر جميع القائمين على المكتبة المذكورة على تعاونهم ومعاملتهم اللّطيفة.
٢- مالك بن نبي: شروط النّهضة، ص ٧٣-٧٥.

مقدّمة

تبيّن هــذه الدّراســة التّفكيكيّــة أنّ اللّغة ليســت مجرّد وعــاء محايد للمعنى في السّــياقات الاستعماريّة، بل هي جهاز حُكمٍ ينتج التّراتبيّات ويثبّتها ويقوّيها عبر مؤسّسات المدرسة والقضاء والإدارة والسّوق، ثم عبر المنصّات الرّقميّة والذّكاء الاصطناعي. سوف نعمد أدناه إلى عقد إطار نظري يجمع «السّــوق اللّغويّة» و«العُنف الرّمزي» عنــد (بورديو-Pierre Bourdieu)، و«أنظمة الخطــاب» عند (فوكــو-Michel Foucault)، و«الأجهزة الأيديولوجيّة» عند (ألتوســير-Louis Pierre Althusser)، مع أطروحات (فانون-Frantz Fanon) و(سبيڤاك-Lawrence E. Spivak) و(بنديكت أندرسون-Benedict Richard Anderson). وسوف نتفحّص تاريخ أدوات الهيمنة اللّغويّــة: التّعليم، والقضاء، والخرائط، والمعاجم، والتّرجمة، وإصلاح الأبجديّة. ثمّ نطبّق على بعض الدّراسات حالة مقارنة: (الهند البريطانيّة، الجزائر/المغرب، أميركا الشّماليّة/أستراليا، ويلز/إيرلنــدا، شرق أفريقيا، أمــيركا اللّاتينيّة) قبل الانتقال إلى الحاضر الرّقمــي بوصفه فصلاً جديدًا من «استعمار البيانات»، وتمثيلات اللّســان في الخوارزميات. ونخلص إلى أجندة عدالة لغويّة تستبدل أحاديّة اللّسان بـ«كونيّة متعدّدة» تؤسَّس مرجعيّة أكاديميّة مؤسّسيّة في التّعليم، والقضاء، والبحث، ومنصّات الشّبكة العنكبوتيّة.

أولًا: إعادة تركيب الواقع الرّمزي

لم يكن الغزو الاستعماري مجرّد حدث عســكري يهدف إلى السّيطرة على الأرض والموارد فحسب، بل كان مشروعًا حضاريًّا شاملاً يطمح إلى إعادة صياغة الإنسان والمجتمع والمكان، وفق رؤية المُســتعمِر ومصلحتــه. وفي قلب هذا المــشروع، تبرز اللّغة بوصفها أداة التّأسـيس

والهيمنــة الأكثر ديمومــة وتأثيرًا. يجادل هذا البحث بأنّ اللّغة في السّــياقات الاســتعماريّة وما بعد الاســتعماريّة ليســت وعاءً محايدًا للمعرفــة أو مجرّد أداة للاتصال، بــل هي «جهاز حُكم» متكامل (Apparatus of Rule). إنها بالأحرى نظام رمزي ينتج التّراتبيات ويثبّتها، ليس فقط عبر المؤسّسات التّقليديّة، كالمدرسة والقضاء والإدارة، بل هي امتداد إلى الفضاء الرّقمي المُعاصر؛ حيث تُبرمج الخوارزميات، وتُصمّم واجهات المُستخدم.

يبدأ البحــث بتفكيك الإطار النّظري الذي يجمع بين سوســيولوجيا (بيير بورديو)، وتأريخيّة (ميشيل فوكو)، وتحليل (ألتوســير) للأجهزة الأيديولوجيّة، منتهيًا بأطروحات ما بعد الاستعمار لـ (فانون) و(سبيڤاك-Spivak) و(نغوغي وا ثيونغو-Ngũgĩ wa Thiong'o). وينتقل بعدها إلى تشريح الأدوات التّاريخيّة للهيمنة اللّغويّة، من التّعليم والقانون، إلى التّرجمة وإصلاح الكتابة، مع تقديم قراءات معمّقة لدراسات حالة من الهند البريطانيّة إلى الجزائر، ومن المدارس الدّاخليّة في أميركا الشّــماليّة إلى سياســات التّحرير اللّغوي في تنزانيا. ثمّ لا يتوقف البحث عند التّحليل التّاريخي، بل يغوص في التّشــخيص المعاصر لـ «الاســتعمار الخوارزمــي»، وتحيّزات الذّكاء الاصطناعي، ليخلص في النّهايّة إلى طرح أجندة لعدالة لغويّة تقوم على فكرة «الكونيّة المتعدّدة» (Plural Universalism) بوصفهــا بديلاً عمليًّا لإحياء التّعدّديّة اللّغويّة، وإدارتها مؤسّســيًا في التّعليم، والقضاء، والبحث، والمنصّات الرّقميّة. كما يهدف هذا البحث، من خلال هذا المسار، إلى المُســاهمة في تفكيك الإرث المستمرّ للاســتعمار اللّغوي، واقتراح سُبُل للمقاومة وإعادة البناء في الحاضر والمستقبل.

ثانيًا: الإطار النّظري: تشريح آلة الهيمنة الرّمزيّة

لا يمكن فهم تعقيدات الهيمنة اللّغويّة دون الاعتماد على ترسانة نظريّة متعدّدة التّخصصات. يوفّر كلّ منظر عدسةً مختلفةً لرؤيّة الآليّة ذاتها. وفي البداية، دعونا أوّلاً نراجع هنا أهمّ النّظريات:

١. (بيير بورديو): الاقتصاد السّياسي للغة

يطوّر عــالم الاجتماع الفرنسي (بيير بورديو) مفهوم «السّــوق اللّغويّة»؛ حيث تُتداول الكلمات

ليس فقط لمعانيها، بل لقيمتها الرّمزيّة. في هذا السّوق، تُعرِّف المؤسّسات المهيمنة (مدرسة الدّولة، الإعلام الرّسـمي) ما هو «اللّسان الشّرعي» (Legitimate Language). هذا اللّسان ليس طبيعيًا بل هو نتاج تاريخي، وغالبًا ما يكون لهجة الطّبقة الحاكمة التي تمّ إضفاء الطّابع المعياري عليها. من يمتلك هذا اللّسان يكتسب «رأسمالاً رمزيًا» يمكن استثماره في الحصول على مناصب وامتيازات. أمّـا من لا يمتلكه، فأمامه خياران: إمّـا الصّمت، أو التّحدّث بلغة «مشروعـة»، ولكن بنبرة تفضح أصلـه «المنحدر» (اللّكنة، الأخطـاء النّحويّة)، ما يعيد إنتاج دونيّته. يسـمّي (بورديو) هذه العمليّة «العُنف الرّمزي»؛ لأنها تُمارَس بموافقة المضطّهدين أنفسهم، الذين يدركون ضمنيًا «قواعد اللّعبة» ويخضعون لها. في السّـياق الاستعماري، تُفرض لغة المُستعمِر باعتبارها اللّسان الشّرعي الوحيد، بينما تُحوَّل اللّغات المحلّيّة إلى لهجات «دُونيّة» أو «عامّيّة»، لا مكان لها في المجال العام[1].

٢. (لوي ألتوسير): المدرسة جهاز أيديولوجي للدولة

يوسّـع الفيلسـوف الفرنسي (لوي ألتوسـير) تحليل (بورديو) بالتّركيز على الـدّور المركزي للمدرسـة. فيرى أنّ «أجهزة الدّولة الأيديولوجيّة» (مثل التّعليـم، الدّين، الإعلام) هي الأدوات الرّئيسة لإعادة إنتاج علاقات الإنتاج والهيمنة. والمدرسة، تحديدًا، هي التي تعلّم الأطفال الطّاعة والتّسلسـل الهرمي. لكنّها لا تفعل ذلك بشكل أسـاس من خلال المناهج (المحتوى)، بل من خلال الممارسـة اليوميّة. إنها تفرض لغـة معيّنة، وطريقة جلوس، ومواعيـدَ، ونظام عقوبات. بمعنى آخر، الشّكل أهمّ من المحتوى. في المُستعمرة، كانت المدرسة هي الخطّ الأمامي لفرض لغة المُسـتعمِر. لقد كان الأطفال يتعلّمون ليس فقط لغة المُسـتعمِر، بل يتعلّمون أنّ لغتهم الأم هي سـبب تأخّرهم، وبالتّالي يتعلّمون احتقار ذواتهم وثقافتهم. بهذه الطّريقة، أنتجت المدرسة «موضوعات» (Subjects) مُطيعة للسّلطة الاستعماريّة[2].

---

1 - Bourdieu, Pierre, Language and Symbolic Power, pp. 43-65.

Bourdieu, Pierre, "The Economics of Linguistic Exchanges." Social Science Information 16 (6): pp. 645–68.

2 - Althusser, Louis, "Ideology and Ideological State Apparatuses" (Notes towards an Investigation), pp. 127-186.

٣. (ميشيل فوكو): الخطاب وإنتاج الحقيقة

إذا كان (بورديو) و(ألتوسير) يهتمّان بكيفيّة فرض اللّغة، فإنّ المؤرّخ الفرنسي (ميشيل فوكو) يهتمّ بما يجري قوله فيها. يرى (فوكو) أنّ المعرفة والسُّلطة متلازمان؛ فكلّ خطاب (نظام من القواعد يحدّد ما يمكن قوله في مجال معيّن، مثل الطّبّ أو علم الجريمة أو الاستشراق) يُنتج «الحقيقة» الخاصّة به. وهذه «الحقيقة» هي التي تعطي الشّرعيّة لممارسة السّلطة. في المُستعمَرة، أنشأ المُستعمِر أنظمة خطاب عن «الهمجيّة»، و«الكسل»، و«الغدر» الشّرقي. هذه الخطابات لم تكن مجرّد تحيّزات، بل كانت أنظمة معرفة «علميّة» ظاهريًا (مدعومة بالأنثروبولوجيا، الجغرافيا، اللّغويات) وظيفتها تبرير الحكم الاستعماري. واللّغة هنا هي وسيلة نقل هذا الخطاب، وإضفاء الطّابع المؤسّسي عليه. وبناءً عليه، لم يكن الهدف مجرّد تعليم الإنكليزيّة أو الفرنسيّة، بل تعليم العالم وفقًا لرؤية المُستعمِر وتصنيفاته[١].

٤. منظّرو ما بعد الاستعمار: الهويّة، والتّابع، وتفكيك الذّهن

أ. (فرانتز فانون): في كتابه «بشرة سوداء، وأقنعة بيضاء»، يحلّل عالم النّفس الفرنسي "أسود البشرة" (فرانتز فانون) الصّراع النّفسي - الوجودي للشّخص المُستعمَر. تبنّي لغة المُستعمِر ليس فعلاً محايدًا؛ فهو يعني تبنّي عالم القيم والثّقافة الخاصّ به. إنه يشبه ارتداء «قناع» أبيض على جلد أسود. ومن جرّاء ذلك، تصبح اللّغة الأمّ مرتبطة بالعار والدّونيّة. وهذا بدوره يخلق انقسامًا في الذّات، وكراهيّة داخليّة عميقة[٢].

ب. (نغوغي): في كتابه «تفكيك العقل»، يذهب الأكاديمي الكيني (نغوغي وا تيونغو) إلى أبعد من ذلك، مجادلاً أنّ عمليّة الاستعمار اللّغوي هي عمليّة «قتل روحي». إنه في واقع الأمر يدعو إلى مقاطعة جذريّة للغة المُستعمِر في الأدب والفكر في سبيل استعادة الذّات الإفريقيّة؛ إذ إنّ الكتابة بلغة المُستعمِر، بالنّسبة له، هي الاستمرار في

1 - Foucault, Michel, The Archaeology of Knowledge & The Discourse on Language, pp. 21-30, 79-92.

2 - Fanon, F., Black Skin, White Masks pp. 17-40.

التّحدّث بلسان الغازي[1].

ج. (غاياتري سبيڤاك): تطرح الباحثة الهنديّة (غاياتري تشاكراڤورتي سبيڤاك Gayatri-Chakravorty Spivak) السّؤال المشهور: «هل يمكن للتّابع أن يتكلّم؟» (Can the subaltern speak?)، وجوابها هو أنّه حتّى عندما يحاول التّابع (الفلاّحة الهنديّة، المرأة المُستعمَرة) التّحدّث، فإنّ صوتها يُترجم، ويُفسّر، ويُدمج داخل الأنظمة الخطابيّة للغرب (الفكر النّسوي الغربي، النّظريات اللّيبراليّة). وبذلك، يجري «تمثيلها» من قبل الآخرين، ولكنّها نادرًا ما تكون قادرة على تمثيل نفسها. وعنف الوساطة هذا يجعل صوتها الحقيقي غير مسموع[2].

٥. اختراع اللّغات وإعادة تشكيلها: تفكيك المفهوم ذاته

يقدّم (سينفري ماكوني- Sinfree Makoni) و(ألاستير بينيكوك- Alastair Pennycook) نقدًا جذريًا، يفيد بأنّ مفهوم «اللّغة» بحدّ ذاته – باعتباره كيانًا منفصلاً ومستقرّاً ومرتبطًا بهويّة قوميّة – هو مفهوم حديث، وُلد في أوروبا، وجرى تصديره عبر الاستعمار. بينما في إفريقيا وآسيا، كانت الحدود بين «اللّهجات» و«اللّغات» أكثر مرونة. فقام المُستعمِرون واللّغويون، بمساعدة النُّخب المحليّة، بـ «اختراع» لغات معياريّة (Standard Languages) من خلال القواميس والنّحو المعياري، وفي الوقت نفسه قاموا بتقسيم سياقات لغويّة متّصلة (continuums) إلى كيانات منفصلة، ما خلق هويّات «قوميّة» جديدة، وغالبًا ما أشعل نزاعات. هذا المنظور «التّفكيكي» يشكّك في الأسُس الطّبيعيّة للّغة، ويرينا كيف أنّ السّياسة اللّغويّة هي دائمًا سياسة معرفيّة[3].

---

1 - Ngũgĩ wa Thiong'o, Decolonising the Mind: The Politics of Language in African Literature, 4-20.

2 - Spivak, G.C., Can the Subaltern Speak? In Marxism and the Interpretation of Culture, pp. 271-273, 307-310.

3 - Makoni, S., & Pennycook, A. Disinventing and Reconstituting Languages. Multilingual Matters, pp. 1-25.

ثالثًا: أدوات الحكم اللّغوي: آليّات تفكيك العالم وإعادة تركيبه

لم تكــن الهيمنــة اللّغويّة مجــرّد فكرة مجرّدة، بل جــرى تفعيلها عبر مجموعــة من الأدوات المُنهجة والمترابطة، التي شكّلت ما يمكن تسميته «تقنيّة حُكم». كانت هذه الأدوات تشريعيّة، وتعليميّة، وبيروقراطيّة، هدفت إلى إعادة تشكيل الوعي والواقع اليومي للمُستعمَرين.

١. التّعليم: المصفاة العليا للشّرعيّة

كانت المدرســة الاســتعماريّة هي الأداة الأكثر فعاليّة وطولاً في الأمد. لم يكن الهدف تعليم المعارف فحسب، بل كان «تأديب» الأجساد والعقول.

أ. صناعة النُّخب والوسطاء: تجسّدت هذه الاستراتيجيّة في «محضَر ماكولاي في التّعليم» (١٨٣٥) في الهند، ونصّت صراحة على هدف إنشاء «طبقة من الأشخاص هم هنود في الدّم واللّون، ولكنّهم إنكليز في الذّوق، والآراء، والأخلاق، والفِكر». هؤلاء الوسـطاء سيسـهّلون الحكم على الملايين، وسـيكونون منفّذين مُخلصين للإدارة الاستعماريّة. جرى تفضيل التّعليم الإنكليزي للطّبقات العليا والمتوسّطة، بينما تُرك التّعليم «المحلّي» للجماهير في حالة متخلّفة متعمّدة، ما خلق شرخًا طبقيًا-لغويًا لا يزال قائمًا[1].

ب. الغمر اللّغوي والعقاب الجسدي: في المُستعمرات الاستيطانيّة مثل أميركا الشّماليّة وأستراليا، اتّخذت السّياسـة التّعليميّة شكلاً أكثر وحشيّة؛ إذ جرى إنشاء «المدارس الدّاخليّـة الهنديّة»، حيـث كان يجري انتزاع الأطفال قسرًا من أسرهم. كان الشّـعار الصّريح لأحد مؤسّـسي هذه المدارس، (ريتشـارد هنري بـرات- Richard Henry Pratt)، هو «اقتل الهندي فيهم، وأنقذ الإنسان». وبناءً على ذلك، جرى حظر التّحدّث باللّغات الأصليّة تحت طائلة العقاب البدني القاسي (الضّرب، الحرمان من الطّعام) والنّفسي (إذلال الطّفل، بإجباره على ارتداء لوحة عار على صدره). لقد كان الهدف

1 - Macaulay, T.B., Minute on Indian Education (1835), pp. 1-5.

هو اجتثاث الهويّة من جذورها[1].

ج. تأسيس التّراتبيّة المعرفيّة: جرى تصميم المناهج لتعليم تاريخ المُستعمِر، وأبطاله، وأدبه على أنه قمّة الحضارة، بينما جرى تصوير تاريخ السّكان الأصليين وثقافتهم على أنها بدائيّة، وهمجيّة، أو غير ذات أهميّة. فنرى أنّ اللّغة المحليّة، إن دخلت المدرسة، كانت تُدرّس بصفتها لغة أجنبيّة أو موضوعًا تراثيًّا، ما عزّز فكرة أنها أدنى وأقلّ قيمة.

٢. القضاء والإدارة: تشريع التّهميش

كانت اللّغة هي مفتاح الوصول إلى الحقوق والعدالة، وكان حرمانها أداة قويّة للإقصاء.

أ. لغة القانون والحقوق: جعلت الإدارة الاستعماريّة لغة المُستعمِر هي اللّغة الرّسميّة الوحيدة للمحاكم والدّواوين الحكوميّة. وهذا يعني أنّ المستندات القانونيّة، واللّوائح، وعقود المِلكيّة، وشهادات الزّواج والوفاة قد كُتبت جميعًا بلغة لا يفهمها غالبيّة السّكان. لم يكن بمقدور الشّخص الذي لا يُتقن لغة المُستعمِر فهم القوانين التي تحكمه، أو الدّفاع عن نفسه في المحكمة بشكل فعّال، أو المطالبة بحقوقه الملكيّة. من حيث النّتيجة، خلق هذا نظامًا قانونيًا منقسمًا: نظام «حديث» للمستوطنين والنُّخب المتعلّمة، ونظام «عُرفي» مهمّش للسّكّان الأصليين.

ب. التّرجمة أداة تحكّم: لم تكن التّرجمة خدمة محايدة؛ إذ كان المترجمون تابعين للإدارة الاستعماريّة، وكانوا يترجمون فقط ما تراه السّلطة ضروريًا. وغالبًا ما كانت التّرجمات انتقائيّة ومشوّهة لتخدم أغراض المُستعمِر. كانت عمليّة التّرجمة نفسها تؤكّد على هيمنة لُغة المصدر (لغة المُستعمِر)، ودونيّة لُغة الهدف (اللّغة المحلّيّة)[2].

1 - Truth and Reconciliation Commission of Canada. (2015). Honouring the Truth, Reconciling for the Future: Summary of the Final Report, 234-240.

2 - Rafael, V.L., Contracting Colonialism, 110-134.

٣. الخرائط والمعاجم: استعمار الفضاء والتّصنيف

أ. تسمية الأماكن: قام المستكشفون والإداريون الاستعماريون بإعادة تسمية المعالم الجغرافيّة (الجبال، الأنهار، المدن) بأسماء من لغتهم، أو أسماء شخصيّات من تاريخهم[١]. ولا ريب أنّ هذه العمليّة لم تكن بريئة، بل كانت تأكيدًا رمزيًا على المِلكيّة والسّيادة. لقد محت الأسماء الأصليّة التي حملت في طيّاتها ذاكرة المكان، وتاريخه، ورؤية العالم الخاصّة بسكّانه، واستبدلتها برموز تغريبيّة. وهكذا، أصبحت الخريطة أداةً لإنشاء واقع جديد؛ حيث يبدو أنّ الأرض «مُكتشفة» و«مُمهّدة» من قِبَل المُستعمِر[٢].

ب. المعاجم والتّصنيف «العلمي»: قام اللّغويون والمُستشرقون بتجميع قواميس اللّغات المحليّة. وبينما حفظ هذا العمل بعض المعارف، لكنّه غالبًا ما كان يقوم بـ «تجميد» اللّغة وتقنينها وفقًا للمعايير الأوروبيّة. جرى تصنيف الكلمات ضمن فئات (categories) مفاهيميّة أوروبيّة، ووصف التّراكيب النّحويّة المختلفة على أنها «شاذّة» أو «غير منطقيّة». وأصبحت هذه المعاجم هي السّلطة «العلميّة» على اللّغة، ما أسّس لهرميّة؛ حيث تكون لغة المُستعمِر هي المعيار الذي تُقاس عليه جميع اللّغات الأخرى[٣].

٤. إصلاح الكتابة: قطع الجذور الثّقافيّة

كان تغيير نظام الكتابة (من العربيّة إلى اللاّتينيّة، أو العكس) أداة جيوسياسيّة بالغة الأهميّة.

---

١ - على سبيل المثال: سُمّيت روديسيا في جنوب أفريقيا على اسم السّياسي البريطاني (سيسيل رودس- Cecil Rhodes)، واسمها الأصلي: زيمبابْويه (Zimbabwe)، وهو اسم يعود إلى إمبراطوريّة شونا (Shona) القديمة، وأعيد إليها اليوم. وسمّى البريطانيّون جزيرة سيلان بلغتهم (Ceylon)، بينما اسمها القديم بالسّنهاليّة: سري لانكا (Sri Lanka). أمّا مملكة بنين (Benin)، الأفريقيّة القديمة فقد أطلقوا عليها اسم: داهومي (Dahomey). وأطلقوا تسمية بومباي (Bombay) على مدينة مومباي بالهند، وهي نسبة إلى الآلهة المحلّيّة مومبا ديفي. وأيضًا، أطلقوا اسم بورما (Burma) على مملكة ميانمار (Mianmar) القديمة. وأطلقوا اسم ساحل الذّهب (Gold Coast) على إمبراطوريّة غانا الأفريقيّة العريقة.

2 - Bhabha, Homi K., The Location of Culture, pp. 66-84.

3 - Rafael, V.L., Contracting Colonialism, 110-134.

أ. في آسـيا الوسطى تحت الحُكم السّوفيتي: جرى فرض التّحوّل من الأبجديّة العربيّة إلى اللاّتينيّة في العشرينيات (جزء من سياسـة «كورنيزاتسيا»[1] Коренизация أي التّجذير)، ثم إلى السّيريليّة في الثّلاثينيات. كان الهدف المُعلن هو «محو الأمّيّة»، ولكن الهـدف الحقيقي كان قطع صِـلات المنطقة بالعالم الإسـلامي، والنّصوص العربيّة، والتّركيّة العُثمانيّة، وإعادة ربطها ثقافيًا وإيديولوجيًا بموسكو[2].

ب. في تركيـا: كان تحويـل الأبجديّة من العربيّـة إلى اللاّتينيّة عـام ١٩٢٨ تحت حكم أتاتورك جزءًا من مشروع عَلمنة وتحديث قسري، هدف إلى قطع الصّلة مع الماضي العُثماني والإسلامي، والتّوجّه صوب أوروبا.

ج. في المُسـتعمرات الفرنسـيّة في أفريقيا: شـجّعت الإدارة على «لاتنة» كتابة اللّغات المحليّة، بدلاً من اسـتخدام الأبجديّة العربيّة، في محاولـة للحدّ من النّفوذ الثّقافي والدّيني العربي الإسلامي[3].

رابعًا: دراسات حالات متعمّقة: تشريح لتجلّيات الهيمنة وأشكال المقاومة

١. الهند البريطانيّة: هندسة طبقة وسيطة «إنكليزيّة اللّسان»

يعدّ نصُّ (توماس ماكـولي-Thomas Macaulay) (١٨٣٥) بمثابة إعلان صريح لمشروع

1 - Kinville, Patrick James, Interwar Soviet Nationalities Policy: The Case of the Volga Germans. p. 6.

Liber, George, "Korenizatsiia: Restructuring Soviet nationality policy in the 1920s". Ethnic and Racial Studies. 14 (1): 15.

2 - Kinville, Patrick James, Interwar Soviet Nationalities Policy: The Case of the Volga Germans. p. 6.

Liber, George, "Korenizatsiia: Restructuring Soviet nationality policy in the 1920s". Ethnic and Racial Studies. 14 (1): 15.

3 - Truth and Reconciliation Commission of Canada. (2015). Honouring the Truth, Reconciling for the Future: Summary of the Final Report, pp. 234-240.

حكمٍ باللّســان: «نقترح تكوين طبقة من الأشــخاص يكونون هنودًا في الدّم واللّون، ولكنّهم إنكليزٍ في الذّوق والرّأي والعقل والأخلاق». هذه الجملة - التي صارت شعارًا - تضغط تاريخًا طويلاً لقانــونٍ تعليميٍّ، جعل اللّغة الإنكليزيّــة بوّابة القضــاء والإدارة والتّعليم العالي[1]. في الواقع، لم تختفِ اللّغات البنغاليّة والهنديّة والسّنسـكريتيّة، لكنها حُبست في فضاءات البيت والطّقس الدّيني والذّاكرة. وقادت سياسةُ «التّعليم العالي بالإنكليزيّة/ والتّعليم الابتدائي باللّغة المحلّيّة» إلى تراتُب معرفيّ يُســاوي التّقدّم بلســان المركز، ويعكس نفســه في سوق العمل. والملاحظ هنا أنّ تفكّك الاســتعمار السّياسي لم يُنهِ هذه البنيّة؛ إنما كانت الدّولة الوطنيّة هي التي أعــادت توزيع الأدوار داخل نظــام إيكولوجي معقّد، وظلّت الإنكليزيّة رأســمالاً رمزيًّا واقتصاديًّا مرتفع العائد.

٢. الجزائر: ذروة الاستعمار اللّغوي والصّراع على الهويّة

يمثّل المرســوم الفرنسي لعام ١٩٣٨م الذي صنّف اللّغــة العربيّة لغة أجنبيّة في أرض عربيّة ذُروة المشروع الاســتعماري. كانت السّياســة اللّغويّــة جزءًا من مشروع اســتيطاني - إدماجي يهدف إلى خلق «فرنســيين مُســلمين». أُغلق العديد من المدارس والزّوايــا القرآنيّة التي كانت مراكز للتّعليم بالعربيّة. وبالمثل، جرى تهميش العربيّة الفصحى وحوصرت في المجال الدّيني فقط، بينما لم تحظَ اللّهجات العاميّة بأيّ تطوير. وهكذا أصبحت الفرنســيّة لغة التّقدّم والعلوم والإدارة[2]. وبعد الاســتقلال، اصطدمت موجات «التّعريــب» الطّموحة بوجود جيل كامل من النّخب المكوّنة بالفرنســيّة، وبحقيقة أنّ الفرنسيّة كانت متجذّرة في الإدارة والاقتصاد العالمي. بالنّتيجــة، أدّى هــذا إلى حالة من «الازدواجيّــة الصّراعيّة»؛ حيث أصبحت الفرنســيّة والعربيّة علامتين (markers) لهويّتين وطبقتين اجتماعيتين مُتمايزتين، بل ومُتخاصمتين أحيانًا. وتُظهر حالة الجزائر، بوجــه الخصوص، كيف أنّ الهيمنة اللّغويّة تخلق إرثًا معقّدًا يســتمرّ لعقود بعد نهاية الاستعمار السّياسي.

1 - Macaulay, T.B., Minute on Indian Education (1835), pp. 1-5.

2 - Ageron, C.R., Modern Algeria: A History from 1830 to the Present, pp. 87-89, 104-105.

٣. المدارس الدّاخليّة لأميركا الشّماليّة وأُستراليا: إبادة ثقافيّة

كانت سياسات «استيعاب» السّكّان الأصليين في هذه البلدان من أكثر السّياسات قسوة. لم يكن الهدف هو إضافة لغة، بل كان استبدالاً كاملاً للهويّة. جرى منع الأطفال من التّحدّث بلغاتهم تحت طائلة العقوبة الشّديدة. وتمّ تعليمهم احتقار ثقافة آبائهم ووصفها بالهمجيّة. تسبّب هذا النّظام في صدمة نفسيّة جماعيّة عابرة للأجيال (Trauma Intergenerationnel). وبديهيّ أنّ فقدان اللّغة يعني فقدان الرّوابط مع الأسرة، والمعرفة التّقليديّة المتعلّقة بالطّب والنّباتات، والطّقوس الرّوحانيّة، وفلسفة الحياة. ومن نافل القول إنّ هذا الانقطاع الثّقافي له دومًا آثار مدمّرة على الصّحّة النّفسيّة، والتّماسك الاجتماعي لهذه المجتمعات حتى اليوم[١].

٤. ويلز وإيرلندا: الاستعمار اللّغوي في قلب الإمبراطوريّة

لم تكن ممارسات الهيمنة اللّغويّة حُكرًا على المُستعمرات البعيدة، بل مورست داخل الجزر البريطانيّة نفسها. في ويلز، انتشرت «اللّوحة الويلزيّة» القائلة: (Welsh Not) في القرن التّاسع عشر؛ حيث كان يُجبر التّلميذ الذي يُضبط، وهو يتحدّث بلغته الأمّ، على تعليق لوحة خشبيّة على عنقه كُتب عليها: «W.N.» التي تعني: Welsh Not (لا تتحدّث الويلزيّة). كان على هذا التّلميذ أن ينقل اللّوحة إلى أيّ زميل آخر يضبطه وهو يتحدّث الويلزيّة. في نهاية اليوم، كان حامل اللّوحة الأخير يتعرّض للعقاب البدني. هذه الممارسة، التي كانت جزءًا من سياسة «التّعليم الإنكليزي»، نجحت في خلق شعور عميق بالعار والدّونيّة تجاه اللّغة الويلزيّة، وكادت تقضي عليها[٢]. على مرّ السّنين، أدّت حملات المُجتمع المدني والنّضال السّياسي الطّويل إلى تحوّل جذري. ثمّ في عام ١٩٩٣ صدر «قانون اللّغة الويلزيّة» (Welsh Language Act 1993) الذي منح اللّغة وضعًا مساويًا للإنكليزيّة في الحياة العامة. واليوم، نرى أنّ التّعليم ثنائي اللّغة قد أضحى أمرًا شائعًا، وهناك قناة تلفزيونيّة ناطقة بالكامل بالويلزيّة (S4C). وهكذا، تُظهر حالة

1 - Khalid, Adeeb, The Politics of Muslim Cultural Reform: Jadidism in Central Asia, pp. 156-180.

2 - Davies, J. The Welsh Language: A History, pp. 112-118.

ويلز كيف يمكن للسّياسات التّقدّميّة والإرادة السّياسيّة عكس آثار الاستعمار اللّغوي، وإحياء لغة كانت على حافّة الانقراض.

٥. شرق أفريقيا: السّواحليّة أداة لتحرير لغوي ما بعد الاستعمار

اتخذت تنزانيا، تحت قيادة (جوليوس نيريري-Julius Kambarage Nyerere)، مسارًا فريدًا ومختلفًا. فبدلاً من تبنّي الإنكليزيّة لغة وحيدة للدّولة، جرى اعتماد اللّغة السّواحليّة (وهي لغة من زُمرة البانتو (Bantu)، محليّة، ومُعرّبة، وغنيّة بالمفردات العربيّة) لغة رسميّة للتّعليم الأساس، والإدارة، والقضاء. كان هذا القرار سياسيًا بامتياز. هدف إلى خلق هويّة وطنيّة موحّدة تتخطى الانقسامات القبليّة، وضمان عدالة الوصول إلى التّعليم والمشاركة السّياسيّة لأكبر شريحة ممكنة من السّكان. كما كان رفضًا للتّراتبيّة اللّغويّة الاستعماريّة التي وضعت الإنكليزيّة في القمّة[1]. اليوم، لا تزال الإنكليزيّة تحتلّ مكانة مهمّة في التّعليم العالي والتّجارة الدّوليّة، ما يخلق توتّرًا مشابهًا لما حدث في أماكن أخرى. ومع ذلك، يبقى نموذج تنزانيا دليلاً عمليًا على إمكانيّة بناء دولة عصريّة دون جعل لغة المُستعمِر السّابق هي المحور الوحيد، مؤكّدًا أنّ «الكونيّة» يمكن أن تتحقّق بلغة محلّيّة.

٦. سياسات الحرف: السّيرلة واللّاتنة والتّعريب بوصفها خرائط ولاء جيو - ثقافيّة

كان تغيير نظام الكتابة أداة جيوسياسيّة بالغة الأهميّة لفصل المجتمعات عن جذورها الثّقافيّة وربطها بمتروبول جديد. في آسيا الوسطى تحت الحكم السّوفييتي، جرى فرض التّحوّل من الأبجديّة العربيّة إلى اللّاتينيّة في العشرينيات (بوصفها جزءًا من سياسة «كورنيزاتسيا»[2]

1 - Ali A. Mazrui & Alamin M. Mazrui, The Power of Babel: Language and Governance in the African Experience, pp. 101-115.

2 - Kinville, Patrick James, Interwar Soviet Nationalities Policy: The Case of the Volga Germans. p. 6.

Liber, George, "Korenizatsiia: Restructuring Soviet nationality policy in the 1920s". Ethnic and Racial Studies. 14 (1): 15.

Коренизация أو التّجذير)، ثم إلى السّيريليّة (والأصحّ تسميتها: الكيريلّيّة) في الثّلاثينيات. كان الهدف المُعلن هــو «محو الأميّة»، ولكن الهدف الحقيقي كان قطع صلات المنطقة بالعالم الإسلامي والنّصوص العربيّة والتّركيّة العُثمانيّة، وإعادة ربطها ثقافيًا وإيديولوجيًا بموسكو[1]. وفي تركيا، كان تحويل الأبجديّة من العربيّة إلى اللاّتينيّة عام ١٩٢٨ تحت حكم (أتاتورك- Atatürk) جزءًا من مشروع علمنة وتحديث قسري، هدف إلى قطع الصّلة مع الماضي العثماني والإسلامي، والتّوجّه صوب أوروبا، وهو قرار لا يزال يؤثر على الهويّة التّركيّة حتى اليوم. وفي المُســتعمرات الفرنسيّة في أفريقيا، شجّعت الإدارة على «لاتنة» كتابة اللّغات المحلّيّة، بدلاً من استخدام الأبجديّة العربيّة، في محاولة للحدّ من النّفوذ الثّقافي والدّيني العربي الإسلامي، وتعزيز التّبعيّة لـ باريس[2].

٧. أميركا اللاتينيّة: محو لغات وثقافات محلّيّة إلى الأبد

أمّا في أميركا اللاتينيّة تحت الحُكم الإسباني، فقد اتّخذت الهيمنة اللغويّة طابعًا دينيًّا وثقافيًّا متشــابكًا؛ حيث مُحيت لُغــات المايا والكيتشــوا تدريجيًا عبر تحويلها إلى «شــعائر وثنيّة» في الخطاب الكنسي، بينما أصبحت الإســبانيّة لغة الخلاص الدّيني والاندماج الاجتماعي[3]. وقد أدّى هذا إلى تراجع حادّ في استخدام اللّغات الأصليّة، لدرجة أنّ بعضها انقرض تمامًا، كما وثّق مــان (عــام ٢٠٠٥) في تحليله لآليّات الإبادة الثّقافيّة في المكســيك[4]. وفي كتابه الذي يحمل عنوان: (١٤٩١)، يرســم هذا الباحث الأميركي (تشــارلز مان- Ch. Mann) صورة للحضارات الأميركيّة قبل كولومبوس، وهو كتاب محوري مهمّ لفهم «ما جرى محوه» أو تشويهه من خلال عمليّة الاستعمار واللّغات التي فرضها.

1 - Khalid, Adeeb, The Politics of Muslim Cultural Reform: Jadidism in Central Asia, pp. 156-180.

2 - Khalid, A., The Politics of Muslim Cultural Reform: Jadidism in Central Asia, pp. 156-180.

3 - Mignolo, Walter D. Local Histories/Global Designs: Coloniality, Subaltern Knowledges, and Border Thinking., pp. 78-80.

4 - Mann, Charles C. 1491: New Revelations of the Americas Before Columbus, p. 203.

٨. الإمبراطوريّة البرتغاليّة: التّنافس مع إسبانيا على محو ثقافات الشّعوب

وفي الإمبراطوريّة البرتغاليّة، امتدّت هذه السّياسات من البرازيل إلى موسامبيق[١] (Moçambique) (تسمّى بالإنكليزيّة: موزمبيق) وتيمور الشّرقيّة (تيمور ليشتِه Timor Leste)؛ حيثُ استُخدمت البرتغاليّة باعتبارها أداة لخلق «نخبة مُستَوطنة» موالية للاستعمار. ففي موسامبيق، مثلًا، حُظرت اللّغات المحليّة مثل الإيماكوا في الفضاءات الرّسميّة، بينما أصبحت البرتغاليّة شرطًا للتّوظيف في الإدارة الاستعماريّة[٢]. وقد خلّف هذا إرثًا معقّدًا حتى بعد الاستقلال؛ حيث بقيت البرتغاليّة مُهيمنة على النّخب السّياسيّة والثّقافيّة، كما يلاحظ الكاتب الموسامبيقي (ميا كوتو-Mia Couto) (٢٠١٦) في تحليله للهويّة الهجينة في بلاده[٣].

٩. الفيليبين: تبعيّة ثقافيّة مُستدامة لإسبانيا

حتى في الفيليبين؛ حيثُ فشلت اللّغة الإسبانيّة في الانتشار بين العامّة بسبب محدوديّة النّظام التّعليمي الكنسي، لكنّها أصبحت علامة على الانتماء إلى النُّخبة المُستَعبْدَة[٤]. وقد عمّق هذا الفجوات الطبقيّة وأضعف التّماسك الاجتماعي، كما يشير (أندرسون) (١٩٩١) في تحليله لتشكيل الهويات الوطنيّة في ظل الاستعمار[٥]. ويُلاحظ إلى اليوم إصرار المواطنين الفيليبينيين على تسمية أبنائهم بأسماء مركّبة من اسم بلغة التگالوگ (Tagalog) واسم أوسط إسباني، كأنه دلالة على رقيّ زائف.

---

١ - هكذا يُلفظ اسم هذه الدّولة على السّاحل الشّرقي لأفريقيا باللّغة البرتغاليّة، وحرّفه الإنكليز إلى موزَمبيق. وأصل الاسم يعود إلى حاكمها قبل الاحتلال البرتغالي، نحو عام ١٥٠٠ م، وهو تاجر عُماني اسمه: مُوسى بن بيق، فعُرفت بموسى مْبيق، ومنها أتى الاسم البرتغالي.

2 - Vicente, Filipa Lowndes. “Other Orientalisms: India Between Florence and Bombay, 1860-1900”, p. 91.

3 - Couto, Mia. ‘A Língua Portuguesa e a Construção da Identidade Moçambicana’. In Lusofonia e Interculturalidade: Promessa e Travessia , pp. 120-122.

4 - Rafael, Vicente L. Contracting Colonialism: Translation and Christian Conversion in Tagalog Society Under Early Spanish Rule, pp. 34-36.

5 - Anderson, Benedict. Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism, p. 48.

١٠. نماذج من الهيمنة والمقاومة والإحياء:

مثّلت السّياسات اللّغويّة الاستعماريّة ركيزةً جوهريّة في مشاريع الهيمنة؛ حيث لم تكن مجرّد أدوات اتّصال، بل آليّات لتفكيك الوعي الجمعي وإعادة تشكيله وفق رؤية المُستعمِر. ففي غرب إفريقيا الفرنسيّة، جرى توظيف اللّغة بوصفها جزءًا من «المهمّة الحضاريّة» (Mission Civilisatrice)، التي روّجت للفرنسيّة باعتبارها لغة للتّحضّر والمعرفة، بينما نُظر إلى اللّغات المحليّة مثل الولوفيّة (Wolof) والبامبارا (Bambara) على أنها «همجيّة» أو «غير قادرة على نقل الأفكار الحديثة»[١]. وقد تجلّى هذا المشروع عبر نظام تعليمي فرض الفرنسيّة لغة حصريّة في المدارس الرّسميّة، وعاقب التّلاميذ الذين يستخدمون لغاتهم الأمّ بـ «علامة العقوبة» (Signe de punition)، ما أدى إلى قطيعة معرفيّة بين الأجيال وتراثها[٢].

ومنذ فترة سبعينيات القرن العشرين، قادت مجتمعات السّكان الأصليين حركات قويّة لإحياء اللّغة، مدفوعة بإرادة لا تتزعزع لاستعادة الهويّة والشّفاء من الصّدمة التّاريخيّة. وممّا شملته هذه الجهود:

أ. برامج الغمر اللّغوي (Language Immersion Programs): إنشاء رياض أطفال ومدارس كاملة يجري التّدريس فيها حصريًا باللّغة الأصليّة.

ب. توثيق اللّغات المهدّدة: العمل مع اللّغويين المُجتمعيين لتسجيل آخر النّاطقين باللّغات من كبار السّن.

ج. التّكنولوجيا باعتبارها أداةً مُساعدة: استخدام التّطبيقات الذّكيّة ومنصّات التّواصل الاجتماعي لنشر اللّغة.

د. النّضال القانوني والسّياسي: تحقيق انتصارات تشريعيّة كبيرة، مثل «قانون اللّغات الأصليّة الأميركيّة (١٩٩٠)» و«الحقيقة والمصالحة (٢٠٠٨)» في كندا.

ه. إحياء الطّقوس والتّقاليد: ربط اللّغة بممارسات حياتيّة ذات معنى.

هذه الحركات هي شهادة حيّة على القُدرة على الصّمود. والرّائع في الأمر، أنّ هذه الشّعوب نجحت في تحويل اللّغة من أداة استُخدمت لقمعهم إلى سلاح للقوّة والهويّة.

1 - Diagne, Souleymane Bachir. (2016). 'The Language of Portuguese Colonialism', p. 45.

2 - Ager, Dennis. 'Language Policy in Britain and France: The Processes of Policy', pp. 112-114.

خامسًا: الحاضر الرّقمي: الاستعمار الخوارزمي وفجوة البيانات اللّغويّة

يمثّل العصر الرّقمي فصلاً جديدًا ومعقّدًا في تاريخ الهيمنة اللّغويّة. فلقد انتقلت الآليات من المؤسّسات الماديّة (المدرسة، المحكمة) إلى الخوارزميات ومنصّات الإنترنت التي تحكم الفضاء الافتراضي.

١. تحيّز البيانات والخوارزميات:

تُدرَّب نماذج الذّكاء الاصطناعي (مثل نماذج اللّغة كبيرة الحجم - LLMs مثل ChatGPT، وخدمات التّرجمة الآليّة، وأنظمة التّعرّف على الصّوت) على مجموعات بيانات هائلة. لكنّ هذه البيانات غير متوازنة بشكل صارخ؛ فهي تهيمن عليها اللّغة الإنكليزيّة واللّغات الأوروبيّة الرّئيسيّة. على سبيل المثال، قد يجري تدريب نموذج على تريليونات من الكلمات الإنكليزيّة، ولكن فقط على بضعة ملايين من الكلمات بلغة مثل الأمهريّة من إثيوبيا أو اليوروبا من نيجيريا. وتكون النّتيجة: تفاوتًا أدائيًا هائلاً. تكون جودة التّرجمة الآليّة من الإنكليزيّة إلى الفرنسيّة ممتازة، بينما تكون التّرجمة من الإنكليزيّة إلى السّواحليّة أو الهُوسا مليئة بالأخطاء والسّخافات. ونجد أنظمة التّعرّف على الصّوت تفشل في فهم اللّهجات غير القياسيّة أو اللّغات «الأقلّ شيوعًا». علينا أن نلاحظ هنا أنّ هذا ليس فشلاً تقنيًا محايدًا، بل هو انعكاسٌ للتّفاوت التّاريخي والاقتصادي العالمي. وعندما تكون أدوات العمل والتّعلّم والاتّصال الأساسيّة في القرن الحادي والعشرين (محرّكات البحث، المساعدات الذّكيّة، منصّات التّعلّم عبر الإنترنت) تعمل بشكل سيّئ بلغتك، فإنك تُستبعد تلقائيًا من الفرص الاقتصاديّة والمشاركة المعرفيّة العالميّة. فهذه بالضّبط هي «الفجوة الرّقميّة اللّغويّة»[1].

٢. استعمار البيانات (Data Colonialism):

على غرار استخراج الاستعمار الكلاسيكي المعادن والقطن، يستخرج الاستعمار الرّقمي

1 - Birhane, A., Algorithmic Colonization of Africa, pp. 389-392, 400-405.

البيانات من المستخدمين حول العالم؛ إذ يجري جمع بيانات المُستخدِمين النّاطقين بالعربيّة أو الهنديّة أو البرتغاليّة من قبل الشّركات التّكنولوجيّة العملاقة، مثل (Google, Meta, Microsoft)، التي تقوم بمعالجتها وتحليلها لتحسين خدماتها. ومع ذلك، فنادرًا ما تستفيد هذه المجتمعات استفادةً كاملةً من استخراج البيانات. فالقيمة المُولَّدة - من خلال خوارزميات أفضل، وإعلانات مُوجَّهة، ورؤى سوقية - تعود بالأساس إلى الشّركات والاقتصادات التي توجد فيها مقرّاتها الرّئيسية (الولايات المتّحدة والصّين). وهذا يُنشئ شكلاً جديدًا من التّبعية ونقل الثروة، يُحاكي الأنماط الاستعمارية الكلاسيكية[1].

٣. الهيمنة الثّقافيّة عبر منصّات الإنترنت:

تقوم خوارزميات منصّات، مثل يوتيوب، وفيسبوك، وتيكتوك، بتفضيل المحتوى الذي يولّد تفاعلاً أعلى، والذي غالبًا ما يكون بلغات مُهيمِنة أو بلغات محلّيّة، ولكن بأسلوب يرضي الذّوق الخوارزمي (الألغوريثمي) الخاضع لتأثير العولمة. وهذا يمكن أن يؤدّي إلى تآكل الأشكال الثّقافيّة والتّعبيريّة المحليّة الأصيلة لصالح محتوى موحّد ومعولم. تفرض المنصّات معاييرها التّقنيّة واللّغويّة. على سبيل المثال، قد لا تدعم بعض أنظمة التّرميز الموحّد (Unicode) بشكل كافٍ بعض الأحرف أو علامات التّشكيل في اللّغات النّادرة، ما يجبر المُستخدِمين على «التّكيّف»، أو التّخلي عن استخدام لغتهم بشكل صحيح.

سادسًا: نحو عدالة لغويّة: إطار لكونيّة متعدّدة

تتطلّب مواجهة هذا الإرث المزدوج (التّاريخي والرّقمي) أكثر من مجرّد إدانة. بل إنها تتطلّب بناء أجندة عمليّة للعدالة اللّغويّة تقوم على مبدأ «الكونيّة المتعدّدة» – الاعتراف بأنّ الإنسانيّة يمكنها تحقيق تقدّم وتواصل عالمي من خلال لغات متعدّدة وليس لغة واحدة مُهيمِنة.

1 - Birhane, A., Algorithmic Colonization of Africa, pp. 389-392, 400-405.

١. في مجال السّياسات التّعليميّة:

أ. تعميم نموذج التّعليم متعدّد اللّغات القائم على اللّغة الأم: اختصارًا[١]: (MTB-MLE) يجب أن يبدأ التّعليم الرّسمي باللّغة الأمّ للطّفل، لضمان فهم المفاهيم الأساس وتطوير مهارات التّفكير النّقدي. ثم يجري إدخال اللّغة الوطنيّة واللّغات الدّوليّة (مثل الإنكليزيّة) بشكل تدريجي باعتبارها مادّة دراسة، وليست وسيلة أساس لبناء التّعليم. تُظهر الدّراسات بوضوح أنّ هذا النّهج يؤدّي إلى نتائج تعليميّة أفضل بالمُجمل[٢].

ب. تطوير مناهج محليّة مُزيلة للاستعمار: ينبغي أن تعيد مناهج التّاريخ، والأدب، والعلوم الاجتماعيّة، إدماج المعارف المحليّة، وتاريخ المقاومة، ورواية السّكان الأصليين للأحداث[٣].

٢. في مجال السّياسات القانونيّة والمؤسّسيّة:

أ. الاعتراف الدّستوري والقانوني بالحقوق اللّغويّة: يجب أن تكفل الدّول الحق في الحصول على الخدمات العامّة (الصّحّة، القضاء، الإدارة) بلغات المجتمع المحلّي. وهذا يشمل توفير مترجمين معتمدين في المحاكم وطباعة النّماذج الحكوميّة بعدّة لغات[٤].

ب. دعم إنتاج المحتوى والنّشر: تمويل دور النّشر والمجلات والبرامج الإذاعيّة والتّلفزيونيّة التي تعمل باللّغات المحلّيّة. وإنشاء صندوق عام لدعم التّرجمة من وإلى هذه اللّغات.

---

١ - اختصار عبارة: Mother Tongue-Based Multilingual Education.

2 - UNESCO, Education in a Multilingual World.

3 - Linda Tuhiwai Smith, Decolonizing Methodologies (London: Zed, 1999); Sir Apirana Ngata,.

4 - Tove Skutnabb-Kangas, Linguistic Genocide in Education—or Worldwide Diversity and Human Rights?

٣. في مجال البحث والتّكنولوجيا:

أ. دعـم تطويـر تقنيّـات اللّغـة للغـات ذات المـوارد المحـدودة (Low-Resource Languages): يجب على الحكومات والمؤسّسـات الأكاديميّة الاستثمار في إنشاء مجموعات بيانات مفتوحة المصدر (Open-Source Datasets) كبيرة ونظيفة للّغات المحليّة. وتشجيع تطوير أدوات الذّكاء الاصطناعي المفتوحة المصدر، والمُعالجة الطّبيعيّة للّغة[١] (NLP) لهذه اللّغات.

ب. ربط التّقويم الأكاديمي بالجودة وليس باللّغة: يجب على المجلّات والهيئات المانحة للدّرجات العلميّة فصل تقويم جودة البحث عن شرط نشره بلغة بعينها (كالإنكليزيّة). بل ينبغي تشـجيع النّـشر باللّغات الوطنيّـة، وتقديم خدمات ترجمـة عالية الجودة للأبحاث المهمّة.

٤. في حوكمة الفضاء الرّقمي:

أ. التّصميم متعدّد اللّغات منذ البدايّة (Multilingual-by-Design): يجب على مطوّري التّكنولوجيا اعتبار تعدّد اللّغات مطلبًا رئيسًا، وليس إضافة لاحقة. وهذا يشمل دعم ترميز موحّـد (Unicode) كاملاً، وتوطين الواجهات، وضـمان عمل الخوارزميات بشكل عادل عبر اللّغات المختلفة.

ب. الرّقابة المفتوحة والمُسـاءلة: تطوير أُطر شـفّافة لاختبار تحيّز الخوارزميات اللّغويّة وتحليلهـا. ويجب أن تكون الشّركات التّقنيّة مسـؤولة عن الإبلاغ عن أداء منتجاتها في اللّغات المختلفة، وإظهار خُطط لتحسينه[٢].

---

١ - اختصار عبارة: Natural Language Processing.

2 - Birhane, A., Algorithmic Colonization of Africa, pp. 389-392, 400-405.

خاتمة:

ظلّ المشروع الاستعماري اللّغوي، ولا يزال، أحد أكثر أشكال السّيطرة عُمقًا واستمرارًا؛ لأنه يستهدف الأدوات ذاتها التي نفكّر بها، ونسمّي بها العالم، ونبني بها واقعنا. ومن ساحات المدارس، حيث كان يُعاقب الأطفال على التّحدّث بلغة أمّهاتهم، إلى الخوارزميات التي تمحو التّنوّع اللّغوي تحت ذريعة الكفاءة، يبقى المنطق واحدًا ومتشابهًا بشكل لافت: إقامة تراتبيّة؛ حيثُ تُعتبر طرقٌ معينة في الكلام «شرعيّة»، بينما يجري تهميش أخرى.

لكنّ هذه التّراتبيّة، كما تُظهر حالات ويلز وتنزانيا وحركات إحياء اللّغة العديدة، ليست حتميّة. بل من المؤكّد أنّ المقاومة ممكنة... وهي تأخذ شكل معارك قضائيّة، وإصلاحات تعليميّة، وابتكارات تكنولوجيّة، والأهمّ من ذلك، الفعل اليومي المتمثّل في الاختيار المتعمّد للحديث، والإبداع والمقاومة باللّغة الخاصّة.

وعلينا أن نؤكّد هنا أمرًا حيويًّا: العدالة اللّغويّة ليست ترفًا ثقافيًا... بل إنها شرطٌ أساس للعدالة الاجتماعيّة والاقتصاديّة الكاملة. وهي تعني الاعتراف بأنّ الإنسان لا يمكن أن يكون حرًّا إذا كانت لغته مكبّلة. إنّ بناء «كونيّة متعدّدة» هو المشروع المضادّ للاستعمار اللّغوي: فهو لا يقوم على استبدال لغة عالميّة واحدة بأخرى، بل على خلق عالم يمكن فيه للُغات متعدّدة أن تزدهر بوصفها قنوات ناقلة لقيم عالميّة في الكرامة والمعرفة والتّواصل. وهو يتعلّق بضمان ألّا يكون المستقبل الرّقمي واقتصاد المعرفة الذي يُمكّنه حوارًا أحاديًا، بل محادثة حقيقيّة متعدّدة اللّغات؛ حيث يكون للجميع الحقّ في الكلام، وأن يُسمَعوا باللّغة التي يختارونها.

المصادر والمراجع

- مالك بن نبي: شروط النّهضة، دار الفكر، دمشق، لا ط، لا ت.
- Althusser, Louis. (1971). "Ideology and Ideological State Apparatuses." In Lenin and Philosophy and Other Essays. New York: Monthly Review Press.
- Anderson, Benedict. (1983). Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism (Revised Edition). London: Verso.
- Ager, Dennis. (1996). 'Language Policy in Britain and France: The Processes of Policy'. London: Cassell.
- Ageron, Charles-Robert. (1991). Modern Algeria: A History from 1830 to the Present. London: Hurst.
- Bhabha, Homi K. (1994). The Location of Culture. London: Routledge.
- Birhane, Abeba. (2020). "Algorithmic Colonization of Africa." SCRIPTed 17, no. 2.
- Bourdieu, Pierre. (1991). Language and Symbolic Power. Ed. John B. Thompson. Cambridge: Polity Press.
- Bourdieu, Pierre. (1977). "The Economics of Linguistic Exchanges." Social Science Information 16, no. 6.
- Brutt-Griffler, Barbara. (2002). World English: A Study of Its Development. Clevedon: Multilingual Matters, 2002.
- Césaire, Aimé. (1972). Discourse on Colonialism. New York: Monthly Review Press.
- Couldry, Nick, and Ulises A. Mejias. (2019). The Costs of Connection.

Stanford: Stanford University Press.

- Couto, Mia. (2016). 'A Língua Portuguesa e a Construção da Identidade Moçambicana'. In Lusofonia e Interculturalidade: Promessa e Travessia (pp. 115130-). Edited by Anthony Soares et al. Braga: Centro de Estudos Humanísticos, Universidade do Minho.
- Davies, Alan. (2003). The Native Speaker: Myth and Reality. Clevedon: Multilingual Matters.
- Davies, Janet. (1993). The Welsh Language: A History. Cardiff: University of Wales Press.
- Diagne, Souleymane Bachir. (2016). 'The Language of Portuguese Colonialism'. In The Postcolonial Contemporary: Political Imaginaries for the Global Present (pp. 4052-). Edited by Jini Kim Watson & Gary Wilder. New York: Fordham University Press.
- Fanon, Frantz. (1967). Black Skin, White Masks. Trans. C. L. Markmann. New York: Grove Press.
- Foucault, Michel. (1977). The Archaeology of Knowledge. New York: Pantheon, 1972; Discipline and Punish. New York: Vintage.
- Khalid, Adeeb. (1998). The Politics of Muslim Cultural Reform: Jadidism in Central Asia. Berkeley: University of California Press.
- Khosravi Shakib, Mohammad (2011). The position of language in development of colonization. Department of Persian Language and Literature, Human Science Faculty, Lorestan University, I. R. Iran.
- Kinville, Patrick James (2013). Interwar Soviet Nationalities Policy: The Case of the Volga Germans. Budapest: CEU eTD Collection. p. 6.

- Liber, George (January 1991). "Korenizatsiia: Restructuring Soviet nationality policy in the 1920s". Ethnic and Racial Studies. 14 (1): 15.
- Macaulay, T. B. (1835). "Minute on Education". Calcutta: Baptist Mission Press.
- Makoni, Sinfree, and Alastair Pennycook. (2007). Disinventing and Reconstituting Languages. Clevedon: Multilingual Matters.
- Mann, Charles C. (2005). 1491: New Revelations of the Americas Before Columbus. New York: Alfred A. Knopf.
- Mazrui, Ali A., and Alamin M. Mazrui. (1998). The Power of Babel: Language and Governance in the African Experience. Chicago: University of Chicago Press.
- Mignolo, Walter D. (2012). Local Histories/Global Designs: Coloniality, Subaltern Knowledges, and Border Thinking. Princeton: Princeton University Press.
- Mufwene, Salikoko S. (2001). The Ecology of Language Evolution. Cambridge: Cambridge University Press.
- Niranjana, Tejaswini. (1992). Siting Translation: History, Post-Structuralism, and the Colonial Context. Berkeley: University of California Press.
- Ngũgĩ wa Thiong'o. (1986). Decolonising the Mind: The Politics of Language in African Literature. London: Heinemann.
- Phillipson, Robert. (1992). Linguistic Imperialism. Oxford: Oxford University Press.
- Pratt, R. H. (1892). Official Report of the Nineteenth Annual Conference of Charities and Correction.

- Rafael, Vicente L. (1993). Contracting Colonialism: Translation and Christian Conversion in Tagalog Society Under Early Spanish Rule. Durham, NC: Duke University Press.
- Said, Edward W. (1978). Orientalism. New York: Pantheon.
- Seidlhofer, Barbara. (2011). Understanding English as a Lingua Franca. Oxford: Oxford University Press.
- Skutnabb-Kangas, Tove. (2000). Linguistic Genocide in Education—or Worldwide Diversity and Human Rights? Mahwah, NJ: Lawrence Erlbaum.
- Smith, Linda Tuhiwai. (1999). Decolonizing Methodologies: Research and Indigenous Peoples. London: Zed Books.
- Spivak, G. C. (1988). Can the Subaltern Speak? In C. Nelson & L. Grossberg (Eds.), Marxism and the Interpretation of Culture (pp. 271–313). University of Illinois Press.
- Trevelyan, Charles E. (1838). On the Education of the People of India. London: Longman.
- Truth and Reconciliation Commission of Canada. (2015). Canada's Residential Schools: The Final Report of the Truth and Reconciliation Commission of Canada, Vol. 1: The History, Part 1: Origins to 1939. McGill-Queen's University Press.
- UNESCO. (2003). Education in a Multilingual World. Paris: UNESCO.
- Vicente, Filipa Lowndes. (2007). "Other Orientalisms: India Between Florence and Bombay, 18601900-". Translated by Stewart Lloyd-Jones. New York: Columbia University Press.

Reshaping World: Media as Tool of Western Cultural Hegemony

■ Ms. Zakiya Qoronful[1]

Abstract

This research aims at examining how the media has become a tool for reproducing the meaning upon which human life is based, and how the world is shaped according to the dominant Western vision. This is not only at the level of news or entertainment approaches, but also through the production of an integrated civilizational model that serves hegemony and colonialism, based on individualism, consumerism, and neoliberal philosophy. The research begins by analyzing the media as a soft power that consolidates cultural hegemony and opens the way for other forms of political and economic control.

The research examines the roles of cinema and television as classic tools that contributed to the dissemination of colonial imagination and the dissemination of Western lifestyles. The research then focuses on digital media as a new phase in the shaping of collective consciousness, where algorithms control the formulation of public opinion and direct behavior. It discusses the psychological and social consequences and repercussions of this hegemony, from the perpetuation of consumerism to the erosion of collective identity and the rise of the "one-dimensional man."

In contrast, the research proposes strategies for resistance and media liberation through the recovery of local narratives and the building of alternative cultural alliances, emphasizing that media cannot be neutral, but rather a reflection of the intellectual structure it carries

Keywords:

dia, Cultural Hegemony, Globalization, Individualism, Neoliberalism, Soft Power, Symbolic Control, Colonial Imagination, Algorithms, Shaping Collective Consciousness, One-Dimensional Man, Collective Identity.

1 -Syrian writer, Master's degree in Educational Administration and Development, Saint Joseph University, Lebanon.

إِعَادَةُ تَشْكِيلِ العَالَمِ: الإِعلامُ رَافِعَةُ الهَيْمَنَةِ الثَّقَافِيَّةِ الغَرْبِيَّةِ

■ زكيه قرنفل[1]

ملخّص

إنَّ هذا البحثَ يهدفُ إلى دراسةِ الكيفيّةِ التي أصبحَ فيها الإعلامُ أداةً لإعادةِ إنتاجِ المعنى الذي تقومُ عليه الحياةُ البشريّةُ، وكيفيّةِ تشكيلِ العالمِ وفقَ الرؤيةِ الغربيّةِ المُهيمنة، ليسَ فقط على مستوى نهجِ الأخبارِ أو الترفيهِ، وإنما من خلالِ إنتاجِ نموذجٍ حضاريٍّ متكاملٍ يخدمُ الهيمنةَ والاستعمارَ؛ إذ يقومُ على الفردانيّة، والاستهلاك، والفلسفةِ النيوليبراليّة. ينطلقُ البحثُ من تحليلِ الإعلامِ بوصفه قوّةً ناعمةً ترسِّخُ الهيمنة الثقافيّةَ، وتفتحُ المجالَ أمامَ أشكالٍ أخرى من السيطرةِ السياسيّةِ والاقتصاديّة.

يتناولُ البحثُ أدوارَ السينما والتلفزيون، باعتبارهما أدواتٍ كلاسيكيّةً أسهمتْ في نشرِ الخيالِ الاستعماريِّ، وتعميمِ أنماطِ الحياةِ الغربيّة، ثمَّ يركّزُ على الإعلامِ الرقميِّ بوصفه مرحلةً جديدةً في هندسةِ الوعيِ الجماعيِّ؛ حيثُ تتحكَّمُ الخوارزميّاتُ في صياغةِ الرأيِ العامِّ، وتوجيهِ السلوك. ويناقشُ التبعاتِ والانعكاساتِ النفسيّةَ والاجتماعيّةَ لهذه الهيمنة، من تكريسِ النزعةِ الاستهلاكيّةِ إلى تآكلِ الهويّةِ الجماعيّة، وصعودِ «الإنسانِ ذي البُعدِ الواحد». وفي المقابلِ، يطرحُ البحثُ استراتيجيّاتٍ للمقاومةِ والتحرّرِ الإعلاميِّ، عبرَ استعادةِ السرديّاتِ المحليّة، وبناءِ تحالفاتٍ ثقافيّةٍ بديلة، مؤكّداً أنَّ الإعلامَ هو انعكاسٌ للبِنيةِ الفكريّةِ التي يحملُها.

الكلمات المفتاحية: الإعلامُ، الهيمنةُ الثقافيّةُ، العولمةُ، الفردانيّةُ، النيوليبراليّةُ، القوّةُ الناعمةُ، السيطرةُ الرمزيّةُ، الخيالُ الاستعماريُّ، الخوارزميّاتُ، هندسةُ الوعيِ الجماعيِّ، الإنسانُ ذو البعدِ الواحدِ، الهويّةُ الجماعيّةُ.

---

١ - (كاتبة من سوريا)، بكالوريوس فلسفة، ماجستير في الإدارة والتطوير التربوي - جامعة القديس يوسف.

المقدمةُ

من أوّل الأرض إلى آخرها، كانت المساحات والشعوب التي رزحت تحت وطأة الاستعمار شاسعةً إلى حدٍّ يكاد يُلغي فكرة «المكان الآمن من الاستعمار» من ذاكرة البشريّة. قلّما نجا موضعٌ على هذا الكوكب من هذه الظاهرة الإنسانيّة التي تناقض الغاية من قيام الحضارة؛ إذ تُحيلُ العمران إلى قهر، والمعرفة إلى شرعنة للظلم. غيرَ أنّ أخطر مساحة بلغها الاستعمار هي العقلَ البشريَّ نفسَه. فنتائج استعمار العقل أشدُّ وطأةً على المجتمعات؛ لأنّها تُنهي فعاليّةَ الإنسان في التاريخ: ذاك الكائن الذي كرّمه الله، لقدرته على التعلّم والتسمية والتمييز، ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾ [البقرة: ٣١]، وربط حريّتَهُ بالمسؤوليّة حين قرّرَ: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ [البقرة: ٢٥٦]. حين يُسلبُ الإنسانُ هذه القدرةَ على التعلّم والاختيار، تغدو الهيمنةُ الفكريّةُ تعطيلاً للأنسنة؛ لأنّها تسلبُ الإنسانَ إنسانيّتَهُ من جذورها.

لم تعد الهيمنةُ في زمننا هذا تقومُ على الاستعمار المباشر وحدَهُ؛ بل أصبحت أكثرَ تجذّرًا وخطورةً. تتسلّلُ عبرَ الثقافة والإعلام والتعليم والاقتصاد والرّياضة، وهي ما اصطلحَ (جوزيفُ ناي - Joseph S. Nye) على تسميته بـ"القوّة الناعمة"؛ القُدرة على تحقيق ما تريدُ بالجاذبيّة والإقناع لا بالإكراه.[1]. تحفرُ هذه القوّةُ في طبقات الوعي والقيم والمخيال، فتجعلُ الشعوبَ تتبنّى ما يُعادُ تعريفُهُ لها بوصفه «طبيعيًّا» و«كونيًّا» كأنَّهُ القَدَرُ! بينما هو في الحقيقة، تمثُّلٌ لخيارات القوّة المهيمنة. وهنا تتبدّى خطورتُها؛ إذْ تُهندسُ تبعيّةً بلا مقاومة، وتحوِّلُ المفاهيمَ المفروضةَ إلى بنيةٍ إدراكيّةٍ وثقافيّةٍ للشعوب.

١ - جوزيف س. ناي: القوّة الناعمة (وسيلة النجاح في السياسة الدولية)، ص٢١.

ضمنَ هذا المشهدِ، يَقِفُ الإعلامُ في المركزِ، لا على الأطرافِ. فالإعلامُ بشتّى أدواتِه؛ قديمُهُ: عبرَ الشاشةِ الكلاسيكيّةِ، وحديثُهُ: عبرَ المنصّاتِ والخوارزميّاتِ، ليس ناقلاً مُحايدًا للوقائعِ، بل حاملاً لمشروعٍ متكاملٍ يصوغُ العالمَ على صورةِ مَن يَملكُ أدواتَ البثِّ والترميزِ والإنتاجِ. منذُ أن نبَّهَ (إدوارد سعيد) إلى أنّ الثقافةَ هي جهازُ الامبرياليّةِ المعرفيُّ والرَّمزيُّ الَّذي يُشرعِنُ التوسُّعَ، ويُعيدُ تمثيلَ الآخَرِ[١]. وإلى اليوم، تتراكمُ الأدلّةُ على أنّ السرديّاتِ الكبرى تُصنعُ في غرفِ التحريرِ، واستوديوهاتِ السينما، ومختبراتِ الخوارزميّات قبل أن تهبطَ إلى الواقعِ على هيئةِ «حقائق» في متناولِ الناس.

يُبين (هيربرت شيللر - Herbert I. Schiller) كيف تُدارُ العقولُ عبر صناعةٍ إعلاميّةٍ واعيةٍ بالبنى النفسيّة والاجتماعيّة، لتشكيلِ "القبول"[٢]، بينما جهُد (نعوم تشومسكي - Noam Chomsky) و(إدوارد هيرمان - Edward S. Herman) على دراسة "نموذجِ الدعاية" وتعريته، لفهمِ كيف تُغربل الأخبارُ، وتُصاغُ الأجندات لحسابِ مصالحِ القوى الاقتصاديّة والسياسيّة المُهيمنة[٣]. وقدّمَ (ستيوارت هول - Stuart Hall) منظورَ «الترميز/الفكّ»، ليبيّن أنّ الرسالةَ الإعلاميّة ليست ما يُقال فحسب، بل كيف يُشفَّرُ المعنى، وكيف يُفكّ تبعًا لموقعِ المتلقّي[٤]. وكذلك نجد كيف أنّ الوسيط المؤثّر في العملية الإعلامية هو الرسالة، وشكلُ الوسيطِ يطبعُ محتواهُ وبناه الإدراكيّة بالضرورة كما بيّن (مارشال ماكلوهان - Marshall McLuhan)[٥].

هذهِ البنى الإعلاميَّةُ تؤدِّي غرضَها بتواطؤٍ عميقٍ ومُتداخلٍ؛ إذْ تتكاملُ أدواتُ الصُّورةِ والخوارزميَّةِ والخطابِ، لإنتاجِ عالمٍ واحدٍ تُعادُ قَولبتُهُ على مقاسِ الرؤيةِ الغربيَّةِ. فالشَّاشةُ

---

١ - انظر: إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالي، ص١٠٣ - ١١١.

٢ - هيربرت أ. شيللر: المتلاعبون بالعقول، ص ١٧٨ - ١٧٩.

3 - Edward S. Herman and Noam Chomsky. Manufacturing Consent: The Political Economy of the Mass Media. The Bodley Head, London, 2008, p. 29.

4 - Stuart Hall, "Encoding/decoding." In Culture, Media, Language, London: Hutchinson, 1980, pp. 128–138.

5 - Understanding Media: The Extensions of Man, Marshall McLuhan, Gingko Press, California, 2003, pp. 100–106.

الكلاسـيكيَّةُ، وفي طليعتها "هوليوود"، التي تُقنِّنُ الممكنَ والمُتخيَّلَ معًا؛ تُؤلِّهُ الفَردانيَّةَ وتربطُ البُطولةَ بالقُوَّةِ الماديَّةِ الخارقة، وتُقدِّم الاسـتهلاكَ بوصفه هُويَّـة حديثة، وعَلامة على التَّحضُّر، فيما تُعيد تمثيل الشُّـعوب المُستَعمَرة، وفي مُقدِّمَتِها العربيَّ والمسلمَ، في قوالبَ نَمطيَّة تُشرعِنُ التَّدخُّلَ السِّياسيَّ والاقتصاديَّ، باسمِ "الحُرِّيَّة" و"الدِّيمقراطيَّة" و"التَّمدُّن".

خلف كَواليس هذا المَشـهَد البَصريِّ الَّذي يَبدو مادَّةً للتَّسلية، تَعملُ الخوارزميَّات كَمُهندِس خَفـيٍّ لـلإدراك؛ إذْ لا تُظهِرُ للعَقـل البَشريِّ كُلَّ العالَم، بل تَرسُـم لهُ عالَـمًا مُغربلًا على مقاس سُلوكه السَّـابق، فتَغدو غُرَفُ الصَّدى، وآليَّاتُ التَّوصيةِ والتَّرتيبِ الرائجة وسائلَ لتَطويع الوَعي الجَمعيِّ، وإعادة إنتاجه. بذلكَ يَتَحوَّلُ "اختيارُ" المُستخدِم إلى استجابةٍ مُبرمجةٍ مسبقًا، وتُستَبدَلُ الحُرِّيَّةُ الرَّقميَّةُ بحالَةٍ من التَّوجيه الهادئ الَّذي يَخلُقُ وَهمَ المُشارَكَة. أمّا على مُستَوى الخطاب، فيُعادُ تَشـكيلُ الواقعِ نَفسـه عَبرَ تَقنيّات التَّأطيرِ وتَراتُبِ الأَولويّات. فالإعلامُ لا يَنقُلُ الأَحداثَ فَحَسْبُ، بل يُعيدُ صِناعتَها، بحَيثُ يَجعَلُ بَعضَ الوَقائعِ أَولويَّةً ومُهمَّةً، وأُخرى مَطموسةً ومَنسيَّةً. يُختَلَقُ العَدوُّ، وتُستَدعى مَشاعرُ الخَوف، لتَبريرِ السِّياساتِ الأَمنيَّة، أَو الحُروبِ تَحتَ شِعاراتِ "الضَّرورَةِ الواقعيَّة"، فيُصبحُ الاحتلالُ دِفاعًا عن الحُرِّيَّة، والهيمَنَةُ اسـتقرارًا وسَـلامًا. هكَذا، لا تكتَملُ السَّـيطرَةُ بالإخفـاء، بل بالإغراق؛ إذْ تَخلُقُ كَثافَةُ الرَّسـائلِ وتكرارُهـا حالَةً من الإجماعِ المُتَخَيَّـلِ، الَّذي يَجعَلُ كُلَّ صَوتٍ ناقدٍ نشـازًا، وكُلَّ مُقاوَمَةٍ تَبدو خُروجًـا عنِ المَنطِقِ المَقبولِ شعبويًّا[1].

لا يقتصرُ أثرُ هذه المنظومة على السياسـة الدوليّة، إنّها تُعيدُ بناءَ الذاتيّة. فالإنسانُ، في بيئات إعلاميّة مُشبعة، يتلقّى هويّتَهُ في قوالبَ سرديّات، وصُوَرٍ جاهزة: نجاحٌ يُقاسُ بالاستهلاك، وحُرِّيَّةٌ تُختـزلُ في تَعَدُّدِ خياراتٍ مُتشـابهة، وحداثةٌ تُسـاوي مُحاكاةَ النَّموذجِ الأمريـكيِّ. هُنا، يَتَقاطعُ مَفهـومُ الهيمنـة الرمزيَّة عندَ (بيـير بورديـو - Pierre Bourdieu)؛ حيثُ تُفـرَضُ مَعاييرُ الذَّوق والقيمة مـن أعلى، معَ مَفهوم الهيمنة الثقافيَّة عندَ (أنطونيو غرامشي - Antonio Gramsci)؛ إذْ تَستبطِنُ الجَماعاتُ سَرديَّةَ القُوَّةِ بوَصفِها "عَقلَ الواقعِ". تمامًا كما يُعرِّفُ (ميشيل فوكو - Michel

1 - Forest, J. J. F. "Political Warfare and Propaganda: An Introduction." Journal of Advanced Military Studies, Vol. 12, No. 1, 2021, pp. 13–33.

Foucault) السُّـلطةَ بوَصفِها شَـبَكةَ عَلاقاتٍ تُنتِجُ المَعرِفةَ وتُنظِّمُ الأجسادَ والأنظارَ[1]، ما يتيحُ النظرَ إلى الإعلامِ باعتباره تكنولوجيا ضبطٍ ثقافيٍّ تراقبُ، وتُسجّل، وتُعيد توزيعَ الشرعيّة.

تنطلقُ هذه الدِّراسة من فرضيَّةٍ مَحوريَّة: الإعلامُ حامِلٌ للهيمنة الثَّقافيَّة الغَربيَّة، لا بوصفه أداةَ تواصُلٍ مُحايدةً، وإنما بوَصفِه بنيةً إنتاجيَّةً للمعنَى، تصوغ العالَمَ وفقَ نَموذجٍ حَضاريٍّ مُهيمنٍ - فَردانيٍّ، واستهلاكيٍّ - نيوليبراليٍّ، تُقدِّمُهُ للآخَرينَ بوَصفِه "الطَّبيعيَّ" و"العالَميَّ". وعليه، تَطرَحُ أَسئلَةً رئيسـةً: كيفَ تنتجُ الوسائطُ والسَّرديّاتُ الإعلاميَّةُ قابليَّةَ الاستعمارِ في الذِّهنِ؟ وما آليّاتُ الهيمنة النّاعمَة في الصِّناعة الثَّقافيَّة من الشّاشَة الكلاسيكيَّة إلى الخوارزميّات؟ وكيفَ يُمكنُ نَزعُ استعمارِ الوعي، بإعادة امتلاك السَّرديَّة، واللُّغة، وبناء إعلامٍ تَحرُّريٍّ بَديلٍ؟

تعتمدُ الدِّراسـةُ مُقارَبَةً تَحليليَّةً نَقديَّةً، تتقاطَعُ فيها علومُ الاتِّصالِ والدراساتُ الثَّقافيَّةُ، وعلمُ الاجتماعِ السّياسيِّ ونَظريّاتُ ما بَعدَ الكولونياليَّة، وتَدمجُ بينَ قِراءةٍ في نَماذجَ سينمائيَّةٍ وتلفزيونيَّة، وتَحليلٍ إطاريٍّ لِبَعضِ آليّاتِ المَنصّاتِ الرَّقميَّة، وإحالاتٍ نَظريَّةٍ عندَ مَجموعةٍ من أبرزِ مُفكّري مناهضةِ الاسـتعمار: (سـعيد) و(ناي) و(شـيللر) و(تشومسـكي/هيرمان) و(بورديو) و(هول) و(المسيري) و(فوكو) وآخَرينَ، مع الإفادَة من إضافاتٍ معاصِرَةٍ في مجالِ "الاستعمارِ الرَّقميِّ"، وغرفِ الصَّدى. إنَّ مَعركَةَ الإنسـانِ اليومَ ليسـت على الأرضِ وَحدَها، بل على المَعنَى والذّاكرَة وحقِّ السَّرد. فإذا كانَ الاسـتعمارُ قد احتلَّ المكانَ، فـإنَّ الهيمنَةَ الإعلاميَّةَ تُحاولُ أن تُقصيَهُ من مكانِه الإدراكيِّ. ومِن هُنا، تَبرُزُ الحاجَةُ إلى مَشروعٍ معرفيٍّ - عمليٍّ يَربطُ تَفكيكَ البنيةِ الإعلاميَّةِ ببناءِ بَدائلَ تَحرُّريَّةٍ، تعيدُ للإنسانِ القُدرَةَ الَّتي كُرِّمَ بِها: التَّعلُّم والاختيار.

أولًا: الإعلامُ أداةٌ لإعادة إنتاج الهيمنة

منذ نشـأتِه الأولى، لم يكنِ الإعـلامُ وليدَ حاجةٍ شـعبيّةٍ للمعرفة، أو وسـيلةً محايدةً لتداول الأخبـار، بل كانَ في جوهرِه امتدادًا لسـلطةِ المـالِ والنفوذ. فمنذ أن اخـترعَ (يوهانُ غوتنبرغَ- Johannes Gutenberg) المطبعةَ في منتصـفِ القرنِ الخامسِ عشرَ، ارتبطَ إنتاجُ الكلمةِ برأسِ

١ - ميشيل فوكو: المراقبة والعقاب (ولادة السجن)، ص ٣٤ - ٣٥.

المال، وأصبحت المعرفةُ سلعةً لا يملكُ أدواتَها سوى المتموّلينَ، وأصحابِ الامتيازاتِ التجاريّةِ والسياسـيّةِ. قبلَ المطبعةِ، كانتِ الأخبارُ تُتداولُ شفهيًّا في الأسواقِ والمنتدياتِ، أو في نشراتٍ يكتبُها التّجارُ، لتبادلِ المعلوماتِ عن الأسـعارِ، والملاحةِ، وحركةِ الملوكِ والجيوشِ. ولم تكنْ تلكَ النشراتُ تعبيراً عن وعيٍ جمعيٍّ، بل عن مصلحةٍ طبقيّةٍ محدّدةٍ. ومعَ انتشارِ الطباعةِ، تكرّسَ هذا الطابعُ الطبقيُّ لوسـائلِ الإعلامِ: فالآلةُ التي صنعتِ الوعيَ لم تكنْ في يدِ الشعوبِ، بل في يدِ من يمتلكُ أدواتَ إنتاجِه.[1]

وحين ظهرت الصحف الأولى في أوروبا، مثل Relation الألمانية (١٦٠٥) وThe Weekly News في لندن (١٦٢١)، لم تكنْ منابرَ للحرّيّةِ بقدرِ ما كانتْ تحالفًا بينَ رأسِ المالِ والسّـلطةِ السّياسيّةِ. كانتْ تمُوَّلُ منَ التُّجّارِ أو البلاطِ المَلَكيِّ، وتعملُ ضمنَ ما يسمحُ بهِ الرُّعاةُ والممولّونَ، حتى باتتْ حرّيّةُ الصّحافةِ مشروطةً بإرادةِ السّوقِ. ومعَ الزّمنِ، ترسّختْ هذهِ البنيةُ، فغدا الإعلامُ رهينةً لسلطةِ رأسِ المالِ، يُعيدُ إنتاجَ مصالحِ الطّبقةِ المُهيمنةِ، ويقدِّمُها بلبوسِ "المصلحةِ العامّةِ".

ولَئِنْ لمْ يَكُنْ وعيُ الجماهيرِ في القـرونِ الأولى مُدركًا بعدُ لخطورةِ الدعايةِ، فإنَّ البنيةَ ذاتَها تطوَّرَتْ في القرنِ العشرينَ إلى منظومةٍ دعائيّةٍ متكاملةٍ. فاختراعُ الراديو، ثُمَّ التلفزيونُ، نقلَ الإعلامَ من فضـاءِ النخبةِ إلى فضاءِ الجماهيرِ، لكنَّهُ لمْ يُغيِّرْ جوهرَ السـيطرةِ، بل وسَّـعَ نطاقَها، مُحوِّلاً المعلومةَ إلى سلعةٍ، والرأيَ إلى أداةِ نفوذٍ سياسيٍّ واقتصاديٍّ[2]. وفي كلِّ مرحلةٍ من مراحلِه، ظلَّ الإعلامُ مرآةً لبنيةِ القوّةِ في المجتمعِ: من الصُّحفِ التي يملكُها التُّجّارُ، إلى المحطّاتِ الحكوميّةِ، وصولاً إلى المنصّاتِ الرقميّةِ، التي تتحكّمُ بها الشركاتُ العملاقةُ اليومَ.

إنَّ تتبّعَ تاريخِ الإعلامِ، يكشفُ أنَّهُ لمْ يَكُنْ يومًا "صوتَ الجماهيرِ"، بلْ صوتَ منْ يملكُ القدرةَ عـلى مخاطبتِهمْ؛ إذْ إنَّهُ يقومُ على معادلةٍ غـيرِ متكافئةٍ بينَ المُنتِجِ والمُتلقيِّ: الأوّلُ يمتلكُ رأسَ المالِ والتقنيةَ، والثاني لا يملكُ سوى التلقّي. ومنْ هنا، لمْ تكنْ فكرةُ "الاستقلالِ الإعلاميِّ" إلّا

1 - Asa Briggs and Peter Burke, A Social History of the Media: From Gutenberg to the Digital Age, Polity Press, Cambridge, 2022, 5th edition, P. 248.

2 - Tala Otaibi, and Johnny Achkar. Article: «The Evolution of Mind Control: How the Media Controls What the Public Thinks.»

أسـطورةً وُلِدَتْ في رحمِ الرأسماليّة، لتبريرِ تبعيّةِ الكلمةِ للسوق. إنَّ الإعلامَ الحديثَ، مهما بدا متعدّدًا وشاملاً، يعملُ وفقَ منطقٍ واحدٍ: منْ يمتلكُ الأداةَ، يمتلكُ المعنى.

١. الإعلام وترسيخ «القابلية للاستعمار»

في خمسـينيّاتِ القرنِ الماضي، قـدّمَ المفكّـرُ الجزائريُّ (مالكُ بـنُ نبيٍّ) مفهـومَ "القابليّةِ للاستعمارِ"، وهي الحالةُ الذهنيّةُ التي تسمحُ للمستعمِرِ "الآخرِ" بالتغلغلِ في الذاتِ، واستلابِها من الداخلِ. هذه القابليّةُ لا تُخلَقُ بالسلاحِ، بل بالثقافةِ والصورةِ والرّمزِ.

أدركَ (مالـكُ بـنُ نبيٍّ)، الذي أمـضى حياتَهُ يحفرُ في آثارِ الاسـتعمارِ وطرائـقِ مواجهتِه، أنَّ الاستعمارَ لا يبدأُ حينَ تعبرُ الجيوشُ الحدودَ، بل حينَ ينجحُ في عبورِ الوعي. فالاستعمارُ، في جوهرِه، ليسَ احتلالاً للأرضِ فحسب، بل احتلالٌ للإنسانِ من داخلِه، حينَ يُنتزعُ من ذاتِه، ويُعادُ تشكيلُ علاقتِه بالعالمِ وفقَ منطقِ المستعمِرِ.

فـ "القابليّةُ للاستعمارِ" عندَ (بن نبيّ) ليستْ مجرّدَ ضعفٍ عسكريٍّ، أو تخلّفٍ اقتصاديٍّ، بل حالةٌ نفسـيّةٌ – حضاريّةٌ، تجعلُ الأمّةَ مهيَّأةً لتقبّلِ السـيطرةِ؛ لأنَّها فقدتْ ثقتَها برسالتِها وقدرتِها على الإبداعِ. هيَ لحظةُ الانكسارِ التي يتحوّلُ فيها الكائنُ الحرُّ إلى تابعٍ، يرى خلاصَهُ في تقليدِ من قهرَهُ، ويبحثُ عن ذاتِه في مرايا الآخرِ[١].

ويعتبرُ (بن نبيّ) أن جذورَ هذه القابليّةِ تكمنُ في تعطّلِ الفاعليّةِ الحضاريّةِ للإنسان؛ فحين تفقدُ المجتمعاتُ قدرتَها على إنتاجِ الأفكار، تسـتعيرُ أفكارَ الأمم الأقـوى، وحين تتخلّى عن رموزِها، تُصبحُ قابلةً لتبنّي رموزَ الآخرينَ ومعاييرهم؛ ذلك أنّ الثقافة، في تصوّره، ليست زينةً للحياة، بل هي النظام الداخليّ الذي يوجّه الطاقة الحضاريّة للأُمّة، فإذا اخترقها الآخر وأعاد تشكيلها، فقدت الأُمّة قدرتها على المقاومة. ويرى أنَّ السلاحَ لا يهزمُ الأممَ، بقدرِ ما يهزمُها تفوّقُ الآخرِ في الرمزِ والفكرةِ والصورةِ؛ لأنَّ الهزيمةَ الحقيقيّةَ تحدثُ حينَ يُعادُ تعريفُ الذاتِ من خارجِها[٢].

---

١ - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص٥٤.

٢ - مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص١١٢.

إذًا، الاستعمارُ ليس حادثةً خارجيَّةً، بل نتيجةٌ لخللٍ داخليّ في توازنِ الإنسان مع أفكارِه وقيمِه؛ حيث تتحوَّلُ الإرادة من فاعلة إلى منفعلة، والعقل من مُنتجٍ للمعنى إلى مستهلكٍ له، فالشعوب المُستعمرة لا تعرف تعريفًا للحريَّة، والديمقراطيَّة، والتحضّر خارج ما يقدّمه الغرب لهم عبر الإعلام، والسينما، وغير ذلك من أدوات تفخيخ الوعي. يصف (بن نبيّ) هذه الحالة بقوله: «حين يفقد الإنسان قابليّته للنهضة، يكتسب لا شعوريًّا قابليّته للاستعمار». فالتحرّر عنده، لا يبدأ من ميدان المعركة، بل من ميدان الوعي؛ لأنّ كلّ استقلالٍ سياسيّ وعسكريّ يظلّ هشًّا، ما لم يسبقه تحريرٌ داخليّ من عقد النقص والاتّكاليَّة والانهزام أمام النموذج المُهيمِن.

وإذا أسقطنا هذا المفهوم على زمننا المعاصر، أمكن القول إنّ ما سمّاه (بن نبيّ) "القابليّة للاستعمار"، هو ذاته ما نشهده اليوم في صورةٍ جديدة: القابليّة الإعلاميّة للاستعمار. فبدل أن يفرض المستعمِر هيمنته بالقوّة، يمارسها عبر الصورة والخطاب، ويغزو العقول لا المدن. وبالطريقةِ ذاتها التي وصفها (بن نبيّ) قبل سبعة عقود، تُستلب الذات من داخلها عبر الرمز والإيحاء والإعجاب بالآخر، حتى تغدو الهيمنة مقبولة بل ومحبوبة. وهكذا يستمرّ الاستعمار متحوّلًا من غزوٍ للأرض إلى غزوٍ للمعنى، ومن احتلالٍ للجسد إلى احتلالٍ للوعي.

تُمارسُ وسائلُ الإعلامِ اليومَ الدورَ الذي كان يُناطُ بالمدرسةِ الكولونياليَّةِ في الأمسِ؛ فهي تزرعُ في الوعيِ الجمعيِّ شعورًا بالنقصِ الحضاريِّ، وتغرسُ صورةً مموَّهَةً عنِ التقدّمِ، ترتبطُ بالغربِ وحدَه. فالمتلقّي العربيُّ، كغيرِه من شعوبِ عالمِ الجنوبِ، يجدُ نفسَه داخلَ نظامٍ رمزيٍّ، يرى العالَمَ من خلالِ عدسةٍ غربيَّةٍ، ويتبنّى معاييرَها في الجمالِ، والنجاحِ، والقوَّةِ، والسياسةِ، وحتّى الأخلاقِ[1]. وبهذا، تتحوّل الهيمنة من عدوانٍ خارجيّ إلى قناعةٍ داخليَّة، ومن استعمارٍ بالقوَّة إلى استعمارٍ بالمعنى.

وقد أظهرتْ دراساتٌ معاصرةٌ أنّ وسائلَ الإعلامِ الكبرى، بما فيها تلكَ التي تدّعي الحيادَ والموضوعيَّةَ، تعملُ على ترسيخِ صورةٍ للعالَمِ تنسجمُ مع مصالحِ القوى المركزيَّةِ، مستفيدةً من

١ - سامية إدريس: "نقد الاستشراق الجديد في كتاب ما بعد الاستشراق: الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولونياليات البيضاء- مقاربة ابستيمولوجية-"، ص٢٢٥-٢٤٢.

قابليَّة الشعوبِ للاستعمارِ. ففي تغطيةِ الحروبِ، مثلَ الحربِ على العراقِ عامَ ٢٠٠٣، لم يكنِ الهدفُ نقلَ الحقيقةِ، بل صناعةَ سرديَّةٍ موجَّهَةٍ تُبرِّرُ الغزوَ باسمِ الديمقراطيَّةِ وحقوقِ الإنسانِ. وفي دراسةٍ للباحثَيْنِ (أحمدِ بوعبزةَ) و(محمدِ الأمينِ التومِ) عنِ الدعايةِ الإعلاميَّةِ الغربيَّةِ، ودورِها في صناعةِ الحروبِ والنزاعاتِ، نرى كيفَ أنّ الإعلامَ الغربيَّ تحوّلَ إلى أداةٍ لتبريرِ الاحتلالِ، وإعادةِ إنتاجِ الخطابِ الاستعماريِّ بأشكالٍ حديثةٍ، تستندُ إلى أخلاقٍ كاذبةٍ ومفاهيمَ إنسانيَّةٍ مشوَّهَةٍ[١].

وفي السياقِ ذاته، مثّلت الحربُ على سوريا نموذجًا صارخًا لتوظيفِ الإعلامِ الغربيّ بوصفه أداةً لإعادةِ تشكيلِ الوعيِ الجمعيّ وفقَ سرديَّةِ القوى المُهيمنة. فقد أُنتجت سرديَّةٌ إعلاميّة جاهزة منذ السنواتِ الأولى للأزمة (٢٠١١)، صُوِّرت فيها الحربُ لا بوصفها صراعًا جيوسياسيًّا معقّدًا، بل قصةَ خُلُقيَّةٍ بين «نظامٍ شريرٍ» و«شعبٍ حرٍّ»، يجبُ على الغربِ إنقاذه، وهو الإطارُ الذي أتاحَ للقوى الغربيَّةِ تبريرَ تدخُّلاتها العسكريّة والسياسيَّةِ تحت غطاءِ «المسؤوليَّةِ الإنسانيَّة»، وكانَ الإعلامُ محرّكًا أساسًا، لاتخاذِ القراراتِ، وتوجيهِ السياساتِ في هذا الصددِ[٢]. وبذلك، جرى توظيفُ مفاهيمَ، مثلِ «حمايةِ المدنيّين»، و«الدفاعِ عنِ الحُريَّة» في خطابٍ، يُعيدُ إنتاجَ النموذجِ الاستعماريّ ذاته الذي تحدّث عنه (مالك بن نبي)، أي «القابليَّةِ للاستعمار»؛ حيثُ يقبلُ الجمهورُ الغربيّ والعربيّ كليهما، تلك التدخُّلات بوصفها أفعالاً إنسانيَّة، لا عدوانيّة واستعمار من الغرب.

هذا الاستخدامُ الممنهجُ للمشاعرِ الإنسانيَّةِ في خدمةِ أجنداتِ القوَّة، يبرهنُ أنّ الهيمنةَ الثقافيَّةَ لم تعدْ تحتاجُ إلى جيوشٍ، بل إلى شبكةٍ إعلاميَّةٍ عابرةٍ للحدودِ، وقادرةٍ على إنتاجِ الحقيقةِ وتصديرِها، وعلى محوِ كلّ روايةٍ مغايرةٍ تُناقضُ منطقَ المركزِ. لم يعدِ الإعلامُ ناقلاً للأحداثِ، بقدرِ ما هو هندسةٌ للوعيِ الدَّوليّ، وظيفتُه إعادةُ تعريفِ أيّ موقفٍ سياسيّ وفقَ معاييرِ الغربِ الخُلُقيَّةِ ومصالحِه الجيوسياسيَّة[٣].

---

١ - أحمد بوعبزة ومحمد الأمين التوم، "الدعاية الإعلامية الغربية ودورها في صناعة الحروب والنزاعات (الاحتلال الأمريكي للعراق نموذجًا)"، ص١٧.

2 - Lyse Doucet: "Syria & the CNN Effect: What Role Does the Media Play in Policy-Making?"

٣ - زوبير زرزايحي: «العولمة والهوية الثقافية في زمن الإعلام الجديد»، ص٥٣٧-٥٤٩.

الإعلام اليوم، هو المصنع الرئيس لإنتاج «الاستسلام الرمزيّ»؛ حيث تُصاغ القِيَم والمفاهيم بطريقة تجعل التبعيَّة تبدو حتميّة. فالفرد الذي يُعرَض عليه النموذج الغربيّ، بوصفه ذروة التقدّم، يتبنّاه طوعًا، ويقيس ذاتَه وواقعه بمدى قربه أو بعده عنه. يُلاحَظ في الخطاب اليوميّ العربيّ أنّ مفاهيم التطوّر، والتحضّر، والتقدّم، تُستحضر غالبًا من خلال الإحالة إلى النموذج الأوروبيّ. ومهما بحثنا، لن نجد أيّ إحالة لنموذج آخر، فالقوي المُهيمِن هو النموذج. وهذا بالضبط، ما يجعل الهيمنة الثقافيَّة أكثر ثباتًا من أيّ احتلالٍ عسكريّ.

٢. الهيمنة الثقافية مدخل للهيمنة الاقتصادية والسياسية والدينية

لا تتحقّقُ السيطرةُ بالقوَّة فحسبُ، بل عبرَ بناءِ «الهيمنة الثقافيَّة»، هكذا يعتبرُ (أنطونيو غرامشي - Antonio Gramsci)، الذي يرى أنّ المنظومةَ الفكريَّةَ الاستعماريَّةَ تجعلُ "الطبقات الخاضعةَ" تتبنّى قِيَمَ "الطبقة المهيمنة" بوصفها القِيَمَ الطبيعيَّةَ للحياة. وجدتْ هذه الفكرةُ طريقَها إلى بنية الإعلام المُعَولَم اليومَ؛ حيثُ تتضافرُ المؤسَّساتُ الاقتصاديَّةُ الكبرى مع المؤسَّسات الإعلاميَّة، لتشكيلِ ما يمكنُ وصفُهُ بـ"العقلِ الجماعيِّ العالميِّ"[1]. الإعلام هنا ليس انعكاسًا للواقع، بل جهازٌ لإنتاجه وإدارته ضمن علاقات القوَّة التي تحكم السوقَ والسياسةَ والدين.

فالهيمنةُ الثقافيَّةُ عبرَ الإعلام تمهِّدُ الطريقَ للهيمنة الاقتصاديَّة؛ إذ تُعيدُ تشكيلَ أنماطِ الاستهلاك، وتخلقُ حاجاتٍ وهميَّةً تُبقي الشعوبَ في حالة تبعيَّةٍ دائمة للمراكز الصناعيَّة الكبرى. تُقدَّمُ الإعلاناتُ، والمسلسلاتُ، والبرامجُ الحواريَّةُ بوصفها وسائلَ ترفيه، لكنَّها في حقيقتها أدواتٌ لإعادة إنتاج المنظومة الرأسماليَّة وقيمها النيوليبراليَّة؛ حيث تُختزلُ الحُريَّةُ في حُريَّة الشراء، ويُقاسُ الوجودُ الاجتماعيُّ بما يمتلكُه الفردُ، لا بما يُنتجُه أو يُبدعُه.

لنأخذ الإعلانات التلفزيونيَّةَ، على سبيل المثال، فهي لا تبيعُ السلعةَ فحسبُ، بل تبيعُ نمطَ الحياة المرتبطَ بها. في الإعلانات العالميَّة لمنتجات مثلَ "كوكا كولا" (Coca-Cola) أو "نايكي" (Nike)، تلكَ الشركاتِ الداعمة للاستعمار والمساهمة فيه، لا تُعرضُ المشروباتُ أو الأحذيةُ

١ - أنطونيو غرامشي: دفاتر السجن (في الثقافة والهيمنة)، ص١٠٣ - ١٦٠.

على أنَّها حاجاتٌ ماديَّةٌ، بل على أنَّها رموزٌ للسعادة، والحبِّ، والحريَّة الشخصيَّة، فتبيعُ الحذاءَ ومعه نمطَ الحياة. يتحوّلُ الشراءُ هنا إلى فعلٍ وجوديٍّ؛ فـ"اشربْ لتفرحَ"، و"اركضْ لتصبحْ نفسَك"، في اختزالٍ كاملٍ للحريَّة إلى حُريَّة الاستهلاك. وهذه الشركاتُ التي تسيطرُ على الأسواق العالميَّة، تُنتجُ في الوقت ذاته الموادَّ الإعلانيَّةَ، وتوزّعُها عبرَ القنوات والمنصّات المملوكة للشركات الأُمِّ نفسها، لتُغلقَ دائرةَ الهيمنة من الإنتاج حتى التلقّي.[1].

أما في الفضاء السياسيّ، فيكفي أنْ نتأمَّل كيف تُدار الأزمات الدَّوليَّة في الإعلام الغربيّ، لندرك أنّ الرسالة الإعلاميَّة ليست سوى امتدادٍ للقرار السياسيّ؛ إذ نجد أنّ الإعلام يشارك في «صناعة القَبول الجماهيريّ» للسياسات الخارجيَّة عبر إعادة تعريف مفاهيم، مثل «الشرعيّة»، و«الإرهاب»، و«الأمن»، بما يتوافق مع المصلحة الغربيَّة. بذلك يتحوّل الإعلام إلى مؤسَّسةٍ تُشرعن التدخُّل العسكريّ، وتُعيد صياغة وعي المتلقّي؛ بحيث يرى الغزو «تحريرًا»، والاحتلال «حمايةً للديمقراطيّة».

لا تقف الهيمنة عند حدود السياسة والاقتصاد، بل تمتدّ إلى الدين نفسه؛ إذ تُقدَّم العَلمانيَّة الغربيَّة بوصفها الشرط الضروريّ للحداثة، وتُصوَّر القِيَم الدينيَّة في المجتمعات الإسلاميَّة باعتبارها عقبة أمام «التقدّم». من خلال ذلك، يمارس الإعلام علمنةً رمزيَّةً للعقل الجمعيّ، تُقصي البُعد الروحيّ، وتحوّل الإنسان إلى كائنٍ ماديٍّ استهلاكيٍّ، خالٍ من المعنى والغائيَّة. إنّها نسخة جديدة من «الاستعمار المعرفيّ»، الذي يفرغ الإنسان من ذاته قبل أن يفرغ أوطانه من مواردها.

٣. الإعلام قوة ناعمة: هيمنة بلا جيوش

لقد أعادَ (جوزيف ناي) تعريفَ مفهومِ القوَّةِ في العلاقاتِ الدَّوليَّةِ حين تحدّثَ عن «القوّةِ

1 - Elisa Claire Alemán Carreón, Hirofumi Nonaka, Asahi Hentona, and Hirochika Yamashiro, "Measuring the Influence of Mere Exposure Effect of TV Commercial Adverts on Purchase Behavior Based on Machine Learning Prediction Models," Information Processing & Management, pp. 1339–1355.

الناعمـة» التـي تقومُ على الإقنـاعِ والجاذبيَّة، لا على القهـرِ والإكراه. وقد أصبـحَ الإعلامُ أبرزَ أدواتِ هذه القوَّة؛ لأنَّه ينتجُ القِيَمَ والصورَ التي تُغلفُ السـيطرةَ السياسـيَّةَ بثوبٍ ثقافيٍّ جذّاب. فبدلَ أن تُفرضَ الهيمنةُ بالقوَّة العسـكريَّة، تمُارسُ اليومَ من خلالِ ما يشـبهُ الاحتلالَ الوجدانيَّ للعقلِ البشريِّ؛ إذ تُقدَّمُ الثقافةُ الغربيّةُ بوصفِها النموذجَ الأمثلَ للعيشِ، ويُعادُ تشكيلُ طموحاتِ الشعوبِ، لتتماهى مع معاييرِ المركز.

مـن هنا، يمكنُ القولُ إنّ الإعلامَ الغربيَّ ليس وسـيلةَ اتصالٍ محايدةً، بـل تجلّيًا لرؤيةٍ ماديَّةٍ عَلمانيَّةٍ شاملة، تُفرغُ الإنسانَ من هُويَّته وتُحيلُه إلى مستهلكٍ للرموزِ والمعاني التي ينتجُها الآخرُ. فالقنواتُ الفضائيَّةُ والمنصّاتُ الرقميّةُ، تُعيدُ صياغةَ الوعي الجمعيِّ وفقَ منطقِ السوق: كلُّ شيءٍ قابلٌ للبيعِ، حتى المشاعرُ والأفكارُ. وبهذا المعنى، تتحوّلُ القوّةُ الناعمةُ إلى قوّةٍ ناعمةٍ مُمأسسة، تمتلكُ بنيةً اقتصاديّةً وإيديولوجيّةً متكاملةً، تفرضُ تعريفَها للواقعِ وللإنسان.

في دراسـة للباحثة (إيمان محمد زهـرة)، يتبيّن كيف أنّ الإعلام العالمـيّ أصبح "أداة لإدارة الصراعات لا مجرّد تغطيتها"، وأنّه "يُنتج سرديّاتٍ تُعيد تشكيل المواقف السياسيّة والشعبيّة في خدمـة القوى المهيمنة". فالإعلام المُعولَم لم يعد يتحدّث عن العالم، بل يُعيد بناء العالم رمزيًّا بما يتناسب مع مصالح من يموّله ويمتلكه[1].

٤. الإعلام وإعادة إنتاج العالم بعدسة غربيّة

إذا كانت الهيمنةُ تتحقّقُ حين تصبحُ رؤيةُ القوّةِ المهيمنة للعالَم هي الرؤية السائدة، فإنَّ الإعلامَ هو المسرحُ الرئيسُ الذي تُعادُ فيه صياغةُ هذه الرؤية. فكلُّ تقريرٍ خبريٍّ، وكلُّ برنامجٍ وثائقيٍّ أو حملةٍ دعائيّة، يسـهمُ في بناءِ خريطةٍ إدراكيّة، ترسمُ حدودَ الممكنِ والمستحيلِ، والخيرِ والشرِّ، والتقدّمِ والتخلّف. إنَّ ما يقدّمهُ الإعلامُ ليسَ مجرّدَ صورٍ وأخبارٍ، بل أنماطَ تفكيرٍ ومقاييسَ حكمٍ، تجعلُ المتلقّي يرى العالمَ من زاويةٍ واحدة: زاويةِ الغربِ المنتَصِر.

تتحوّلُ الرسالةُ الإعلاميّةُ إلى نصٍّ كونيٍّ جديدٍ يحدّدُ معنى الإنسانيّة، ومعاييرَ الجمالِ، وحدودَ

1 - Iman M. M. Zahra: "The Role of Media in Conflict Management: A Secondary and Critical Analysis,", pp. 41–55.

الحقيقـة. وفي هذا النـصِّ، لا مكانَ إلّا للإنسـانِ الغربيِّ بوصفه المعيارَ الأعـلى، بينما تُختزلُ باقي الشـعوبِ في أدوارٍ هامشـيّة. كما أنَّ الإعلامَ الغربيَّ يُعيدُ إنتـاجَ صورةِ «الشرقِ» على نحوٍ يُعزّزُ الثنائيّةَ القديمةَ بينَ «المتحضّرِ» و«المتخلّف»، تمامًا كما وصفَها (إدوارد سـعيد) في نقدِه للاسـتشراق[1]. هذه الصورةُ التي انتقلتْ من الكتبِ إلى الشاشـاتِ، ومن الخطابِ الأكاديميِّ إلى المحتـوى الرقميِّ، أصبحتْ اليومَ المرجـعَ الإدراكيَّ الذي يُحدّدُ علاقةَ الشـعوبِ بذواتِها وبالآخرينَ.

إذا كانتِ القنواتُ الفضائيّةُ في الماضي تصنعُ الوعيَ من الأعلى، عبرَ ما كانتْ تبثّهُ من صورٍ وخطاباتٍ تفـرضُ أجندتَها على المتلقّي، فإنَّ المنصّـاتِ الرقميّةَ اليومَ تُعيـدُ إنتاجَ هذا الوعيِ من الداخلِ. فهي لم تَعُدْ تُملِي الأفكارَ على الجمهورِ، بل تتسـلّلُ إلى لا وعيِه من خلالِ آليّاتٍ خوارزميّـةٍ دقيقـة، تُراقبُ سـلوكَهُ وتوجّهُ ذوقَهُ وتخلقُ لـهُ رأيًا عامًّا مُصمَّمًا على مقـاسِ بياناتِه الشـخصيّة. يعيشُ الإنسانُ المعاصرُ داخلَ فقاعةٍ من المعلوماتِ المغربلة، والنماذجِ المرجعيّةِ الجاهزةِ التي تُؤكّدُ قناعاتِه بدلَ أن تُوسّعَ أفقَهُ، وهو ما يمكنُ تسميتُهُ بـ«الاستعمارِ الخوارزميِّ»؛ اسـتعمارٌ لا يُمارسُ بالقوّةِ، بل بالمعطياتِ؛ حيثُ تُسـتبدلُ أدواتُ السيطرةِ التقليديّةِ ببرمجيّاتٍ وإحصاءاتٍ وتوصياتٍ رقميّة.

لم يَعُدِ التحكّمُ في تدفّقِ المعلوماتِ مسألةً تقنيّةً بحتةً، بل أصبحَ أداةً لتوجيهِ الإرادةِ البشريّة، وصناعةِ القَبولِ الجمعيِّ بالنظامِ القائمِ. ويزدادُ خطرُ هذا النوعِ من الاستعمارِ؛ لأنَّهُ يستهدفُ فئةَ الشبابِ، تلكَ الفئةَ التي تُشكّلُ طاقةَ الأمّةِ ومستقبلَها.[2]

فقد أظهرتْ دراسـةٌ حديثةٌ للباحثةِ (حنـانِ عبدِ الوهّابِ عبدِ الحميـدِ القاضي) (٢٠٢٣) أنَّ الاستخدامَ المفرطَ لشـبكاتِ التواصلِ الاجتماعيِّ أسهمَ في تطبيعِ أنماطٍ جديدةٍ من الاغترابِ الثقافيِّ والاجتماعيِّ لدى الشـبابِ الجامعيِّ، نتيجةَ ما تبثّهُ هذه الوسـائطُ من رموزٍ وافدةٍ، وقيمٍ مغايرةٍ للبيئةِ المحليّةِ. وتؤكّدُ الدراسةُ أنَّ ما يُعرفُ بـ"الاستعمارِ الإلكترونيِّ"، يُعيدُ تشكيلَ الثقافةِ

١ - إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، ص٢١١ - ٢١٢.

٢ - حمدي حسن أبو العينين، الإعلام الجديد في العالم الإسلامي: إشكالية الثقافة والتكنولوجيا والاستخدام، ص١٦.

اليوميّـة من خلال المؤثّرات البصريّة والصوتيّة، التي تسـتبدلُ القيمَ والعاداتِ، واللغةَ، وأنماطَ الحياة الأصليّةَ بأنماطٍ دخيلةٍ مرتبطةٍ بمنظومة الاستهلاك العالميّة[1].

إنَّ أخطرَ ما في هذا التحوّل أنَّهُ يجري تحتَ شـعارِ «الحرّيـة الرقميّة»، بينما هو، في حقيقتِه، نزعٌ بطيءٌ لقدرة الإنسان على الاختيار المستقلِّ، وتحويلُهُ من ذاتٍ فاعلةٍ إلى موضوعٍ للتحليلِ والإحصاء، تُدارُ رغباتُهُ وتُوجَّهُ قراراتُهُ ضمنَ نظامٍ اقتصاديٍّ عالميٍّ لا يراهُ.

في نهاية المطاف، يمكنُ القولُ إنَّ الإعلامَ اليومَ هو الوريثُ الشرعيُّ للاستعمار القديم، لكنَّهُ أكثرُ تعقيدًا وأشـدُّ فاعليّةً؛ لأنَّهُ لا يحتاجُ إلى احتـلالٍ الجغرافيا ما دامَ يملكُ مفاتيحَ الوعي. إنَّهُ المشروعُ الذي يجعلُ الإنسـانَ يرى العالمَ بعينيِ الآخرِ، فيرضى بتبعيّتِه، بل يُدافعُ عنها بوصفِها حرّيّةً.

ثانيًا: الشاشةُ الكلاسيكيّة حاملةٌ للهيمنة الغربية

منذ بدايات القرن العشرين، لم تكن الشاشـة مجرّد وسـيلةٍ للتسلية، بل منصّةً لإنتاج الخيال السـياسيّ والحضاريّ للغرب. فـ«هوليـوود»، التي قامت على التقـاء رأس المال الاحتكاريّ بالصناعة التقنيّة المتقدّمة، لم تصنع «السـينما» فحسب، بل صنعت معها الوعي الحديث. لقد أدرك القَيّمون عليها مبكرًا، أنّ الصورة أكثر فاعليةً من الجيوش في إعادة تشكيل الإدراك الجمعيّ، وأنّ السيطرة على الخيال تمهّد الطريق للسيطرة على السلوك. ذلك أنّ الخيال، كما يقول (مالك بن نبيّ)، هو ساحة الفعل الحضاريّ قبل أن يتحقّق في الواقع، ومن يملك خيال الإنسان يملك قراره[2].

لم يكن غزو العقول بالضرورة مشهدًا دمويًّا، بل عمليّة طويلة من تطبيع الرؤية الغربيّة للعالم عـبر الصورة، بحيث تُقـدَّم قِيَم الغرب لا بوصفها خيارًا حضاريًّا، بـل باعتبارها الطبيعة البشريَّة ذاتهـا. في أفلامها الكبرى، مـن "Lawrence of Arabia" إلى "American Sniper"، أعادت

١ - حنان عبد الوهاب عبد الحميد القاضي: "الاسـتعمار الإلكتروني وعلاقته بأبعاد الاغتراب لدى الشباب الجامعي بالتطبيق على استخدامات شبكات التواصل الاجتماعي"، ص٢٦٥-٣١٠.

٢ - مالك بن نبي، شروط النهضة، ص١٥٢.

هوليوود إنتاج الأسطورة الاستعمارية: الأبيض المنقذ، والعربي الهمجي، والشرقيّ الذي يحتاج دائمًا إلى التهذيب أو الإنقاذ. هكذا تتكرّر السردية ذاتها في مئات الأفلام، لتؤكّد أنّ القوّة، والعقل، والبطولة، حكرٌ على الغرب، بينما يُرسم "الآخر" في صورةٍ من الفوضى والعجز واللا عقلانيّة.

وفي كتاب صدر عن جامعة إنديانا الأمريكيّة في العام ٢٠٢٢، يبيّن فيه باحثون أنّ السينما في السياق الاستعماري لم تكن مجرّد أداة ثقافيّة أو فنيّة، بل آليّة لإنتاج السلطة الرمزيّة، تُعيد تعريف الشعوب المستعمَرة ضمن صورةٍ بصريّة تُشرعن التراتب الحضاريّ وتُجمّل السيطرة. لقد عملت الأفلام الاستعماريّة على تقديم الشرق العالميّ وجنوبه باعتبارهما موقعين للغموض والكسل والعنف، مقابل الغرب بوصفه مركزَ النظام والعقل والتقدّم، وهو ما ورثته هوليوود لاحقًا في سرديّتها الامبرياليّة المعاصرة[١].

بالنسبة للمتلقي العادي، فإن السينما مجرّد ترفيه، ولكنها في الحقيقة تمارس وظيفةً أعمق هي إعادة إنتاج الهرمية الحضارية بين الغرب وبقية العالم، ولكن عدم فهم عامة الناس لهذا الأمر، يجعل من وظيفتها أكثر فاعليّة. ويوضّح (إدوارد سعيد) في كتابه «الثقافة والامبرياليّة»، أنّ الأدب والفن الغربيّين شكّلا معًا «الجهاز الرمزيّ للاستعمار»؛ حيث تُبنى صورة الشرق والجنوب في الوعي الغربيّ على نحوٍ يُبرّر السيطرة السياسيّة والاقتصاديّة. وقد ورثت هوليوود هذا الدور بذكاء، فأعادت إنتاج الاستعمار بصريًّا: استعمارٌ لا يحتاج إلى احتلال، بل يكفي أن يجعل المستعمَر يراها «حقيقة»[٢].

١. الشاشة: من الترفيه إلى التوجيه

لم يكنِ التلفزيونُ مجرّدَ وسيلةٍ للتسليةِ، بل أصبحَ النسخةَ الشعبيّةَ للمشروعِ البصريِّ الغربيِّ الذي دشّنَتْهُ السينما. فمن خلالِ تدفّقِ المسلسلاتِ والبرامجِ المنمّقةِ، تحوّلَ إلى منصّةٍ كونيّةٍ

1 - Nayoung Aimee Kwon, Takushi Odagiri, and Moonim Baek, Theorizing Colonial Cinema: Reframing Production, Circulation, and Consumption of Film in Asia, Indiana University Press, 2022, pp. 35 -39.

٢ - إدوارد سعيد: "الاختلاق، الذاكرة والمكان"، ص١٤.

لتصديـر أنماطِ الحيـاةِ الغربيّةِ إلى كلِّ بيتٍ في العالَمِ. لم يعُدِ المحتـوى الإعلاميُّ يقدّمُ الخبرَ أو الترفيهَ فحسـبُ، بل يقدّمُ نموذجًا حضاريًّا كامـلاً: في المأكلِ واللباسِ وطريقةِ الكلامِ، وفي تعريفِ النجاحِ والسعادةِ والحُريّةِ.

في البرامجِ الأمريكيّةِ الشـهيرةِ مثـلَ The Bold and the Beautiful، تُقدَّمُ الفردانيّةُ بوصفِها الحُريّةَ، والاستهلاكُ بوصفِهِ الحبَّ، والجسدُ بوصفِهِ الهُويّةَ. وهكذا تتحوّلُ القِيَمُ الرأسماليّةُ إلى رموزٍ ثقافيّةٍ يوميّةٍ يتشرّبُها المتلقّي دونَ مقاومةٍ، حتّى يغدو المعيارُ الخُلُقيُّ الجديدُ هو "ما تفعلهُ الشاشةُ"، لا ما تمليهِ القِيَمُ أو الضميرُ.

وقد بلغتْ هذه الهيمنةُ البصريّةُ ذروتَها في البرامجِ الواقعيّةِ (Reality TV) التي أعادت تعريفَ "النجاحِ" و"القيمةِ الإنسانيّةِ". فبرامجُ مثل Keeping Up with the Kardashians وThe Real Housewives وThe Bachelor تكرّسُ نموذجَ الإنسانِ "الناجحِ" بوصفِهِ الكائنَ المترفَ المغمورَ بالعلامـاتِ التجاريّةِ، لا المبدعَ أو المنتـجَ. فالرفاهُ هنا ليس حالةً اجتماعيّـةً ناتجةً عن العدالةِ والعمـلِ، بل صورةً تُلتقطُ وتُسـتهلكُ، وتُقاسُ قيمتُهـا بعددِ المتابعينَ أو كميّـةِ الرفاهِ الظاهريّ المعروضِ على الشاشةِ.

لم يبقَ هذا النموذجُ الاسـتهلاكيّ حبيسَ الفضاءِ الغربيّ، بل تسرّبَ إلى السياقاتِ العربيّةِ من خلالِ برامجَ مقتبسـةٍ عن نظيراتِها الغربيّةِ، مثلَ برامـجِ التعارفِ وتلفزيونِ الواقعِ التي تُقدَّمُ حياةَ المشـاهيرِ بوصفِها نموذجًا يُحتـذى للأجيالِ الصاعدةِ. وبهذا تحوّلَ الإعـلامُ من فضاءِ التعبيرِ الجماعـيّ إلى أداةٍ لإعـادةِ صياغةِ الحلمِ الجمعـيّ، فلم يعُدِ الحلمُ يرتبطُ ببنـاءِ الأُمّةِ أو خدمةِ الصالحِ العامّ، بل ببناءِ الذاتِ بعلامةٍ تجاريّةٍ قابلةٍ للتسويقِ.

يجري اسـتبدالُ قِيَمِ المشاركةِ والإنتاجِ والإسـهامِ الاجتماعيّ بقِيَمٍ سـطحيّةٍ ترتبطُ بالظهورِ والشـهرةِ والاستهلاكِ الرمزيّ، فتُصبحُ "النجوميةُ" و"الانتشارُ" غايةَ الوجودِ لا وسيلةً للعطاءِ أو للإبداعِ، ويتكرّسُ نموذجُ الإنسانِ الذي يقيسُ قيمتَه بما يراه الآخرونَ لا بما يحقّقه من أثرٍ حقيقيٍّ.

ولم يقتصرِ الأمـرُ على الدراما والترفيهِ، بل امتـدّ إلى البرامجِ الحواريـةِ والقنواتِ الإخباريةِ التي أصبحتْ منصاتٍ لتسـويقِ الأيديولوجيا النيوليبراليةِ في ثوبٍ إنسانيٍّ أو حداثيٍّ. تُروَّجُ فيها شعاراتٌ مثلَ "ريادةِ الأعمالِ" و"الحريةِ الفرديةِ" و"تحقيقِ الذاتِ"، بمعزلٍ عن أيِّ سياقٍ خُلُقيٍّ

أو اجتماعيّ. وهكذا يُفرَّغ المفهوم الأصيل للحريَّة، القائم على المسؤوليّة والإعمار والتكافل، من مضمونه، ليُستبدل بـ حريّة الاستهلاك دون معنى.

وفي هـذه الحالة، يصبح ما يُقدَّم تحت مسـمى "الترفيه" أو "التنميـة الذاتية" هو في جوهره تربيـة اقتصادية على القبول بالنظام القائم؛ حيث يصبح السـوق هو الحكم الأخير، والإنسـان مجرّد وحدة إنتاجٍ واسـتهلاك. وهي العملية التي وصفها (هربرت شيللر - Herbert Schiller) في كتابه الاتصال والإمبراطوريّة الأمريكيّة، بأنّها "إعادة تنظيم الإدراك العالميّ، بحيث يرى نفسه من خلال العدسة الأمريكيّة"[1]. فالتلفزيون، في منظومة الهيمنة الحديثة، ليس أداة ترفيه، بل منبر الديـن الماديّ الجديد، يُكرّس الإيمان بالربح والنجاح الفرديّ، ويحوّل البشر إلى مؤمنين جدد في معبد الإعلان والاسـتهلاك؛ حيث تُختزل الكرامة في الملكيّة، والحريّة في الشراء، والمعنى في الصورة.

إنّ آثارَ هذه الهيمنةِ البصريّةِ لم ولن تقفَ عند حدودِ الاقتصادِ والثقافة، بل امتدّت إلى الوعيِ السـياسيِّ للأجيالِ الجديدة. فقد باتَ الإعلامُ أداةً لإعادةِ تعريفِ المفاهيمِ والقِيَمِ داخلَ الذهنِ الجمعيِّ، بحيث يُعادُ رسـمُ خريطةِ الانتـماءِ والعداءِ وفقَ ما تُمليه المراكـزُ الغربيّةُ. فالمقاومةُ تُقدَّمُ في الخطابِ الإعلاميِّ العالميِّ بوصفِها "تطرّفًا"، والتمسّـكُ بالهويّةِ الثقافيّةِ يُصوَّرُ بوصفِهِ "انعزالًا حضاريًّا"، في حينَ تُروَّجُ "العَلمانيّةُ" و"الليبراليّةُ" بوصفِهما التعبيرَ الأسمى عنِ التقدّمِ والعقلانيّة. وهكذا يُربّى جيلُ الشـبابِ على أنّ العداءَ للصهيونيّةِ تخلّفٌ، وأنّ نقدَ الغربِ معاداةٌ للتحضّر، وأنّ الإيمانَ بالقِيَمِ الدينيّةِ مناقضٌ للحريّة.

وهكذا يُسهمُ الإعلامُ المُعَولَمُ اليومَ في ترسيخِ صورةٍ مثاليّةٍ للعَلمانيّةِ الغربيّةِ بوصفِها السببَ الجوهريَّ في نهضةِ الغربِ، ومعيارَ التقدّمِ الإنسانيِّ، فيُظهرُ المجتمعاتِ الغربيّةَ كأنّها بلغتْ ذروةَ الحريّـةِ والازدهار، من دونِ أن يعرضَ جوانبَ الانهيارِ الخُلُقيِّ أو التفكّكِ الأسريِّ أو الاغترابِ الروحيِّ التي تميّزُ نمطَ الحياةِ الغربيِّ. إنّ هذا الخطابَ الانتقائيَّ الموجَّهَ يُصوغُ وعيَ الشـبابِ

١ - هربرت أ. شيللر: المتلاعبون بالعقول: (كيف يجذب محركو الدمى الكبار في السياسة والإعلان ووسائل الاتصال الجماهيري خيوط الرأي العام؟)، ص١٩٦.

العربيِّ والإسـلاميِّ على نحوٍ يجعلُهُ يؤمنُ بالعَلمانيّةِ المطلقةِ إيمانًا شـبهَ دينيٍّ؛ إذ تُقدَّمُ له على أنّها الطريقُ الوحيدُ إلى "التحرّر" و"التنوير". تكمنُ الإشـكاليّةُ في أنّ هذا الإيمانَ الأعمى، كما يُبيّنُ (عبدُ الوهّابِ المسيريُّ)، لا يتوقّفُ عند حدودِ القبولِ بفصلِ الدينِ عنِ الدولةِ، بل يتجاوزُها إلى تبنّي النموذجِ المعرفيِّ الغربيِّ في تفسـيرِ الإنسانِ والعالَمِ، بما يحملُهُ من ماديّةٍ مطلقةٍ تنزعُ القداسةَ عنِ الوجودِ، وتُحيلُ الإنسانَ إلى كائنٍ استهلاكيٍّ نَفعيٍّ فاقدٍ للبُعدِ الروحيِّ.[1].

ويَرى (المسـيريُّ) أنّ الإيمـانَ بالعَلْمانيّةِ المتطرّفـةِ يـقودُ، في نهايةِ المطـافِ، إلى التماهِيَ مـع المشروعِ الصهيـونيِّ ذاتَهُ؛ لأنّ هذا المشروعَ هـو التعبيرُ الأكثرُ اكتمالاً عـن الرؤيةِ الغربيّةِ للإنسانِ والطبيعةِ والتاريخِ. فحينَ يُغرَسُ الإعلامُ في وعيِ الشبابِ أنّ الغربَ هو التّجسيدُ الأعلى للحضـارةِ، وأنّ "إسرائيلَ" تمُثّلُ امتدادًا طبيعيًّـا لتفوّقِ الغربِ العلميِّ والسـياسيِّ، فإنّ القَبولَ بالكيانِ الصهيونيِّ يَغدو نتيجةً منطقيّةً لذلكَ التسليمِ. فالإيمانُ المطلقُ بتفوّقِ الغربِ يُنتجُ رؤيةً تَقبلُ كلَّ ما يَصدرُ عنهُ، سياسيًّا وثقافيًّا، باعتبارِه معيارًا للتّمدّنِ.

وبهذا المعنى، يمكنُ بسـهولةٍ تحويلَ العَلمانيّينَ المتطرّفينَ إلى صهاينةٍ بالمنهجِ لا بالهُويّةِ؛ لأنّهم يَنظُرونَ إلى الإنسانِ من خلالِ عينِ الغربِ التي تَرى ذاتَها مركزًا للعالَمِ وسائرَ الأممِ هوامشَ تابعةً. إنّ خطورةَ هذهِ الظّاهرةِ تكمُنُ في أنّها تُفكّكُ المناعةَ الحضاريّةَ للأُممِ تمامًا، وتُحوّلُ وعيَ الأجيالِ الجديدةِ من وعيٍ نقديٍّ مستقلٍّ، إلى وعيٍ مندمجٍ في خطابٍ كونيٍّ يُهيمنُ عليهِ الغربُ.

إنّ ما تمارسه الشاشة الكلاسيكيّة هو في جوهره استعمارٌ للخيال، يُعيد ترتيب العالم، بحيث يبدو المركزُ الغربي وحده حيًّا، وباقي العالم ظلالاً تدور في فلكه. وبهذا، تُحوّل الشاشةُ الإنسانَ مـن متلقٍّ إلى تابعٍ رمزي، يسـتهلك صورًا تُعرّفـه بالعالم وتُعيد تعريفه بنفسـه. لقد قال المفكر الإيـراني (علي شريعتي): "حين يسـيطر الآخر عـلى تعريفك للعالم، فلـن تحتاج إلى احتلال أرضك؛ لأنك ستحرسها نيابة عنه". وهذه هي بالضبط وظيفة السينما والتلفزيون اليوم: صناعة حُرّاس الهيمنة في عقولنا، بأدواتٍ من الضوء والخيال.

---

١ - عبد الوهاب المسـيري: العالم من منظور غربي: دراسـة في الأنثروبولوجيـا المعرفية للغرب الحديث، ص٥٥.

ثالثًا: الانعكاسات النفسية والاجتماعية للهيمنة الاستعمارية: الإنسان ذو البُعد الواحد

لقد نجحت الهيمنةُ الإعلاميّةُ الحديثةُ في إفراز نموذجها الخاصِّ من الإنسان، أو ما يمكنُ تسميتُهُ - استعارةً من الفيلسوف الألمانيِّ (هربرت ماركيوز - Herbert Marcuse) بـ"الإنسان ذي البُعد الواحد"؛ ذلكَ الإنسانُ الذي فقدَ قدرتَهُ على التفكير النقديِّ والتحليلِ المستقلِّ، وتحوّلَ إلى كائنٍ استهلاكيٍّ مبرمَجٍ يعيشُ داخلَ دائرةٍ مغلقةٍ من الرغبات المصطنعة. فالإعلامُ في صيغته المعاصرة لم يعُدْ أداةً لإشباع الحاجة، بل أصبحَ جهازًا لتصنيعها؛ إذ يُعيدُ تشكيلَ الوعي ليقيسَ الفردُ قيمتَهُ الإنسانيّةَ بمقدار ما يمتلكُ لا بما يكونُهُ.[1].

تنعكسُ هذه الظاهرةُ في أعمق طبقات النفس والسلوك الإنسانيِّ، فتُحدثُ تحوّلاً جوهريًّا في سيكولوجيّة الفرد وفي إدراكه لذاته وللعالَم من حوله. فالإعلاناتُ والمسلسلاتُ وثقافةُ «المؤثّرينَ» في المنصّات الرقميّة لا تكتفي بترويج السِّلع، بل تُرسّخُ الاستهلاكَ نمطًا وجوديًّا شاملاً، بحيثُ يُصبحُ الامتلاكُ مرادفًا للهويّة، والاستهلاكُ طريقًا للقَبول الاجتماعيِّ. لم يعُد الإنسانُ يملكُ السلعةَ، بل صارت السلعةُ هي التي تملكُهُ رمزيًّا، تُحدّدُ لغتَهُ وذوقَهُ وتمثّلاته عن ذاته وعن الآخرينَ.

وتعبرُّ هذه الحالةُ بدقّة عمّا وصفَهُ عالمُ الاجتماع (بيير بورديو) بـ«العنف الرمزيِّ»، أي السيطرةَ على الإدراك والمعنى من دون لجوءٍ إلى القهر المادّيِّ؛ إذ تُمارسُ الهيمنةُ هنا عبرَ أنظمة الذوق، والقِيَم الجماليّة، والتصنيفات الثقافيّة التي تُفرَضُ من أعلى، فتُنتِجُ خضوعًا طوعيًّا يتخفّى في ثوب الحُريّة الشخصيّة[2].

وهكذا تتبدّل علاقة الإنسان بالعالم: فبدلاً من أن يكون الكائن الذي يسخّر الأشياء لتحقيق غاياته، يغدو هو ذاته أحد منتجات منظومة الأشياء، منزوع العمق الروحي، وفاقد البوصلة الخُلُقيّة، وغارقًا في دوّامة من الاستهلاك والفراغ. إنها عبودية جديدة بأقنعة براقة؛ عبودية تُمارَس لا بالسلاسل، بل بالشاشات المضيئة والوجوه المبتسمة التي تروّج لوهم السعادة الدائمة عبر اقتناء المزيد.

---

١ - ماركيوز هربرت: الإنسان ذو البعد الواحد، ص٩.

٢ - بيير بورديو: العنف الرمزي (بحث في أصول علم الاجتماع التربوي)، ص٢٩.

إنَّ هذا الإنسانَ الاستهلاكيَّ الجديدَ، الذي أفرزتْهُ الهيمنةُ الإعلاميّةُ، قد أنتجَ منظومةَ قِيَمٍ تُعيدُ تعريفَ الذاتِ والعلاقاتِ الاجتماعيّةِ على أُسُسٍ ماديّةٍ خالصةٍ. فحينَ يتحوّلُ الامتلاكُ إلى معيارِ الوجودِ، يُصبحُ الانفصالُ عنِ الجماعةِ شرطًا لتأكيدِ «الذاتِ»، بوصفِها مشروعًا فرديًّا منفصلاً عنِ الآخرينَ. ومن هنا تنبثقُ أخطرُ نتائجِ الهيمنةِ الإعلاميّةِ المعاصرةِ، وهي تكريسُ الفردانيّةِ المتطرّفةِ التي تُصوّرُ الإنسانَ باعتبارِهِ ذاتًا مكتفيةً بذاتِها، والنجاحَ قيمةً معزولةً عنِ المسؤوليّةِ الاجتماعيّةِ أو الخُلُقيّةِ[1].

الإعلامُ الغربيُّ، بمنطقِهِ الليبراليِّ، يُعيدُ إنتاجَ هذا النموذجِ باستمرارٍ، مقدِّمًا «الذاتَ المستقلّةَ» بوصفِها ذروةَ الحُرّيّةِ، في حينَ يُقدِّمُ التضامُنُ أو الانتماءُ إلى الجماعةِ باعتبارِهِ قيدًا أو رجعيّةً. هذه الفردانيّةُ لا تخلُقُ بشرًا أحرارًا، بل أفرادًا منعزلينَ يسهلُ التحكُّمُ فيهم؛ إذ تُفكَّكُ الروابطُ التي تُشكِّلُ الجماعةَ وتُضعفُ آليّاتِ المقاومةِ الثقافيّةِ والاجتماعيّةِ. يشرحُ (مالكُ بن نبيّ) هذهِ الظاهرةَ بدقّةٍ حينَ يُؤكّدُ أنَّ المستعمرَ لا يَنتصرُ على الأُممِ بالقوّةِ، بل حينَ يجعلُ أبناءَها "جزرًا بشريّةً متباعدةً لا يجمعُها مشروعٌ ولا قضيّةٌ".

وهكذا يتحوّلُ المجتمعُ إلى شبكةٍ من الأفرادِ المتشابهينَ شكلاً والمنفصلينَ جوهرًا، يتّحدونَ فقطْ عبرَ العلاماتِ التجاريّةِ والاتّجاهاتِ الإعلاميّةِ، لا عبرَ القيمِ أو المبادئِ. وتذوبُ بذلك الهويّاتُ المحليّةُ والدينيّةُ تحتَ ضغطِ صورةٍ كونيّةٍ موحَّدةٍ تُعرِّفُ الإنسانَ من خلالِ استهلاكِهِ لا انتمائِهِ، ليغدو "الآخرُ" مرآةَ ذاتِهِ لا شريكَهُ في الوجودِ.

من نتائجِ الهيمنةِ الإعلاميّةِ في المنظومةِ النيوليبراليّةِ، هو تطبيعُ التفاوتِ والظّلمِ الاقتصاديِّ عبرَ تحويلِهما إلى ظواهرَ "طبيعيّةٍ" أو "ضروريّةٍ" للتقدّمِ. فالفقرُ يُعرَضُ بصفتِهِ فشلاً فرديًّا، والثراءُ مكافأةً للجدارةِ الشخصيّةِ، وهكذا يُعادُ إنتاجُ النظامِ القائمِ دونَ حاجةٍ إلى العنفِ المادّيِّ.

يُقدِّمُ الإعلامُ هذا النظامَ في قالبٍ من التحفيزِ الإيجابيِّ والتنميةِ الذاتيّةِ وريادةِ الأعمالِ، ما يجعلُ المشاهدَ يتماهى مع منظومةٍ تَستغلُّهُ بدلاً من أن يُعارضَها. فبدل أن يَرى الإنسانُ ذاتَهُ جزءًا من جماعةٍ تسعى للعدالةِ، يَراها مشروعًا فرديًّا لتحقيقِ الأرباحِ. إنها صيغة جديدة من الاستعمار

1 - Zygmunt Bauman. Consuming Life, P.45.

الرمزي؛ إذ تُستبدل السيطرة العسكرية بسيطرةٍ معرفيةٍ ونفسيةٍ تُعيد تشكيل الإنسان ليقبل دوره في النظام دون وعيٍ أو مقاومة. وبذلك تكتمل حلقة الهيمنة: من الاقتصاد إلى الإعلام، ومن الصورة إلى الوجدان.

رابعًا: استراتيجيّات المقاومة والتحرّر الإعلاميّ

إنَّ الإعلامَ ليسَ ترفًا من ترفِ الكلامِ، بل هو سلاحُ الوعيِ في معركةِ المصيرِ. فالأمَّةُ التي لا تملكُ وسائلَ تعبيرِها، تُعبَّرُ عنها بلغاتِ الآخرينَ، وتُصاغُ صورتُها في أذهانِ العالمِ كما يريدُها خصومُها.

لم يكنِ الإعلامُ يومًا محايدًا في صراعِه بينَ المستضعفينَ والمستكبرينَ. فمنذُ أن تحوَّلَ إلى أداةٍ للهيمنةِ الرمزيَّةِ، غدا ساحةً تُدارُ فيها معركةُ الوعيِ لا السلاحِ. ولذلكَ، فإنَّ أيَّ مشروعٍ للتحرّرِ لا يكتملُ دونَ تحريرِ المنظومةِ الإعلاميَّةِ من قبضتِها الغربيَّةِ التي تُعيدُ تشكيلَ الإدراكِ، والذوقِ، والذاكرةِ وفقَ مصالحِها ومناهجِها الفكريَّةِ. هذهِ المواجهةُ لا تكونُ برفضِ الحداثةِ أو تحييدِ التكنولوجيا، بل بإعادةِ تملّكِها ضمنَ منظورٍ إنسانيٍّ مقاومٍ، يرى في الكلمةِ مسؤوليَّةً، وفي الصورةِ رسالةً، وفي الإعلامِ طريقًا للوعيِ لا وسيلةً لتفريغِ معنى الترفيهِ أو الهيمنةِ.

١. استعادة الحق في السرد

إنَّ أولى خطواتِ التحرّرِ تبدأ من استعادةِ السرديَّةِ؛ لأنَّ من يملكُ الروايةَ يملكُ الوعيَ، ومن يملكُ الوعيَ يملكُ المستقبلَ.

طالما بقيَ الآخرُ يكتبُ تاريخَنا ويُصوّرُ وجوهَنا ويتكلَّمُ باسمِنا، فستظلُّ الأمَّةُ مجرّدَ موضوعٍ في خطابٍ صنعَهُ غيرُها. المطلوبُ هو إنتاجُ سرديّاتٍ محليَّةٍ متجذّرةٍ في ثقافتِنا، تعبرُ عن الإنسانِ العربيِّ والمسلمِ بكرامتِه وتاريخِه، لا بوصفِه "الآخرَ" في مرآةِ الغربِ.

هذا يقتضي تأسيسَ مراكزِ دراساتٍ إعلاميَّةٍ مستقلَّةٍ تُعنى بتحليلِ الخطابِ الإعلاميِّ الغربيِّ وتفكيكِ رموزِه وتدريبِ جيلٍ من الصحفيّينَ والباحثينَ على الكتابةِ النقديَّةِ، إلى جانبِ دعمِ الإنتاجِ الثقافيِّ والفنّيِّ الذي يُعيدُ بناءَ الوعيِ الجماليِّ والحضاريِّ للأمَّةِ.

فالإعلامُ الــذي ينطلقُ من قيمِ العدالةِ والكرامةِ والتكافلِ لا يكونُ ترفًا فكريًّا، بل فعلاً مقاومًا يُعيدُ للإنسانِ وعيَهُ بفاعليّته.

٢. إعلام تحرّريٍّ بديل

التحرّرُ الإعلاميُّ لا يتحقّقُ بمجرّدِ إنشاءِ قنواتٍ جديدةٍ تجترُّ المفاهيمَ نفسَها، بل ببناءِ منظومةٍ قيميّــةٍ مغايرةٍ تنطلقُ من رؤيةٍ حضاريّةٍ للإنســانِ، وترفضُ اختزالَهُ في رقمٍ اســتهلاكيٍّ أو أداةٍ في الســوقِ. فالإعلامُ المقاومُ هو الذي يضعُ الوعيَ قبلَ الشعبيّة، والمبدأَ قبلَ المصلحةِ، والإنسانَ قبلَ الإعلانِ. ويتطلّبُ هذا المشروعُ إنشــاءَ مؤسّساتٍ مستقلّةٍ تُدارُ بعقليّةِ النضالِ، لا التسويقِ، إلى جانبِ تطويرِ التعليمِ الإعلاميِّ النقديِّ في الجامعاتِ، بحيثُ يتحوّلُ الطالبُ من مســتهلكٍ للمعلومةِ إلى ناقدٍ لها.

كما يجبُ تأسيسُ شبكاتِ إنتاجٍ إعلاميٍّ عربيٍّ وإسلاميٍّ مشتركةٍ، تتعاونُ في تبادلِ الخبراتِ، وتُنتجُ محتوىً ثقافيًّا وسينمائيًّا يعكسُ قيمَ الأممِ المُستضعفةِ وهمومَها، ويكسرُ احتكارَ الصورةِ الغربيّةِ للعالمِ.

٣. توظيف أدوات الهيمنة في مساراتٍ مضادّة

من أهمِّ أشــكالِ المقاومةِ، هو تحويلُ أدواتِ الهيمنةِ إلى أدواتٍ للتحرّرِ. فالمنصّاتُ الرقميّةُ التي تُستخدمُ اليومَ لتسويقِ النموذجِ الغربيِّ يمكنُ أن تصبحَ وسيلةً لنشرِ رواياتٍ بديلةٍ تعبرُ عن معاناةِ الشعوبِ وتجاربِها في الصمودِ والنهوضِ.

لا يجوزُ أن تبقى التكنولوجيا حكرًا على المركزِ، بل يجبُ أن تتحوّلَ إلى سلاحٍ معرفيٍّ بأيدي الأطرافِ، تُكتبُ من خلالِها روايةُ الشــعوبِ بلغاتِها ولهجاتِها، لتكسرَ احتكارَ الصورةِ الأحاديّةِ للعالمِ.

إنَّ التحالفَ الإعلاميَّ والثقافيَّ بينَ شعوبِ الجنوبِ العالميِّ، من فلسطينَ إلى اليمنِ ولبنانَ، ومن فنزويلا إلى بوليفيا وأمريكا اللاتينيّة، يمكنُ أن يُشكّلَ نواةً لتحالفٍ معرفيٍّ مقاومٍ يُعيدُ التوازنَ إلى الخطابِ الإنسانيِّ العالميِّ، ويُؤسّسُ لوعيٍ كونيٍّ جديدٍ يقومُ على العدالةِ والتعدديّة.

الإعلامُ التحرّريُّ، بهذا المعنى، لا يكونُ مجرّدَ مهنةٍ أو وسيلةٍ، بل رسالةً وجوديّةً: هو استعادةٌ للمعنى الإنسانيِّ في عالمٍ أُفرِغَ من روحِه. إنَّهُ يقفُ في وجهِ الإعلامِ الكولونياليِّ الذي يُروّجُ للنيوليبراليّةِ باسمِ الحرّيةِ، ويُعيدُ للإنسانِ وعيَهُ بأنَّهُ ليسَ مستهلكًا في سوقٍ بلا نهايةٍ، بل خليفةً في أرضٍ لها غايةٌ. ومن هنا، فإنَّ بناءَ إعلامٍ تحرّريٍّ نابعٍ من قيمِ الأمّةِ ليسَ ترفًا ثقافيًّا، بل ركنًا من أركانِ المقاومةِ الشاملةِ، تمامًا كما كانتِ الكلمةُ، في فكرِ الأنبياءِ، أداةً لبناءِ الإنسانِ قبلَ أن تكونَ وسيلةً لتبليغِ الرسالةِ.

خاتمة

رأينا في فصولِ البحثِ كيف أنّ الإعلامَ لم يعد مجرّدَ وسيطٍ ناقلٍ للخبرِ أو أداةٍ للتسليةِ، أو ربما لم يكن يومًا كذلك. بل هو منظومةٌ فكريةٌ متكاملةٌ لإنتاجِ العالمِ وإدارتِه رمزيًا. لقد بيّنت المحاورُ السابقةُ أنّ السيطرةَ على العقولِ لا تحتاجُ اليومَ إلى الجيوشِ، بل إلى الشاشاتِ، وأنّ أخطرَ أنواعِ الاحتلالِ هو ذاك الذي يُمارسُ في الوعيِ لا على الأرضِ. فالإعلامُ، بمختلفِ تجلّياته التقليديةِ والرقميةِ، أصبحَ البنيةَ التحتيةَ للهيمنةِ الاستعماريةِ الحديثةِ؛ يُعيدُ تعريفَ الواقعِ، ويُصنعُ الرغبةَ، ويبرمجُ الوعيَ الجمعيَّ وفقَ مصالحِ المراكزِ الامبرياليّةِ التي تحتكرُ المعرفةَ والصورةَ والمعنى.

ولكنْ هذه الهيمنةُ لم تكنْ لتترسّخَ لولا "القابليةُ للاستعمارِ" في صورتِها الثقافيةِ الجديدةِ، أي استعدادُ المجتمعاتِ لتبنّي النموذجِ الغربيِّ بوصفِه المعيارَ الأوحدَ للتحضّرِ. فالإنسانُ الذي يعيشُ في فضاءٍ إعلاميٍّ مهيمنٍ، يُقاسُ وجودُهُ بما يستهلكُ لا بما يُنتجُ، وتُختزلُ حرّيتُهُ في حرّيةِ الاختيارِ بينَ خياراتٍ صُمّمتْ سلفًا لهُ. وهكذا يُعادُ إنتاجُ إنسانٍ جديدٍ، فقدَ عمقَهُ الروحيَّ، وتحوّلَ إلى مستهلكٍ مبرمجٍ، يسكنُ عالمًا من الرموزِ لا من القيمِ، وتصبحُ العبوديةُ طوعيةً والهيمنةُ ذاتيةً.

وفي ضوءِ ذلك، خلُصَ البحثُ إلى أنّ مواجهةَ هذه البنيةِ الإعلاميةِ لا يمكنُ أن تكونَ بخطاباتٍ خُلُقيّةٍ أو شعاراتٍ إنشائيةٍ، بل بعملٍ حضاريٍّ شاملٍ يُعيدُ بناءَ المشروعِ المعرفيِّ للأمّةِ. إنّ التحرّرَ الإعلاميَّ لا يبدأُ من القنواتِ ولا من الخوارزميّاتِ، بل من الإنسانِ الذي

يســتعيدُ وعيَهُ برســالتِه ودورِه في التاريخ. فلا مقاومةَ بلا وعيٍ، ولا وعيَ بــلا سرديّةٍ نابعةٍ من الذاتِ. لذلك، فإنّ استعادةَ الحقِّ في السردِ والسيطرةِ على أدواتِه تمثّلُ الخطوةَ الأولى في طريقِ التحرّرِ: أن نكتبَ قصّتَنا بأدواتِنا، ونرى العالمَ بعيننا، ونُعرّفَ التقدّمَ وفقَ مقاصدِنا لا وفقَ معاييرِ السوقِ والإمبراطوريةِ.

لقد حاولَ هذا البحثُ أن يقدّمَ إطلالــةً على الإعلامِ بوصفِه ميدانًا للصراعِ الحضاريِّ؛ حيثُ تتقاطــعُ القيمُ والمصالــحُ والمعاني. ودعــا إلى اســتثمارِ أدواتِ الحداثةِ لا رفضِهــا، وتطويعِ التكنولوجيــا لا الخضوعِ لها، وإقامةِ تحالفٍ ثقافيٍّ بينَ الشــعوبِ الحــرّةِ في الجنوبِ العالميِّ لتبــادلِ السرديّاتِ وبناءِ إعلامٍ مقاومٍ يتجاوزُ الحدودَ. فالإعلامُ في جوهرِه ليسَ صناعةَ محتوىً، بل صناعةَ إنسانٍ؛ إمّا أن يكونَ عبدًا للآلةِ أو حرًّا في وجهِها.

إنّ معركةَ الإعلامِ اليومَ ليســتْ معركةَ خبرٍ وصورةٍ، بل معركةَ المعنى والذاكرةِ. فإمّا أن نكونَ مســتهلكينَ للصورِ التي يصنعُها الآخرونَ، أو أن نصبحَ صُنّــاعَ رؤيتِنا للعالمِ. إمّا أن نبقى أسرى الخطابِ النيوليبراليِّ الذي يربطُ الحرّيةَ بالاستهلاكِ، أو أن نعيدَ تعريفَها بوصفِها مسؤوليّةً خُلُقيّةً وكرامــةً وجوديّةً. لقد آنَ الأوانُ لأن نتحرّرَ من اســتلابِ الكلمةِ والصورةِ، وأن نؤمنَ بأنّ الإعلامَ المقاومَ هو شــكلٌ من أشــكالِ الجهادِ المعرفيِّ، وســاحةٌ لاســتعادةِ المعنى الإنسانيِّ في زمنٍ استُبدلتْ فيه الحقيقةُ بالإعلانِ، والوعيُ بالإبهارِ، والإنسانُ بالعلامةِ التجاريّةِ.

إنّ بناءَ إعلامٍ تحرّريٍّ نابعٍ من قيمِ الأمّةِ ليسَ ترفًا ثقافيًّا، بل واجبًا حضاريًا ومقدّسًا، لأنّ الأممَ لا تُقهرُ حينَ تمتلكُ سلاحَ الكلمةِ، ولا تُهزمُ ما دامَ أبناؤُها يملكونَ القدرةَ على روايةِ حكايتِهمْ.

المصادر والمراجع

الكتب:

- أنطونيو غرامشي: دفاتر السجن (في الثقافة والهيمنة)، ترجمة: فواز طرابلسي، دار الفارابي، بيروت، ط١، ٢٠١٠.
- إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط١، ١٩٩٣.
- آسا بريغز، وبيتر بيرك: تاريخ اجتماعي لوسائل الإعلام: من غوتنبرغ إلى الإنترنت، بوليتي برس، كامبريدج، لا ط،٢٠١٠.
- بيير بورديو: الهيمنة الرمزية، دار مينوي، باريس، لا ط، ١٩٨٩.
- بيير بورديو: العنف الرمزي (بحث في أصول علم الاجتماع التربوي)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤.
- باومان زيغمونت: الحياة الاستهلاكية، بوليتي برس، كامبريدج، لا ط، ٢٠٠٧.
- جوزيف س. ناي: القوة الناعمة (وسيلة النجاح في السياسة الدولية). ترجمة: محمد توفيق البجيرمي، تقديم: عبد العزيز عبد الرحمن الثنيان، العبيكان للنشر، الرياض، ط١، ٢٠٠٧.
- عبد الوهاب المسيري: العالم من منظور غربي: دراسة في الأنثروبولوجيا المعرفية للغرب الحديث، دار الشروق، القاهرة، لا ط، ٢٠٠١.
- مارشال ماكلوهان: فهم وسائل الإعلام: امتدادات الإنسان. ماكغرو هيل، نيويورك، لا ط، ١٩٦٤.
- مالك بن نبي: شروط النهضة، دار الفكر، دمشق، ط٢٠، ٢٠١٥.
- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، لا ط، ٢٠٠٧.
- ميشيل فوكو: المراقبة والعقاب. ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لا ط، ١٩٩٥.
- هربرت أ. شيللر: المتلاعبون بالعقول: كيف يجذب محركو الدمى الكبار في السياسة

والإعلان ووسائل الاتصال الجماهيري خيوط الرأي العام؟ ترجمة: عبد السلام رضوان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ع٢٤٣، آذار ١٩٩٩.

- هربرت ماركيوز: الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت، لا ط، ١٩٨٨.
- نايونغ كووون، تاكوشي أوداغيري، ومونيم بايك (محررون): Theorizing Colonial Cinema: Reframing Production, Circulation, and Consumption of Film in Asia. بلومنجتون: مطبعة جامعة إنديانا، ٢٠٢٢.

الدراسات والمقالات (العربية):

- أحمد بوعبزة، ومحمد الأمين توميم: "الدعاية الإعلامية الغربية ودورها في صناعة الحروب والنزاعات (الاحتلال الأمريكي للعراق نموذجًا)"، مجلة إضاءات للبحوث والدراسات، المجلد ١، العدد ١، ٢٠٢٢، ص ١٧.
- https://asjp.cerist.dz/en/article/174751
- إدوارد سعيد: "الاختلاق، الذاكرة والمكان"، ترجمة رشاد عبد القادر، مجلة الآداب الأجنبية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد ١٠٤، تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠، ص ١٤.
- حنان عبد الوهاب عبد الحميد القاضي: "الاستعمار الإلكتروني وعلاقته بأبعاد الاغتراب لدى الشباب الجامعي بالتطبيق على استخدامات شبكات التواصل الاجتماعي"، المجلة المصرية لبحوث الاتصال الجماهيري، المجلد ٥، العدد ٢، يوليو ٢٠٢٣، ص ٢٦٥-٣١٠.
- حمدي حسن أبو العينين: "الإعلام الجديد في العالم الإسلامي: إشكالية الثقافة والتكنولوجيا والاستخدام"، مجلة الدراسات الإعلامية القيمية المعاصرة، دار الورسم، الجزائر، العدد الأول، المجلد الأول، ٢٠١٢، ص ١٦.
- سامية إدريس: "نقد الاستشراق الجديد في كتاب ما بعد الاستشراق: الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولونياليات البيضاء؛ مقاربة إبستيمولوجية"، مجلة التأويل وتحليل الخطاب،

المجلد ٥، العدد ٢، ١٥ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٢٤، ص ٢٢٥-٢٤٢.

- زوبير زرزايحي: "العولمة والهوية الثقافية في زمن الإعلام الجديد"، مجلة المعيار، المجلد ٢٤، العدد ٣، ١٥ حزيران/يونيو ٢٠٢٠، ص ٥٣٧-٥٤٩.

المراجع الأجنبية:

- Alemán Carreón, Elisa Claire; Nonaka, Hirofumi; Hentona, Asahi; & Yamashiro, Hirochika. "Measuring the Influence of Mere Exposure Effect of TV Commercial Adverts on Purchase Behavior Based on Machine Learning Prediction Models." Information Processing & Management, Vol. 56, No. 4, 2019, pp. 1339–1355.
- https://doi.org/10.1016/j.ipm.2019.03.007
- Bauman, Zygmunt. Consuming Life. Cambridge: Polity Press, 2007.
- https://realsociology.edublogs.org/files/2013168709399-/09/Zygmunt-Bauman-Consuming-Life-20071107-cis.pdf
- Doucet, Lyse. "Syria & the CNN Effect: What Role Does the Media Play in Policy-Making?" Dædalus, American Academy of Arts and Sciences, Vol. 147, No. 1, Winter 2018, pp. 141–157.
- https://www.amacad.org/publication/syria-cnn-effect-media-policy-making
- Forest, J. J. F. "Political Warfare and Propaganda: An Introduction." Journal of Advanced Military Studies, Vol. 12, No. 1, 2021, pp. 13–33.
- https://doi.org/10.21140/mcuj.20211201001
- Edward S. Herman and Noam Chomsky. Manufacturing Consent: The Political Economy of the Mass Media. The Bodley Head, London, 2008, p. 29.
- Iman M. M. Zahra. "The Role of Media in Conflict Management:

A Secondary and Critical Analysis." Arab Journal of Media & Communication Research, Vol. 47, 2024, pp. 41–55. https://jkom.journals.ekb.eg/article_405130.html?lang=en

- Marshall McLuhan. Understanding Media: The Extensions of Man, Gingko Press, California, 2003, pp. 100–106.
- Otaibi, Tala, and Johnny Achkar. "The Evolution of Mind Control: How the Media Controls What the Public Thinks." The Phoenix Daily, May 27, 2021. https://www.thephoenixdaily.net/
- Stuart Hall. "Encoding/Decoding." In Culture, Media, Language, London: Hutchinson, 1980, pp. 128–138.
- https://spkb.blot.im/_readings/EncodingDecoding_HALL_1980.pdf

Emotions Psychological Construction: Media Rule in Shaping Love, Fear, Hostility

■ Prof. Ahmad Radwan Nasrallah[1]

Abstract

This research examines the concept of "Emotions Psychological Construction" and the role of the media in shaping feelings of love, fear, anxiety, and hostility among the masses. It aims to analyze the theoretical and psychological structures associated with emotions, clarifying the foundations and rules upon which strategies for shaping emotions are built within a general framework, particularly since the emotions psychological construction is not limited to arousing temporary emotions, but rather contributes to reshaping the psychological structure of individuals and entire social systems. It also explores how media shapes collective emotions and steers public opinion and behavior in specific directions. It examines the impact of this process on both individuals and society, using real-life examples from the Arab world, especially from regions experiencing conflict and political tension, such as Lebanon and occupied Palestine. The research concludes how emotional media discourse is used to influence political paths and public response during crises. It concludes also by stressing the importance of developing critical awareness toward emotional messaging in the media, as its long-term psychological and social effects often outlast the media moment itself. This calls for critical consciousness of media content and the study of emotional discourse as an authoritarian tool no less dangerous than political and economic tools.

Keywords:

Psychological Construction, Collective Emotions, Emotional Media, Emotional Framing, Hate Speech, Public Opinion.

1 -University professor, writer and researcher in the field of educational, psychological and social sciences (Lebanon).

الهندسة النفسيَّة للمشاعر
كيف يصوغ الإعلامُ الحُبَّ والخوفَ والعداوةَ؟

■ أ.د.احمد رضوان نصر الله[1]

ملخّص

يتناول هذا البحث مفهوم «الهندسة النفسيَّة للمشاعر»، ودور الإعلام في تشكيل مشاعر الحبّ والخوف والقلق، والعداوة لدى الجماهير، ويهدف إلى تحليل البنى النظريَّة والنفسيَّة المرتبطة بالمشاعر، ما يوضّح الأسس والقواعد التي تُبنى عليها استراتيجيَّات تشكيل المشاعر في الإطار العام، خاصَّة أنَّ الهندسة النفسيَّة للمشاعر لا تقتصر على إثارة الانفعالات المؤقتة، بل تُسهم في إعادة تشكيل البنيَّة النفسيَّة للأفراد والمنظومات الاجتماعية بأكملها، كما يستعرض أدوات الإعلام في توجيه الانفعالات الجماعيَّة، وتوجيه الجماهير نحو ومواقف وسلوكيات معيَّنة. كما يستعرض تأثيرات هذه العمليَّة على الفرد والمجتمع، من خلال حالات تطبيقيَّة في كيفيَّة توظيف وسائل الإعلام للخطاب العاطفيّ من العالم العربيّ، لا سيما في مناطق الصراعات والتوترات السياسيَّة، فيقدّم نماذج من الواقع العربي تبرز هذا التأثير بوضوح، لا سيما في المسارات السياسيَّة أو الأزمات. (لبنان، وفلسطين المحتلة)، ويخلص إلى ضرورة تعزيز الوعي النقديّ في الخطاب الإعلاميّ العاطفيّ، لحماية الصحة النفسيَّة والاجتماعية، تترك آثارًا طويلة المدى تتجاوز اللحظة الإعلاميَّة ذاتها، ما يستدعي ضرورة الوعي النقديّ بالمضامين الإعلاميَّة، ودراسة الخطاب العاطفيّ بوصفه أداة سلطويَّة لا تقلّ خطرًا عن الأدوات السياسيَّة والاقتصاديَّة.

الكلمات المفتاحية: الهندسة النفسيَّة، المشاعر الجماعيَّة، الإعلام العاطفيّ، تأطير الانفعالات، خطاب الكراهية، الرأي العام.

١ - أستاذ جامعي، كاتب وباحث في مجال العلوم التربويَّة والنفسيَّة والاجتماعيَّة.

مقدّمة

تُعدّ الهندسة النفسيَّة للمشاعر مفهومًا مركَّبًا، يستند إلى تقاطعات معرفيَّة بين علم النفس المعرفيّ ونظريَّة الإعلام، وتحليل الخطاب. وتبرز، في هذا السياق، الحاجةُ إلى تأطير المفهوم تأطيراً دقيقًا، يربطه بالبنى النظريَّة التي أنتجته، ويساعد في فهم آليَّات تأثيره، ودوره في تشكيل المشاعر الجماعيَّة، خاصَّة في ظل التوظيف الإعلاميّ الواسع للعاطفة والانفعال في الخطاب المُوجَّه إلى الجمهور.

أولًا: التأطير النظريّ والمفاهيميّ للهندسة النفسيَّة للمشاعر

يهدف هذا القسم إلى تقديم قراءة نظريَّة ومفاهيميَّة للهندسة النفسيَّة للمشاعر، بالاستناد إلى أسس علم النفس والانفعال، ومفاهيم الإعلام العاطفيّ، والتأطير السيميائيّ واللغويّ، ما يوضّح الأسس والقواعد التي تُبنى عليها استراتيجيَّات تشكيل المشاعر في الإطار العام.

١. تعريف المفهوم وتحليله لغويًّا ونفسيًّا:

يجمع مصطلح الهندسة النفسيَّة للمشاعر بين كلمتين رئيستين؛ «الهندسة» التي تعني التصميم والتنظيم المنهجيّ، «والنفسيَّة للمشاعر» التي تشير إلى عمليَّات الوعي والانفعال الداخليّ. فالهندسة هنا، ليست مجرّد بنية تقنيَّة، بل هي تنظيم متكامل يهدف إلى توجيه المشاعر، وتكوينها بما يخدم أهدافًا مُعيَّنة[1].

١ - أنس شكشك: الهندسة النفسيَّة، ص١٢.

ترتكز العمليَّة نفسيًّا على فهم كيفيَّة تكوين المشاعر، وتأثيرها في سلوك الأفراد والجماعات، وفقًا لعدة نظريَّات، مثل نظريَّة (جيمس – لانج/James – Lange): التي ترى أنّ المشـاعر تنتج عن استجابات جسـديَّة، أو نظريَّة (لاكان-Lacan) التي تستند إلى البُعد الاجتماعي في تكوين المشـاعر[١]. وهكذا تعني "الهندسة النفسيَّة" عمليَّة ضبط لعوامل مؤثّرة، سواء أكانت داخليَّة أم خارجيَّة، بهدف إحداث مشاعر محدَّدة بطريقة منظَّمة ومخطَّط لها.

٢. أهمّ النظريَّات المرتبطة بالمشاعر والانفعال:

تعتمد الهندسـة النفسـيَّة للمشـاعر على مجموعة من النظريَّات النفسـيَّة التـي تفسّر طبيعة المشاعر والانفعالات التي يعيشها الإنسان، ولعلَّ أبرزها الآتي:

أ. نظريَّة (جيمس – لانج) (James – Lange Theory): التي تقول إنَّ المشـاعر تنشـأ نتيجة اسـتجابات جسـديَّة، أي أنَّ الشـعور بالخوف أو الفرح ينتج عن التفسيرات الفيزيولوجيَّة في الجسم[٢].

ب. نظريَّـة لاكان (Lacan Theory): تركز على البُعد الاجتماعي والثقافيّ للمشـاعر، معتـبرة أنَّ الانفعالات تتكوَّن عبر اللغة والرموز، التي يشـارك فيها الإنسـان داخل المجتمع[٣].

ج. نظريَّـة التشـكُّل الاجتماعـي للمشـاعر (Social Constructivist Theory): ترى أنَّ المشـاعر ليسـت فطريَّة فقط، بل تتشـكَّل وتتغيَّر بتأثير النسـق الثقافيّ والاجتماعي[٤].

هذه النظريَّات وغيرها، تشـكِّل الأساس لفهم كيف يمكن للإعلام أنْ يصوغ، ويُعيد صياغة المشاعر الإنسانيَّة بطريقة هادفة أو هادمة.

---

١ - إبراهيم الفقي: كيف تتحكم في شعورك وأحاسيسك.

2 - James, W., What is an Emotion? Mind, p. 188-205.

3 - Lacan, J., Ecrits, p. 19.

4 - Hochschild, A.R., Emotion work, Feeling Rules, p. 551.

٣. دمج المفهوم بسياقات الإعلام والخطاب:

يستخدم مفهوم الهندسة النفسيَّة للمشاعر بشكل واسع في مجال الإعلام الحديث؛ حيث تعتمد وسائل الإعلام على تقنيَّات متطوَّرة لصياغة المشاعر الجماعيَّة عبر بناء رسائل مؤثِّرة تستهدف جوانب عاطفيَّة مُحدَّدة مثل الحُبّ، والخوف، والعداوة.

يختار الإعلام -غالبًا- الصور، والكلمات، والتقنيَّات، والمؤثِّرات، وتكرار الرسائل التي تعزّز مشاعر محدّدة، ما يخلق واقعًا من المشاعر المتماسكة لدى الجمهور. ويعتمد ذلك على مفهوم التأطير الإعلاميّ (Media framing)، الذي يشير إلى الطريقة التي يجري من خلالها تقديم المعلومات لتوجيه الانتباه، وتشكيل التفسيرات العاطفيَّة[١].

تسهم هذه العمليَّة في بناء الأعداء أو الأطراف المحبَّبة في الخطاب، ما يؤدّي إلى تعميق الانقسامات، أو تعزيز التماسكات الاجتماعية والوطنيَّة، بحسب الأهداف السياسيَّة أو الثقافيَّة للوسائل الإعلاميَّة.

ويبرز اليوم شواهد متزايدة على أن إطلاق المواقف الأساس في الحياة، إنما تنبع من قدرات الإنسان العاطفيَّة الإنسانيَّة؛ ذلك أن الانفعال، بالنسبة للإنسان، هو واسطة العاطفة. وبذرة كل انفعال هي شعور يتفجَّر داخل الإنسان للتعبير عن نفسه في فعل ما. وهؤلاء الذين يكونون أسرى الانفعال – أي المفتقرون للقدرة على ضبط النفس – إنَّما يعانون من عجز إطلاقيّ: فالقدرة على السيطرة على الانفعالات هي أساس الإرادة، وأساس الشخصيَّة. وعلى النحو نفسه، فإنَّ أساس مشاعر الإيثار، إنَّما يكمن في التعاطف الوجداني مع الآخرين، أي في القدرة على قراءة عواطفهم. أما العجز عن الإحساس باحتياج الآخر، وآلامه وآماله، وشعوره بالإحباط، فمعناه عدم الاكتراث، وتبلّد الإحساس، وهذا ما نعيشه اليوم على نطاق واسع ومرعب، ليس فقط في عالمنا العربيّ، بل في العالم كلّه. لذلك، إذا كان هناك موقفان خُلُقيَّان يستلزمهما عصرنا الحالي، فهما على وجه التحديد: ضبط النفس والرأفة، أفرادًا وجماعاتٍ وبلدانًا[٢].

في كتاب (أرسطو) الفلسفي "الأخلاق إلى نيقوماخوس"، تمثّل التحدّي الرئيس في دعوته

1 - Entman, R.M., Framing: Toward classification of a fractured paradigm, p. 51.

٢ - دانييل جولمان: الذكاء العاطفي، ص١٢.

إلى إدارة حياتنا العاطفيَّة بذكاء؛ فعواطفنا، إذا مُورست ممارسة جيّدًا، ستحوز الحكمة، وعواطفنا هي التي تقود تفكيرنا وقِيَمنا وبقاءنا. لكنَّها يمكن أن تفشل بسهولة، وهذا ما يحدث كثيراً؛ لأنَّ المشكلة، بحسب (أرسطو)، ليست في الحالة العاطفيَّة ذاتها، ولكن في سلامة هذه العاطفة، وكيفيَّة التعبير عنها[1]. ومن ثَمَّ، فالسؤال هو: كيف نسبغ الذكاء على عواطفنا، والتحضرّ على شوارعنا، والاهتمام والتعاطف على حياتنا المجتمعيَّة؟

ونختم هذا القسم بالقول: إنَّ الهندسة النفسيَّة للمشاعر ليست عمليَّة عفويَّة أو طبيعيَّة، بل هي ممارسة مقصودة مدعومة بنظريَّات نفسيَّة وإعلاميَّة، تسعى لتوجيه المشاعر العامَّة بما يخدم أهدافًا محدّدة. وفي الأقسام القادمة، سنحاول تحليل كيف يقوم الإعلام باستخدام هذه الهندسة لصياغة مشاعر الحُبّ والخوف والعداوة، مع عرض دراسات ونماذج تُبرز آليَّات التنفيذ والنتائج.

ثانيًا: دور الإعلام في صياغة المشاعر: الحُبّ والخوف والعداوة

يُمثّل الإعلام اليوم عاملاً رئيسًا في تشكيل المشاعر الجماعيَّة وتوجيهها؛ حيث يلعب دورًا محوريًّا في صياغة مفاهيم الحُبّ، والخوف، والعداوة عبر أدواته وتقنيَّاته المتعدَّدة. لا يقتصر دوره على نقل المعلومات فقط، بل يتجاوز ذلك، ليصبح صانعًا للانفعالات، ويستثمر في الهندسة النفسيَّة للمشاعر، لتوجيه الجماهير نحو ومواقف وسلوكيات معيَّنة، ما يؤثّر بشكل عميق على التماسك الاجتماعي والسياسيّ.

سأحاول في هذا القسم إجراء دراسة معمَّقة، لأُبرِز الآليَّات التي يستخدمها الإعلام لتأطير المشاعر، مع التركيز على كيفيَّة صناعة الحُبّ والخوف والعداوة، مستعرضًا الأدوات والرموز التي توظِّف في هذه العمليَّات.

١. آليَّات الإعلام في التأطير العاطفيّ:

يعتمد الإعلام في صياغة المشاعر على آليَّة التأطير (Framing)، التي تعني اختيار الرسائل

١ - دانييل جولمان: الذكاء العاطفي، ص١٤.

وتقديمها بطريقة تبرز جانبًا معيَّنًا من الواقع، وتشـجّع المتلقّي على تبنّي موقف عاطفيّ محدّد تجاهه[١].

يقوم الإعلام بتحديد الصور والكلمات التي تثير مشاعر محدّدة، مثل استخدام صور ضحايا لإثـارة التعاطف، أو مشـاهد عنف لتوليد الخـوف. ويجري تكرار تلـك العناصر عبر مختلف المنصَّات، لخلق مساحات تضمن رسوخ الرسالة في الوعي الجماعيّ للجمهور. كما يستخدم الإعلام الرموز الثقافيَّة والدينيَّة والاجتماعية لبناء روابط عاطفيَّة قويَّة مع الجمهور المسـتهدَف، ما يسهّل عمليَّة صياغة المشاعر وجعلها أكثر قَبولًا وتأثيرًا.

٢. صناعة الحب: التمجيد، والترابط، والرموز:

تلعب وسـائل الإعلام، على الدوام، دورًا مركزيًّا في بناء مشـاعر الحب والانتماء، من خلال طرق عدَّة، أبرزها:

أ. التمجيد والتصوير الإيجابيَّان: حيث تُبرّز الشخصيات أو الجماعات بشكل إيجابي، مع التركيز على سـماتها وصفاتهـا الحميدة وإنجازاتها العتيدة، وهذا يعزّز مشـاعر التقدير، ويرفع مستوى الولاء بين الجماهير[٢].

ب. اسـتخدام الرموز والطقوس المتنوِّعة: كالأعلام، والشعارات، والأناشيد، والأغاني التي تثير المشاعر الوطنيَّة، والوحدويَّة، وترفع منسوب الانتماء الوطنيّ أو الطائفيّ، على المستوى الفرديّ والجماعيّ[٣].

ج. سرد القصص العاطفيَّة: من خلال رواية القصص والأخبار المفعمة بالإنسانيَّة، والتي تبرز التجارب المشتركة، ووحدة الآمال والآلام، وصولًا إلى وحدة المسار والمصير، ما يُقرّب الجماهير، وعلى نحو كبير، من الموضوع ويبني روابط عاطفيَّة[٤].

---

1 - Entman, R.M., Framing Toward Clarification, p. 58.

2 - Anderson, B., Imagined Communities, Reflections on the origin, p. 50.

3 - Geertz, C., The Interpretation of cultures, p. 73.

4 - Polleta, F., It was like a fever, p. 206.

هذه الاستراتيجيات والتقنيَّات تساعد في صياغة شعور بالحب، والولاء، والتضامن داخل الجماعات، ما يؤثر لاحقًا على مواقف الأفراد وسلوكهم.

٣. صناعة الخوف، والتهديد، والتوتر:

يعتمد الإعلام على بثّ مشاعر الخوف باستخدام استراتيجيات متعدَّدة، منها:

أ. التكرار المكثّف لرسائل التهديد: كالحديث عن خطر الإرهاب أو الكوارث الاقتصاديَّة، بهدف خلق حالة من القلق المستمر، ومناخ اجتماعي وسياسيّ واقتصاديّ غير مستقرّ[١].

ب. استخدام الصور والمشاهد المؤثّرة: مثل اللقطات والمشاهد العنيفة، أو الكوارث الطبيعيَّة التي تثير ردود فعل عاطفيَّة قويَّة[٢].

ج. إثارة التوتر السياسيّ والاجتماعي: من خلال تسليط الضوء على الأزمات والانقسامات، وإثارة الفتن والقلاقل، ما يؤدّي إلى شعور بالاضطراب وعدم الأمان[٣].

تؤدّي هذه الممارسات، في أغلب الأوقات، إلى تحفيز ردود فعل نفسيَّة تتراوح بين الحذر المفرط إلى العُزلة أو العدائيَّة تجاه من ينظر إليهم باعتبارهم مصدرَ تهديدٍ، وفي كلا الحالتين – العدائيَّة أو العُزلة – نحن أمام مشكلة كبرى وخطر داهم، يُهدّد بنيان المجتمع، بالاهتزاز وربمّا الانهيار لاحقًا.

٤. صناعة العداوة: العدو أداة واستعداء الآخر:

يمارس الإعلام دورًا محوريًّا في خلق مشاعر العداوة وتغذيتها من خلال ما يأتي:

أ. تصوير الطرف الآخر عدوًّا أو تهديدًا: عبر توصيفه بأوصاف سلبيَّة، مثل الإرهاب، والخيانة، أو التآمر، أو بتعبير آخر شيطنته أو تخوينه، وهذا يسهم في تعزيز مشاعر

1 - Glassener, B., The culture of fear, p. 99.

2 - Altheide, D.L., Terrorism and the politics of fear, p. 15.

3 - Furedi, F., Politics of fear: Beyond left and right, p. 20.

الخوف والكراهية[1].

ب. التعميمات النمطيَّة، والسرديَّات المُضلَّلة والمُضلِّلة: التي تبسّط الصورة، وتُقلّل من التعقيد، أو تُدخل الباطل في صورة الحقّ، والحقّ في صورة الباطل ، ما يُسهّل تكوين أحكام مسبقة، ويرفع من مستوى الاستقطاب، ويفتح الباب واسعًا نحو أزمة فهم كبيرة، ومفاهيم مدمِّرة.

ج. تشجيع الاستقطاب الاجتماعي والسياسيّ: عبر الخطابات التي تبرز الاختلافات وتشجّع الانقسام، في إطار استراتيجيَّة لتوحيد الجمهور الداخليّ مقابل عدوّ خارجيّ، وأحيانًا، وهذا هو الأخطر، نحو عدوّ داخليّ[2].

تؤدّي هذه الأساليب إلى تعميق الفجوات وزيادة مشاعر الغضب بين الجماعات وتغذية الصراعات، ما يؤثّر على السلام الاجتماعي، والاستقرار الوطنيّ.

ومضافًا إلى ما تقدَّم، ومن وجهة نظر "سيكولوجيَّة"، فإنّ التعبير السلبيّ عن الغضب بأنواعه المتعدّدة، سواء على مستوى الفرد أم الجماعات، يُترَجم بمجموعة من السلوكيَّات في وسائل الإعلام والمجتمع كلّه، وبحسب كل نوع، وذلك على النحو الآتي:

أ. المكتوم: مخزون من الاستياءات يجري التعبير عنها خلف ظهور الناس، أو من خلال اتهامات خبيثة في سياق حوارات تبدو بريئة.

- التعامل بصمت مع الموقف، أو الهمهمة، وتجنّب الاتصال بالعين، أو الانصراف بوجه مكتئب دون تفسير.
- عبارات إذلال مختلفة ومخفيَّة في شكل ملاحظات أو تقويمات (إن هذا لمصلحتك أو مصلحتكم!) أو فكاهات.
- نشر الشائعات، ودردشات خبيثة، وخطابات مسمومة.
- شكوى من دون ذكر شخص معين.
- الإكثار من الأسئلة المحرجة والتحدّيات المخفيَّة.

1 - Van Dijk, T.A., Racism and the press, p. 91.

2 - Wodak, R., The politics of fear, p. 20.

ب. المناور: تحفيز الآخرين على دور عدوانيّ، ثمّ عرض الصفح.
- تشجيع العدوان، ثم البقاء بعيدًا، أو استخدام الابتزاز العاطفيّ.
- استخدام الدموع بدلاً من إظهار الغضب.
- استخدام الوسائل كافَّة لمنع الآخرين من فعل شيء ما، أو جعلهم يشعرون دائمًا بالذنب.
- استخدام الإثارة العاطفيَّة، بعيدًا عن صفاء النيَّة.
- استخدام طرف ثالث، لنقل المشاعر السلبيَّة.
- تدمير العلاقات والخطط عن طريق التأخّر، أو النسيان، أو التظاهر بالغباء، أو منع المال والموارد الأخرى.

ج. لائم الذات: التأسّف في غير موضعه، أو بصورة زائدة، وانتقاد الذات بإفراط، أو الدعوة لنقد الذات وعقابها.

د. المُضحّي بالذات: التعاون بشكل مبالغ فيه.
- يقبل المرتبة الثانية بلا غضاضة.
- يتأوّه بصمت، ولكن يرفض طلب المساعدة.
- يشكر كثيرًا الآخرين على أقلّ مساعدة أو تعاون[1].

ه. غير الفعَّال: يعتمد على الآخرين، ولكنّه يختار دائمًا من لا يعتمد عليهم، أو يقوم بأخطاء سخيفة على الدوام. ويعبرّ عن الإحباط بسبب أشياء تافهة، ولا يهتمّ بالأمور الخطيرة والكبيرة.

و. الهادئ (السلبيّ): يبقى صامتًا بينما الآخرون يقرّرون.
- فاتر، وينام كثيرًا، ولا يستجيب لغضب الآخرين.
- يتحدّث عن الإحباطات، ويفلسفها دون إظهار أيّ مشاعر.

ز. المراوغ: يدير ظهره للكوارث، يتجنّب الصراعات والإحباطات.

---

١ - محمد عبد السلام: الإعلام وتشكيل الرأي العام، ص٢٢١.

- لا يناقش أو يجادل. يغلق هاتفه، أو لا يردّ عليه باستمرار.
- مصاب بالرُهاب، مُتّهمًا أشياء عاديَّة، أو أماكن معيَّنة، وربما أفرادًا بأنّهم السبب في الإحباط أو الكارثة[1].

حاولنا أن نستعرض في هذا القسم كيف يستغلّ الإعلام آليَّات متعدّدة في صياغة المشاعر الأساس لدى الجمهور، من الحب والخوف والعداوة. يعتمد هذا التأطير على أسس نفسيَّة واجتماعية متنوعة، ما يجعل من الإعلام أداة فعَّالة في تشكيل الواقع العاطفيّ للجماهير. في الأقسام القادمة، سيجري تحليل دراسات لنماذج وحالات تطبيقيَّة توضّح هذه الظاهرة في سياقات مختلفة.

ثالثًا: دراسات حالة تطبيقيَّة: الهندسة النفسيَّة للمشاعر في العالم العربيّ

يتميَّز الإعلام العربيّ بتأثيره الكبير في تشكيل المشاعر الجماعيَّة، لا سيما في مناطق الصراعات والتوترات السياسيَّة. تتجلّى الهندسة النفسيَّة للمشاعر في كيفيَّة توظيف وسائل الإعلام للخطاب العاطفيّ، لتوجيه الجماهير نحو مواقف معيّنة، سواء لتعزيز الانتماء والحب، أم لتوليد الخوف والعداوة.

سيجري التركيز، في هذه الدراسة، على حالتين تطبيقيَّتين من لبنان وغزَّة؛ حيث يظهر الإعلام دوره بوصفه أداة محوريَّة في صياغة المشاعر ضمن أطر الصراعات المتنوّعة والمعقّدة، ما يؤثّر بشكل مباشر أو غير مباشر على البنية الاجتماعية والسياسيَّة.

١. لبنان: صياغة مشاعر الحب والعداوة في الإعلام اللبنانيّ

يُعدّ لبنان نموذجًا معقّدًا في التداخل الطائفيّ والسياسيّ؛ حيث يلعب الإعلام دورًا بارزًا في هندسة المشاعر الجماعيَّة.

تعتمد ومسائل الإعلام اللبنانيَّة المتنوَّعة ومتعدَّدة الانتماءات على استراتيجيات صياغة

١ - خليل نور الدين: الانفعالات والهويَّة في المجتمعات المتأزمة، ص١١٥.

الحــب ضمن الجماعة الواحدة، وتعزيز العداوة تجاه الجماعة والطوائف الأخرى في كثير من الأحيان.

أ. صناعة الحب والانتماء: تســتخدم القنوات الإعلاميَّة اللبنانيَّــة رموزًا طائفيَّة ووطنيَّة لتعزيــز الــولاء والارتباط بالجماعة، من خــلال الاحتفاء بالرموز الدينيَّــة، والتقاليد الثقافيَّة، وسرد القصص التي تضمن روابط انتمائيَّة قويَّة[1].

بناءً على ما تقدم، تعتمد وســائل الإعلام اللبنانيَّة استراتيجيَّات متعدَّدة لبناء مشاعر الولاء والانتماء بين الجماعات الطائفيَّة المختلفة[2]:

ب. الرموز الدينيَّة والثقافيَّة: تبرز القنوات المحليَّة والعربيَّة التابعة للطوائف رموزها الدينيَّة باعتبارها شــعارات هُويَّتيَّة، مثل القدّيسين عند المسيحيين، والأئمّة عند المسلمين، ما يعزّز شعور الانتماء والهُويَّة الجماعيَّة.

ج. الاحتفالات والمناســبات: يولي الإعــلام اهتمامًا خاصًا لتغطية المناســبات الدينيَّة والوطنيَّة التي توحّد الجماعة، ويستخدم السرد القصصيّ الموجّه الذي يؤكّد الروابط التاريخيَّة والاجتماعية.

د. الخطاب الإيجــابي: التركيز على الإنجازات والانتصــارات، والأبطال، والبطولات داخل الجماعة، لرفع مســتوى القناعة والمناعة والشجاعة، ما يخلق حالة من الفخر والتماســك الداخليّ، ويقــوّي الحالة التضامنيَّــة. تعمل هذه الاســتراتيجيات على بناء صورة إيجابيَّة للجماعة، تُشــعر أفرادها بالحــب والتواصل والتفاعل النفسيّ مع هُويَّتهم[3].

ه. صناعة العداوة والاســتقطاب: في المقابل، يســهم الإعلام اللبناني أحيانًا في تغذية الانقســامات، وتعزيز الاصطفافات عبر التضخيم والتجريــم؛ حيث يجري تصوير الجماعات الأخرى بصورة العدوّ، واستخدام لغة تحريضيَّة أو شعبويَّة تُسلّط الضوء

1 - Makdisi, S., The culture of sectarianism, p.20.

2 - Salamey, L., The Government and Politics of Leb, p.14.

٣ - جمال الحسن: الهويَّة والانفعال في الخطاب الإعلامي العربي، ص١١٧.

على الأزمات والنزاعات الطائفيَّة بوصفها أزمات وجوديَّة.

و. الاستقطاب السياسيّ: يلجأ الإعلام المرتبط بالأحزاب والطوائف غالبًا إلى تعزيز خطاب الانقسام، ويروّج لرسائل تخدم مصالحه السياسيَّة، ما يزيد من الاستقطاب، ويؤدّي إلى تعميق الكراهية[1].

ز. التكرار والمبالغة: إنَّ تكرار الصور النمطيَّة، والرسائل السلبيَّة بشكل مستمرّ، يجعلها راسخة في الوعي الجمعيّ، ويصعِّب تصحيحها.

لا يقتصر هذا التأطير الإعلامي الخطير على نشر الأخبار، بل هو بمثابة صناعة متكاملة للعداوة التي تؤثّر على العلاقات الاجتماعية والسياسيَّة، وهذا يزيد الشرخ، ويُعمّق الهوَّة بين أبناء الوطن الواحد، ما يعيق عمليَّة المصالحة الوطنيَّة[2].

والأمثلة كثيرة في الماضي والحاضر، على دور الإعلام في حملات الاستقطاب الطائفيّ والمذهبيّ، بعيدًا عن المنطق الوطنيّ ولغة الجمع؛ حيث تبثّ كثيرٌ من القنوات الإعلاميَّة والمواقع الإلكترونيَّة صورًا مشحونة وعناوين مثيرة للخوف والعداوة.

وكذلك الحال خلال الحملات الانتخابيَّة؛ حيث يلعب الإعلام، في معظم الأحيان، دورًا في تعزيز الولاءات الحزبيَّة والطائفيَّة، مستخدمًا لغة تحريضيَّة تهشيميَّة ضد الخصوم السياسيِّين. تؤكِّد تلك الحالات وغيرها، أنَّ الإعلام في لبنان ليس مجرّد ناقل أمين وموضوعيّ للخبر، بل هو في كثير من الأحيان، عنصر فعَّال في الهندسة النفسيَّة للمشاعر، يسهم في صياغة الواقع العاطفيّ للمجتمع.

٢. قطاع غزَّة في فلسطين المحتلَّة - صناعة الخوف والعداوة وصياغة الهُويَّة عبر الإعلام

في ظل ظروف الحصار والحروب المتكرَّرة، ولا سيما حرب الإبادة الجماعيَّة المستمرّة على

١ - جورج ساسين: علم النفس الإعلامي، ص١١٩.
٢ - أحمد عبد الفتاح: الإعلام والمجتمع، ص٢٠.

غـزَّة وأهلها، يلعب الإعلام دورًا حيويًّا في توجيه المشـاعر الجماعيَّة؛ حيث يصبح الإعلام أداة رئيسة في هندسة مشاعر الخوف، والعداوة، وترسيخ الانتماء والمقاومة.

أ. صناعـة الخوف والتوتر: يعكس الإعلام في غـزَّة الواقع الأمنيّ المتقلِّب والمرعب، عبر بثّ صور وأخبار مستمرَّة عن القصف والدمار والمجازر التي يرتكبها يوميًّا العدوّ الصهيونيّ، ما يخلق حالة دائمة من القلق والتوتّر والصدمة بين السكان[1]. ومن خلال استخدام الخطاب العاطفيّ المكثّف الذي يسلّط الضوء على المعاناة الإنسانيَّة، تُحفِّز مشاعر التعاطف داخليًا وخارجيًا، وتُعزِّز اليقظة والتأهُّب الجماعيّ[2].

ب. صياغة العداوة واستعداء الآخر:

تصدر الخطابات الإعلاميَّة الفلسطينيَّة في غزَّة وفلسطين المحتلَّة بشكل عام، وكثير من الإعلام العالميّ، وبعض الإعلام العربي، خطابًا يُبرّز جرائم الاحتلال اليوميَّة، ومشاهد القتل والتجويع، وتدمير المستشفيات والمراكز الصحيَّة ومرافق الحياة كلّها، على نحو يظهر الاحتلال الإسرائيليّ عدوًّا مركزيًّا، ما يعزّز، ولو نسبيًّا، مشاعر العداء، ويشكّل دافعًا قويًّا لاستمرار المقاومة وتجذّرها في الدفاع عن الهويَّة، رغم حرب الإبادة الجماعيَّة والهمجيَّة الصهيونيَّة[3].

يسـتخدم الإعلام لتكريس صـورة "الآخر" بوصفه خصمًا لا يرحم، وهذا يعزّز من تماسـك الهويَّة الوطنيَّة الفلسطينيَّة عبر التضادّ مع العدوّ المشترك[4].

ج. بناء الهويَّة والانتماء:

يبرز الإعلام الفلسطينيّ في غزَّة، والإعلام المقاومُ الحرُّ بشكل عام، قصص البطولة والمقاومة التي تُسـهم في رفع معنويَّات السـكان، وتعزيز الانتماء الوطنيّ. ويحاول بالمقابل إعلام العدوّ ومن معه، تحجيم صور البطولات وتشـويهها، وتضحيات المقاومة والشـعب الفلسطيني كلّه، وتصويرهم على أنّهم إرهاب وخطر على البشريَّة.

1 - El-Nawawy, M., Iskandar, A., How the Free Arab News network scooped the world, 2002.

2 - Hanafi, S., Palestinian Media and the Culture of Resistance, p.p 45-67.

3 - Khalili, L., Time the Shadows, p. 7.

4 - Al-Ghoul, D., Media and Identity in the Palestinian Context, p. 23.

يستثمر الخطاب الإعلاميّ الرموز الوطنيَّة والتاريخيَّة لإثبات حقّ الفلسطينيين في الأرض والحريَّة والكرامة[1].

وعلى سبيل المثال: خلال الاعتداءات الإسرائيليَّة المتكرّرة، تزداد وتيرة الأخبار والصور التي تبرر الخسائر والدمار، لتأجيج مشاعر الحزن والخوف والإحباط. في المقابل تبرز الحملات الإعلاميَّة التي تدعو للوحدة الوطنيَّة والمقاومة لتنشيط وتعزيز الروح المعنويَّة ومواجهة التحديات، رغم كلّ المجازر والنكبات، لتبقى إرادة الحياة العزيزة هي الأقوى[2].

رابعًا: التأثيرات النفسيَّة والاجتماعية للهندسة النفسيَّة للمشاعر عبر الإعلام

تُعدّ المشاعر الجماعيَّة من أخطر أدوات التأثير الاجتماعي، خصوصًا حين تُدار بشكل ممنهج عبر الإعلام. فالهندسة النفسيَّة للمشاعر لا تقتصر على إثارة الانفعالات المؤقتة، بل تُسهم في إعادة تشكيل البنية النفسيَّة للأفراد والمنظومات الاجتماعية بأكملها. ومن خلال التكرار العاطفيّ، والتأطير السلبي أو الإيجابي للأحداث، يجري خلق بيئة نفسيَّة واجتماعية مشحونة، تترك آثارًا طويلة المدى تتجاوز اللحظة الإعلاميَّة ذاتها.

يركّز هذا القسم على تحليل التأثيرات النفسيَّة للفرد (مثل القلق، الإدمان الإعلامي، انحيازات الإدراك) والتأثيرات الاجتماعية (كالاستقطاب، العنف الرمزي، إعادة تعريف الهويَّة الجماعيَّة). كما يستعرض نماذج من الواقع العربي تبرز هذا التأثير بوضوح، لا سيما في المسارات السياسيَّة أو الأزمات.

١. التأثيرات النفسيَّة للهندسة العاطفيَّة عبر الإعلام

تلعب الرسائل الإعلاميَّة دورًا مباشرًا في تشكيل مزاج الفرد وسلوكياته النفسيَّة، خاصة عندما تكون مبنيَّة على إثارة الخوف، أو الكراهية، أو التقديس، أو حتى التدنيس، وتظهر تلك التأثيرات على مستويات عدّة:

1 - Said, E., Culture and Resistance, 1994.

٢ - فاطمة إدريس: الإعلام وبناء الإتجاهات النفسيَّة، ص٢٠.

أ. القلق الجماعيّ والذعر الخُلُقيّ: عندما تركّز الوسائل الإعلاميَّة على مشاهد العنف أو تهديدات مستمرّة (مثل الأزمات الأمنيَّة أو الصحيَّة أو السياسيَّة)، فإنها تولّد ما يعرف بـ «القلق الجماعي»؛ حيث يشعر الأفراد بخطر دائم، حتى وإن لم يكونوا مهدَّدين مباشرة[١]. وهذا ما يحدث حاليًا في عالمنا العربي، وبخاصة في لبنان وسوريا وفلسطين المحتلَّة.

يولّد هذا النمط ما وصفه (ستانلي كوهين-S. Cohen) بـ "الذعر الخُلُقيّ" أي حالة من الهلع الاجتماعيّ تضخّمها وسائل الإعلام، وتعيد تعريف التهديدات ضمن إطار عاطفيّ متحيّز[٢].

ب. الإدمان العاطفيّ على الإعلام: يصبح بعض الأفراد أسرى للمحتوى العاطفيّ المستمرّ، ما يخلق اعتمادًا نفسيًّا على الانفعالات المتكرّرة، كالحزن أو الغضب، ويؤدّي إلى ما يُسمّى «الإدمان العاطفيّ السلبيّ»، الذي يضعف القدرة على التحليل العقلاني، ويجعل الانفعال مصدرًا للهُويَّة[٣].

ج. التحيّز الإدراكيّ والتعاطف الانتقائيّ: يتشكّل الإدراك بناءً على نوعيَّة المشاعر الموجّهة، فينحاز الأفراد للمحتوى الذي ينسجم مع مشاعرهم وتوجّهاتهم، ويتعاطفون فقط مع الفئات التي تم تأطيرها إعلاميًّا ضمن «دائرة الضحيَّة»، ويتجاهلون ضحايا الطرف الآخر[٤].

٢. التأثيرات الاجتماعيَّة للهندسة النفسيَّة للمشاعر عبر الإعلام:

يتعدّى تأثير الإعلام الإطار الفرديّ ليتغلغل في النسيج الاجتماعيّ، مؤثّرًا في العلاقات والهويَّة، وبنية التماسك الاجتماعيّ. وأبرز التأثيرات ما يأتي:

أ. الاستقطاب الاجتماعيّ والطائفيّ: يُستخدم الإعلام أحيانًا لتغذية الانقسام داخل

---

١ - ناصر أبو خليل: التحليل النفسي للإعلام الجماهيري، ص١٨.

2 - Cohen, S., Folk Devils and Moral Panics, p. 7.

3 - Keightley, E., Pickering, M., The Mnemonic Imagination, p. 12.

4 - Entman, R.M., Farming: Toward Clarification of a fractured paradism, p. 9.

المجتمع عبر التأطـير العاطفي الحادّ، خصوصًا في البيئات السياسـيَّة أو الطائفيَّة. عندما تُقدّم مجموعات على أنها «ضحيَّة» وأخرى «عدوّة»، حينها يتبلور وعي جمعيّ ثنائيّ يرفض الحوار ويعزّز الانقسـام[1]. لا يكون الاستقطاب هنا فكريًا فحسب، بل عاطفيًا أيضًا؛ حيث يشعر كلّ طرف بالتهديد الوجوديّ من الآخر.

ب. العنف الرمزيّ وشـيطنة الآخر: من خلال تكرار الصور السـلبيَّة واللغة المشـحونة، يمـارس الإعلام ما يُعـرف بـ «العنف الرمـزيّ» وهو عنف غير مبـاشر، يمسّ كرامة الآخرين، ويؤسّس لعداوة مستدامة[2].

تؤدّي هذه الممارسـة إلى شرعنـة الكراهيَّة وتبرير العنف، كما حـدث في عدد من النزاعات العربيَّة؛ حيث أسهم الإعلام، ولا يزال، في تأجيج خطاب الكراهية قبل اندلاع العنف الفعليّ[3].

ج. إعادة تشـكيل الهويَّة الجماعيَّـة: عندما يُعيد الإعلام تعريف مـن هو «الوطني»، أو «الخائن»، أو «البطل»، فهو يعيد تشـكيل خريطة الهويَّة داخل المجتمع. تُسـتخدم المشـاعر لتثبيت هذه الصور في الوجـدان العام، ما يعزز الانتـماء أو الإقصاء وفقًا للإطار العاطفي والوجداني السـائد[4]. وهكـذا، تتحوّل الهويَّـة إلى بنية إعلاميَّة – عاطفيَّة لا تقوم على المعايير الخُلُقيَّة أو التاريخيَّة فحسب، بل على ما يُصاغ عاطفيًّا في وسائل الإعلام.

د. خطّ التطبيع مع الانفعالات المتطرّفة: حين يمارس الإعلام تعبئة شعوريَّة دائمة، فإنّ مشـاعر، مثل الخوف أو الكراهية، تتحوّل إلى عُرف طبيعيّ، بل إلى وسيلة للتفاعل الاجتماعيّ والسـياسيّ. وهو ما قد يطبّع مع الاستقطاب، ويقود إلى العنف المادّيّ لاحقًا[5].

لقد بيّن هذا أن الإعلام، من خلال هندسة المشاعر، لا يُشكل وعينا فحسب، بل يعيد تشكيل

1 - Sunstein, C., The Law of Group Polarization, p. 20.
2 - Bourdieu, P., Language and Symbolic Power, p. 91.
3 - Al-Rawi, A., Media Practice in Iraq, p. 17.
4 - Hall, S., Representation: Cultural Representations and Signifying Practices, p. 97.
5 - Chouliaraki, L., The Spectatorship of Suffering Sage, p. 60.

انفعالاتنا وسـلوكيّاتنا وهُويَّاتنا، ويتجلّى هذا التأثير الكبير في الاضطرابات النفسـيَّة، مثل القلق والإدمان العاطفي، وفي التحولات الاجتماعيَّة، مثل الاسـتقطاب والانقسام الرمزيّ. تؤكد هذه النتائج على ضرورة الوعي النقديّ بالمضامين الإعلاميَّة، ودراسة الخطاب العاطفيّ بوصفه أداة سلطويَّة لا تقلّ خطرًا عن الأدوات السياسيَّة والاقتصاديَّة.

خاتمة

تناول هذا البحث، بالدراسة والتحليل، مفهوم "الهندسة النفسيَّة للمشاعر" باعتباره أحد أخطر الأدوات التي يستخدمها الإعلام لتوجيه الجماهير، عبر صياغة الحب والخوف والعداوة بطرق مقصـودة ومنهجيَّة، من خلال التأطـير العاطفي، وصناعة الصورة، وتكرار الرسـائل الرمزيَّة... ينجح الإعلام في بناء تصوّرات جماعيَّة تعيد تشكيل الواقع النفسي والاجتماعي للأفراد. تكشف نتائـج هذا البحث عن حاجة مُلحَّة إلى تعزيز الثقافـة الإعلاميَّة العاطفيَّة، وتطوير مناهج تربويَّة تدمج الذكاء العاطفي في التعامل مع الرسائل الإعلاميَّة.

إنَّ الإدراك الواعي للهندسـة النفسـيَّة للمشـاعر ليس مدخلاً لفهم الإعلام فحسب، بل أداة مقاومة معرفيَّة ضدّ التلاعب بالمشاعر الوطنيَّة، وضمان للتماسك الاجتماعيّ.

المصادر والمراجع

١. المصادر والمراجع الاجنبيَّة

- Al-Ghoul, D., Media and Identity in The Palestinian Context, Palestinian Journal of Communication, 12 (1), 2018.
- Al-Rawi, A., Media Practice in Iraq, Palgrave Macmillan, 2017.
- Altheide, D.L., Terrorism and the politics of Fear, Cultural Studies, Critical Methodologies, 6 (4), 2006.
- Anderson, B., Imagined Communities: Reflections on the origin and spread of Nationalism, London, Verso, 1983.
- Bourdieu, P., Language and Symbolic Power, Harvard University Press, 1991.
- Chouliaraki, L., The Spectatorship of Suffering, Sage, 2006.
- Cohen, S., Folk Devils and Moral Panics, Routledge, 1992.
- El-Nawawy, M., nd Iskandar, A., Al-jazeera: How the Free Arab news network scooped the world, west view press, 2002.
- Entman, R.M., Framing toward clarification of a fractured paradigm, journal of communication, 1993.
- Entman, R.M., Framing Toward Clarification, journal of communication, 43 (4), 1993.
- Furedi, F., Politics of Fear: Beyond Left and Right, Continuum, 2005.
- Geertz, C., The Interpretation of Cultures, New York, Basic Books, 1993.
- Glassner, B., The Culture of Fear, Basic Books, 1999.
- Hall, S., Representation: Cultural Representations and Signifying Practices,

age, 1997.

- Hanafi, S., Palestinian media and the culture of resistance, Journal of Middle Eastern Media, 1 (2), 2005.
- Hochschild, A.R., Emotion Work, Feeling Rules, and social structure, American Journal of Sociology, 85 (3), 1979.
- James, W., What is an Emotion? Minel, 9 (34), 1884.
- Keightly, E., and Pickering M., The Mnemonic Imagination, Palgrave, 2012.
- Khalili, L., Time in the shadows, Stanford Press, 2007.
- Lacan, J., Ecrits, Paris: Seuil, 1977.
- Makdisi, S., The Culture of Sectarianism, Ottoman Lebanon, University of California Press, 2000.
- Polleta, F., It was like a fever: story telling in protest and politics, Chicago, University of Chicago press, 2006.
- Said, E., Culture and Resistance, Journal of Palestine Studies, 1994.
- Salamey, I., The Government and Politics of Lebanon, Routledge, 2014.
- Sunstein, C., The law of group polarization, journal of political philosophy, 2002.
- Van Dijk, T.A., Racism and the Press, Routledge, 1991.
- Wodak, R., The politics of fear, SAGE, 2015.

٢. المصادر والمراجع العربيَّة

- إبراهيم الفقي: كيف تتحكم في شعورك وأحاسيسك، القاهرة، شركات إبراهيم الفقي العالميَّة للتنميَّة البشريَّة، لا ط، ٢٠٠٨.
- أحمد عبد الفتاح: الإعلام والمجتمع، القاهرة، دار الفكر العربي، لا ط، ٢٠٢٠.

- أنس شكشـك: الهندسة النفسيَّة: إدارة الجسد وتشـكيل الشخصيَّة، عمان، دار الشروق، لا ط، ٢٠١٢.
- جمال الحسـن: الهويَّة والانفعال في الخطاب الإعلامي العربي، عمان، دار المسيرة، لا ط، ٢٠١٧.
- جورج ساسين: علم النفس الإعلامي، بيروت، دار الفارابي، لا ط، ٢٠١٩.
- جيل لندنفيلد: إدارة الغضب، الرياض، مكتبة جرير، لا ط، ٢٠٠٨.
- خليل نور الدين: الانفعالات والهويَّة في المجتمعات المتأزمة، لا ط، ٢٠١٥.
- دانييـل جولمان: الذكاء العاطفي، ترجمة ليلى الجبالي، مجلـة عالم المعرفة، ٢٦٢، لا ط، ٢٠٠٠.
- فاطمة إدريس: الإعلام وبناء الإتجاهات النفسيَّة، القاهرة، دار النهضة، لا ط، ٢٠٢٠.
- محمد عبد السلام: الإعلام وتشكيل الرأي العام، عمان، دار الحامد، لا ط، ٢٠٢١.
- ناصر أبو خليل: التحليل النفسي للإعلام الجماهيري، بيروت، دار الهدى، لا ط، ٢٠١٨.

Manufacturing Truth: between Media Elites, Think Tanks

■ Mrs. Soukaina Hasan[1]

Abstract

Nowadays, truth is no longer an objective entity; rather, it is the product of a process carried out by a network of institutions, most notably research centers and media elites. This research paper aimed at distinguish between controlled knowledge and free knowledge, and to analyze the "complementary" relationship between these institutions, to formulate the "official truth" and establish it as an indisputable reality through the use of the language of science and numbers, and with the help of persuasion strategies and tools.

Hence, it has become difficult to talk about the neutrality and objectivity of the media, which determines what should be published and what should be ignored, and even how it should be published, according to mechanisms of deletion, amplification, marginalization, and selection, in the context of achieving the greatest possible conquest of minds and ideas.

Government interests required controlling media elites and creating complete harmony between their goals and the outcomes provided by the media, even if this meant resorting to distorting facts. During the aggression on Gaza, the false "official truth" clearly emerged through close cooperation between governments, Western and Arab media elites, and research centers affiliated with the interests of dominant states.

In conclusion, the research sought to present a practical model, and there are many examples in this context, not only at the political level, but also at the economic, cultural, and social levels.

Keywords:

Media Elites, Think Tanks, Official Truth, Tools of Persuasion, Controlled Knowledge, Free Knowledge, Shaping Consciousness.

1 -Researcher and teacher at Al-Mustafa (PBUH) International University - Sayyida Zahra (PBUH) Seminary - Lebanon.

صِناعةُ الحقيقةِ: بينَ النخبِ الإعلاميّة ومراكز الدِّراسات والتفكير

■ سكينة حسن[1]

ملخّص

لم تعد «الحقيقة» اليوم كائنًا موضوعيًّا، بل هي نتاج عمليّةٍ تقوم بها شبكةٌ من المؤسّسات، أبرزهـا مراكـز الأبحاث والنخب الإعلاميّة. وقـد هدفت هذه الورقة البحثيّـة إلى التمييز بين المعرفـة المسـلّطة والمعرفة الحرّة، وإلى تحليـل العلاقة «التكامليّة» بين هذه المؤسّسـات، لصياغة «الحقيقة الرسـميّة» وتكريسـها واقعًـا لا جدال فيه، من خلال اسـتخدام لغة العلم، والأرقام، وبمسـاعدة استراتيجيّات الإقناع وأدواته. ومن هنا، أصبح من الصعب الحديث عن حياد وسـائل الإعلام وموضوعيّتها، وهي التي بيدهـا تحديد ما يجب أن يُنشر، وما يجب أن يُهمل، بل كيف يجب أن يُنشر وفق آليّات الحذف، والتضخيم، والتهميش، والانتقاء في سياق تحقيق أكبر قدرٍ من غزو العقول والأفكار. فاقتضت مصالح الحكومات السيطرة على النخب الإعلاميّة، وخلقَ التناسـق التامّ بين ما يسـعون إليه من أهداف، وما تقدّمه الوسائل الإعلاميّة من مخرجات، حتّى ولو من خلال اللجوء إلى تزييف الحقائق. ففي العدوان على غزّة، برزت بوضوح "الحقيقة الرسميّة" المزيّفة من خلال تعاونٍ وثيقٍ بين الحكومات والنخب الإعلاميّة الغربيّة والعربيّة، ومراكز الأبحاث المرتبطة بالمصالح المرتبطة بالدول المهيمنة. وفي الختام، سـعت هذه الوريقات إلى تقديم نموذجٍ عمليّ، وما أكثر النماذج في هذا السـياق ليس فقط على المستوى السياسيّ، بل الاقتصاديّ والثقافيّ والاجتماعيّ.

الكلمات المفتاحية: النخـب الإعلاميّـة، مراكز الأبحـاث والتفكير، الحقيقة الرسـميّة، أدوات الإقناع، المعرفة المسلّطة، المعرفة الحرّة، تشكيل الوعي.

---

١ - باحثة وأستاذة في جامعة المصطفى ﷺ العالميّة- حوزة السيّدة الزهراء عليها السلام.

مقدّمة

حينــما أصبحث أحداث العالم أكثر تعقيدًا، وأزماته أكثر تشــعّبًا، ومعارفــه أكثر تدفّقًا، تزايد الاعتماد على وســائل الإعلام ومراكز الأبحــاث، لتحصيل القراءة الرصينــة والمتخصّصة التي تواكب الوتيرة المتســارعة للعالم الجديد، وقد تزايدت بالتبع الأســئلة عــن طبيعة المعرفة التي تقدّمها هذه المؤسّسات، ومدى حياديّتها في ظلّ تكاثر الأفكار وتباين الآراء.

وقد باتت الحقيقة اليوم ضرورةً مرجعيّةً للحكم على الأحداث، ولكن تشــير الأدلّة والقرائن إلى أنّ الحقيقة لم تعد تُكتشف، بل أصبحت نتاجًا مركّبًا لعمليّةٍ تتداخل فيها المصالح السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة، وتُدار من قِبَل النخب الفكريّة والإعلاميّة، وتظهر تحت عنوانٍ يرتدي قناع العلم والموضوعيّة، وتُســتخدم باعتبارها أداةً للســيطرة وضبط الوعي العام. وفي هذا السياق، تبرز مراكز الأبحاث، التــي تتولّى مَهمّة إنتاج المعرفة وتغذية الإعلام بها، في إطار مَنح قناعٍ من الشرعيّة والمصداقيّة، يخفي التحيّز الأيديولوجيّ.

تهدف هذه الورقة البحثيّة إلى تحليل العلاقة بين النخب الإعلاميّة ومراكز الدراسات والتفكير في إطار صناعة الحقيقة، ودراســة آليّات اســتخدام الإحصاءات والتحليلات، وتقنيّات الإقناع الإعلاميّ لإعادة تشكيل الواقع والسيطرة على الوعي.

كما تســعى إلى المقارنة بين مفهوم المعرفة الحرّة التي تمكّن صاحبها من التحرّر، والمعرفة المســلّطة التي تُستخدم باعتبارها أداة هيمنةٍ فكريّة، وتدعم الورقة تحليل نموذجٍ حيٍّ من الواقع المعاصر، يبيّن كيف يجري تشكيل الرأي العام تجاه القضايا الكبرى.

أوّلًا: صناعة الحقيقة بين المعرفة الحرّة والمعرفة المسلّطة

يرى الفيلسوف الماركسيّ (أنطونيو غرامشي- Antonio Gramsci) أنّه توجد وسيلتان لفرض السيطرة على مجتمعٍ ما؛ الوسيلة الأولى هي الوسيلة الخشنة التي تُستخدم فيها القوّة، لكنّها غالبًا ما تفشل في توليد سيطرةٍ فعليّةٍ مرغوبةٍ من قِبَل المجتمع. في حين تكون الثانية هي الوسيلة الناعمة القائمة على أساليب الإقناع والترغيب من خلال الثقافة والتعليم والدعم الاقتصاديّ وتوفير الخدمة الاجتماعيّة، هي الأنجع في كسب سيطرةٍ فعليّةٍ مستمرّةٍ على المجتمع[1].

من هنا، بات العالم الحديث والمعاصر يتحدّث عمّا يُسمّى "الحقيقة الرسميّة"، وهي تلك النسخة من الوقائع التي تنتجها النخب الحاكمة والمؤسّسات الإعلاميّة، وتقدّمها للجمهور على أنّها الحقيقة الموضوعيّة والموثوقة؛ ولكن هل تحكي هذه الحقيقة الواقع كما هو؟ والجواب ببساطة هو أنّ هذه الحقيقة لا تعكس الواقع، بقدر ما تضعه في قالبٍ ضيّقٍ يناسب قياس منتجيها وأيديولوجيّاتهم- وهذا ما يجعل من المعرفة إمّا حرّةً نابعةً من بحثٍ نقديٍّ مستقلّ، أو مسلّطةً مفروضةً عبر آليّات السيطرة المؤسّسيّة.

١- المعرفة الحرّة

المعرفة الحرّة هي التي تنتجها الحركات العلميّة والأكاديميّة والمجتمعات الحرّة، وفق عمليّاتٍ نقديّةٍ شفّافةٍ ومستقلّة، كالأبحاث الميدانيّة والدراسات الحياديّة، وتهدف إلى تقديم الحقيقة كما هي، لتوسيع آفاق الفهم وتعزيز وعي الأفراد والمجتمعات، وتتميّز بالموضوعيّة، والانفتاح على الحوار، وتسعى إلى تحدّي هيمنة الخطابات الزائفة؛ فـ«التعليم المحرّر لا يمكن أن يكون منفصلاً عن الواقع، ولا عن التاريخ الذي يعيشه الناس، بل هو تجربةٌ نقديّةٌ تبدأ من وعي الإنسان بواقعيّته، وتُبنى من خلال تجربته في هذا العالم»[2].

هذه المعرفة التي ينتجها الأفراد والمجتمعات، ووسائل الإعلام المستقلّة، والمفكّرون والباحثون النقديّون، وحركات المقاومة، هي لأجل التحرّر من الهيمنة، ويؤكّد (نعوم تشومسكي-

1 - Antonio Gramsci, Prison Notebooks, Vol. I, p. 276.

٢ - باولو فريري: تعليم المقهورين، ص٧٥.

Noam Chomsky) في هذا المجال: «في الديمقراطيّة العاملة، يكون دور المواطن هو التشكيك في السلطة، خصوصًا عندما تدّعي أنّها تقول الحقيقة»[1].

وباختصار، المعرفة الحرّة هي التي تركّز على كشف الواقع ونقده، وهي التي تشجّع على الشكّ المنهجيّ والتحقيق، وتُستخدم بوصفها أداةً للتحرّر.

٢ - المعرفة المسلّطة

تشكّل المعرفة المسلّطة شبكةٌ مترابطةٌ من المؤسّسات والنخب، توفّر سرديّةً إعلاميّةً، تبرّر سياسات القمع باسم الحياد والدقّة؛ لأنّ «ادّعاء الحياد والخبرة التقنيّة، يسمح للمؤسّسات الفكريّة بتقديم توصياتها على أنّها مبنيّةٌ علميًّا، حتّى عندما تكون أيديولوجيّة بعمق»[2].

فالمعرفة المسلّطة، هي التي تنتجها النخب المسيطرة على مؤسّسات البحث والإعلام، من أجل ضبط الوعي العام وتوجيهه بما يخدم مصالحها، عبر تقديمها بصفتها حقيقةً نهائيّةً لا تقبل النقاش. وهي تتميّز بالتوجيه المسبق، وتُستخدم لإعادة إنتاج الهيمنة.

فالجامعات، والمؤسّسات الأكاديميّة، ومراكز الأبحاث، قد تنتج أشكالاً من المعرفة الأيديولوجيّة عندما تخضع لهيمنة الدولة أو الشركات الكبرى أو المؤسّسات التمويليّة؛ إذ إنّ «المؤسّسات الفكريّة ليست ناقلاتٍ محايدةً للمعرفة؛ لأنّ السياسيّين يستخدمون الخبرة لتشكيل النقاش العام والنتائج السياسيّة، بما يعكس التزاماتهم الأيديولوجيّة والماليّة»[3].

فهذه المعرفة تعتمد على هيمنة مصادرها، وتركّز على تبريرها وشرعنتها، وهي التي تُستخدم باعتبارها أداةً لضبط الوعي وفق خلفيّاتٍ أيديولوجيّة.

٣ - ضبط الوعي الجماهيريّ

في حين تمكّن المعرفة الحرّة متلقّيها من فهم آليّات السيطرة، وتعزّز من الوعي النقديّ، من

---

١ - نعوم تشومسكي: السيطرة على الإعلام- الإنجازات المذهلة للدعاية، ص٧.

2 - Andrew Rich, Think Tanks, Public Policy, and the Politics of Expertise, p.78.

3 - Andrew Rich, Think Tanks, Public Policy, and the Politics of Expertise, p.2.

خلال ما تغذّيه في العقول بأسئلةٍ عن ما تقدّمه وسائل الإعلام ومراكز الدراسات.

تلعب المعرفة المسلّطة دورًا رئيسًا في تأطير الوعي الجماهيريّ من خلال انتقاء موضوعات الأبحاث والدراسات، وتوجيه التحليلات والمخرجات، وتكرارها في خطاب وسائل الإعلام للتأثير سلبًا في قدرة المتلقّين على بناء الوعي الحرّ القادر على المقاومة.

ومن هنا، يرى (ميشال فوكو-Michel Foucault) أنّ "السلطة والمعرفة تقترن كلٌّ منهما بالأخرى بشكلٍ مباشر... لا توجد علاقة سلطةٍ من دون بناءٍ معرفيٍّ مصاحب، ولا توجد معرفةٌ لا تستدعي في الوقت نفسه علاقات سلطة"[1].

ومن أجل إنتاج هذه المعرفة جرى إنشاء مراكز أبحاث وفكر متخصّصة، التي غالبًا ما يجري تمويلها من قِبل النخب السياسيّة والاقتصاديّة... كما يجري تبنّي تحليلاتها من قِبل وسائل الإعلام؛ لأنّها تمنح خطابها غلافًا من العقلانيّة. وبذلك، تتقاطع جهود جهاتٍ ثلاث في إنتاج الحقيقة الرسميّة: هي السلطة، والإعلام، ومراكز الأبحاث.

ثانيًا: وسائل الإعلام- إعادة هيكلة الواقع وتأطير الرأي العام

احتلّت وسائل الإعلام المختلفة في العالم الحديث مكانةً متقدّمةً من خلال برامجها التي بإمكانها التأثير في ثقافة المجتمعات، هذه المكانة جعلت من هذه الوسائل محورًا رئيسًا في سياسة الحكومات التي أنشأت وزاراتٍ للإعلام، وخصّصت دوائر تُعنى بكلّ ما يخصّ بنوك المعلومات هذه؛ وذلك بهدف تطوير المجتمعات ثقافيًّا، واجتماعيًّا، واقتصاديًّا، وسياسيًّا... ولم تتوقّف هذه الوسائل عند حدود دولها، بل استطاعت التكنولوجيا المُعَولَمة أن تلغي الحدود بين الدول، وتربط أقصى الشرق بأقصى الغرب... هذه المكانة ذاتها هي التي جعلت من وسائل الإعلام محطّ اهتمام المؤسّسات المختلفة، سواءٌ الاجتماعيّة أم السياسيّة أم الاقتصاديّة؛ لما لديها من قدرةٍ على إيصال صوتها وخدمة أهدافها. وقد أصبح معلومًا اليوم، أنّ الدولة ذات الإعلام القويّ هي دولةٌ قويّة، وأنّ للإعلام نفسه نفوذًا يتفوّق به على سائر أركان الدولة، ولعلّ

1 - Michel Foucault, The Archaeology of Knowledge, p. 27.

السـبب في هذه السـلطة التي تتعاظـم يومًا بعد يوم هو وظيفـة التوجيه التـي تضطلع بها هذه الوسائل، والقدرة على تكوين المواقف والاتّجاهات[١].

إنّ الوسـيلة الإعلاميّة التي برزت منذ عقود عدّة، وفرضت نفسـها في مختلف أنماط الحياة، لم تعد اليوم مجرّد وسـيلةٍ للتسـلية ونقـل الأخبار، بل تحوّلـت إلى أداةٍ لغـرس القِيَم، وتغيير المعتقدات، وتوجيه السـلوك؛ وذلك يعود بالدرجة الأولى إلى أنّ لهذه المؤسّسـات الإعلاميّة فلسفتها، وأيديولوجيّتها، وأفكارها الخاصّة التي تسعى إلى تكريسها. هذا مع عدم إهمال الجانب الاقتصاديّ، الذي هو عاملٌ أسـاسٌ في اسـتمرار العمل وتطوّره. ومـن هنا، أصبح من الصعب الحديث عن حياد وسـائل الإعلام وموضوعيّتها، وهي التي بيدها تحديد ما يجب أن يُنشر، وما يجب أن يُهمل، بل كيف يجب أن يُنـشر وفق آليّات الحذف، والتضخيم، والتهميش، والانتقاء في سياق تحقيق أكبر قدرٍ من غزو العقول والأفكار.

أدرك صنّـاع القـرار أنّ «التحكّـم في المعلومـات يعطـي الحكومة السـيطرة على عقول مواطنيها»[٢]؛ وأنّه لا بدّ من حماية النخبة الحاكمة من غضب الجماهير الممثِّلة للرأي العام، التـي يُنظر إليها عـلى أنّها «قطيعٌ تائهٌ يحتـاج للتوجيه من النخبة الحاكمـة». ولذا، لا بدّ من إجبارهم على الموافقة على ما تقرّره هذه النخب عن طريق التحكّم بعقولهم، وتشكيل وعيهم عـبر تكثيف الدعاية الموجّهة إليهـم[٣]. من هنا، اقتضت مصالح الحكومات السـيطرة على النخـب الإعلاميّة -المحلّلين والمحرّرين والمذيعين-، وخلق التناسـق التامّ بين ما يسـعون إليه من أهداف، وما تقدّمه الوسائل الإعلاميّة من مخرجات، حتّى ولو من خلال اللجوء إلى تزييف الحقائق[٤]، فأصبح الإعلام جهاز دعايةٍ يقوم بصياغة المحتوى الموجّه إلى الجماهير، بما يؤيّد مصالح الحكومات والشركات الكبرى، وأصبح الخطاب الذي يوفّره ممارسةً سلطويّةً تؤطّر الحقيقة وتنتج معرفـةً التي لا تنقل الواقع كما هو، بل تبنيه وفق رؤيتها الخاصّة، تحت

١ - سعاد عبيدي: وسائل الإعلام واستراتيجيّات الإقناع والهيمنة الثقافيّة، ص٣٦٢.
٢ - صالح خليل أبو إصبع: الاتّصال والإعلام في المجتمعات المعاصرة، ص٨٧.
٣ - نعوم تشومسكي: الإعلام وصناعة الموافقة، ص١٠.
٤ - صالح خليل أبو إصبع: الاتّصال والإعلام في المجتمعات المعاصرة، ص٨٨.

مسمّى «حماية القطيع التائه من الأفكار الخاطئة»[١].

لا بدّ هنا من الالتفات إلى النقد الذي يطال وسائل الإعلام بشكلٍ عام، والذي يمكن تلخيصه بالآتي[٢]:

- تقوم وسائل الإعلام بتقديم آراء وأهداف مالكيها على سواها، خصوصًا في السياسة والاقتصاد.
- تعمل في خدمة الشركات الكبرى، وأحيانًا يسيطر المُعلِنون على سياسة التحرير ومضمونه.
- تحافظ على الطبقات الاجتماعيّة وتقاوم التغيير الاجتماعيّ وتهدّد المعنويّات العامّة.
- تغطّي الأمور السطحيّة والعاطفيّة أكثر من الأمور المُهمّة.
- تغزو خصوصيّة الأفراد دون سببٍ مشروع.
- تسيطر عليها طبقةٌ واحدةٌ أخطر ما تكون على السوق الحرّ للأفكار[٣].

ومنه يبدو من الواضح أنّ وسائل الإعلام لم تعد إلا أداة تنفيذيّة، لا لنقل الحقائق، بل لإنتاجها ضمن القالب المعدّ سلفًا، أمّا المعارف التي تقدّمها، فهي تصبّ في مصالح أيديولوجيّة مهيمِنة.

١ - تأثير وسائل الإعلام

التأثير عبارةٌ عن «مجموع التغيّرات الظاهرة أو الكامنة التي تحدث نتيجة الاتّصال، سواءٌ وقعت في المدى القريب أم المتوسّط أم البعيد»[٤]، وقد يكون نفسيًّا، أو اجتماعيًّا، أو فكريًّا... وهو الهدف النهائيّ لعمليّات الاتّصال، وقد يكون سريعًا، أو متوسّط المدى، أو بعيد المدى؛ وهذان الأخيران يكونان في حالات تكوين الاتّجاهات، والقِيَم، والأفكار عبر تكرار المعطيات

١ - نعوم تشومسكي: الإعلام وصناعة الموافقة، ص٦٤.

٢ - هذا النقد قدّمه (ثيودور بيترسون-Theodor Peterson) لوسائل الإعلام الأمريكيّة، ولكن يمكن الاعتماد عليه في المقام.

٣ - صالح خليل أبو إصبع: الاتّصال والإعلام في المجتمعات المعاصرة، ص٨٩.

٤ - سعاد عبيدي: وسائل الإعلام واستراتيجيّات الإقناع والهيمنة الثقافيّة، ص٣٦٣.

الإعلاميّة وتراكمها لفترةٍ طويلة[1].

يعتبر المفكّرون أنّ الدعاية التي تقدّمها وسائل الإعلام، هي الوسيلة الأكثر اقتصاديّةً في خلق الانتماء والولاء لدى الجماهير، وهذا ما يكرّس القوّة الهائلة لهذه الوسائل؛ بحيث تعدّ الرسائل الإعلاميّة كالرصاصة، التي إذا ما وُجّهت وأُطلقت بالشكل المطلوب، تصيب مرماها من دون شكّ[2].

تلاحظ هذه النظريّة أنّ ما تقدّمه وسائل الإعلام يقوم بدور المنبّهات القويّة لمشاعر الجماهير، بحيث يستجيبون لها بشكلٍ متقارب، وهذه الاستجابة، التي تشكّل قوّة وسائل الإعلام، تعود أساسًا إلى ضعف وسائل الضبط الاجتماعيّ؛ إذ يتلقّى الفرد معلوماته من وسائل الإعلام مباشرة.

وفي هذا السياق، يمكن أيضًا ملاحظة نظريّة «الغرس الثقافيّ»[3] التي تركّز على مفهوم التعلّم العرضيّ الناتج عن التعرّض التراكميّ لوسائل الإعلام؛ بحيث يتعرّف المشاهد بصورةٍ غير واعية على الحقائق، لتصبح شيئًا فشيئًا الموادّ الخامّ لصوره الذهنيّة وقِيَمه التي يتبنّاها عن العالم الحقيقيّ، وهذه عمليّةٌ مستمرّةٌ وديناميكيّةٌ للتفاعل؛ بحيث تؤكّد الأبحاث أنّ وسائل الإعلام أصبحت قوّةً مسيطرةً على كثيرٍ من الناس، ومصدرًا رئيسًا لبناء تصوّراتهم عن الواقع والعلاقة معه؛ فكلّما ازدادت فترة التعرّض لوسائل الإعلام، أصبحت أكثر قدرةً على غرس الاعتقاد لدى المشاهد بأنّ ما يراه هو صورٌ مماثلةٌ للعالم الواقعيّ؛ أي أنّه هو الحقيقة لا غير.

ولا يخفى دور التغيّرات العميقة التي أحدثتها الثورة التكنولوجيّة الهائلة، وحياة الناس في مدنٍ كبيرةٍ تفتقر للحياة الاجتماعيّة، في خلق حالةٍ من العزلة والشعور بالوحدة والقلق، والتوجّه نحو وسائل التواصل للاستعاضة بها عن الحياة الاجتماعيّة المفقودة. وهذا ما يجعل هذه الوسائل مرغوبةً بشدّةٍ؛ لأنّها تؤمّن البديل عن العلاقات الضروريّة للإنسان، وتقدّم له ما يحتاجه من

---

١ - سعاد عبيدي: وسائل الإعلام واستراتيجيّات الإقناع والهيمنة الثقافيّة، ص٣٦٣.

٢ - سعاد عبيدي: وسائل الإعلام واستراتيجيّات الإقناع والهيمنة الثقافيّة، ص٣٦٤.

٣ - تعرّضت هاتان النظريّتان للعديد من الانتقادات، لكنّ المختصّين يرون أنّهما مثاليّتان في فهم وسائل الإعلام وتحليل تأثيراتها، ونظريّة المجتمع الجماهيريّ في ضوء التطوّر الكبير لتكنولوجيا الإعلام والاتّصال، والانتشار الواسع للقنوات الإعلاميّة الافتراضيّة.

معارف في شتّى المجالات، وتساعده على تكوين الرأي وتوجيه السلوك[١].

إنّ صناعة الحقيقة باتت اليوم رهينة الأدوات التكنولوجيّة والمعلوماتيّة والعلميّة والاتّصاليّة والأمنيّة، بحيث تتضافر لخلقها وإنتاجها جهود مجموعاتٍ كبيرة من الخبراء والمفكّرين والسياسيّين والإعلاميّين الذين يستخدمون الأدوات الأكثر فعاليّةً في التأثير من خلال أكثر الطرق نعومةً.

وهذا ما حدا بعض المفكّرين إلى استخدام مصطلح «حقبة ما بعد الحقيقة» (Post-Truth Era)، ويُقصد بها الحالة التي يتراجع فيها دور الحقائق، والبيانات، والمعلومات لصالح المعتقدات والرؤى الأيديولوجيّة والرّغبات[٢].

٢ - استراتيجيّات الإعلام في إعادة تشكيل الواقع

في إطار سعيها لتقديم رسائل مهندسةٍ بعنايةٍ، لقولبة الرأي العامّ في قوالب معدّة مسبقًا، والتوصّل إلى تعديل الفكر والسلوك لمشاهديها، تستخدم وسائل الإعلام استراتيجيّاتٍ وأدواتٍ مختلفةً مدروسةً بدقّة، من شأنها تشكيل الصور الذهنيّة عبر رفد المخزون المعرفيّ بالمعلومات المطلوبة؛ حيث إنّ عمليّة إقناع المتلقيّ بفكرةٍ ما تعتمد على مجموعةٍ من المتغيّرات تتعلّق بطريقة تقديم الفكرة نفسها، وأسلوب التعبير عنها ونقلها للآخر، والنخب الإعلاميّة هي التي تصوغ الحقيقة عبر آليّاتٍ تنظيميّةٍ دقيقة، ووفق نماذج محدّدة مثل الدعاية الإعلاميّة والكبسولات المعرفيّة المغلقة[٣]. ويمكن في هذا الإطار، ذكر مجموعة من أهمّ الاستراتيجيّات المستخدمة وفق الآتي:

أ. تحديد جدول الأعمال: ما يجب تقديمه، وما يجب تجاهله بشكلٍ عام وفق سياسات وسيلة الإعلام، والبرامج التي سوف تتطرّق لكلّ موضوعٍ وعنوان. مضافًا إلى اختيار الأوقات المناسبة لتقديم كلّ عنوان؛ في أوقات الأزمات، حالات الخوف أو الغضب..

---

١ - سعاد عبيدي: وسائل الإعلام واستراتيجيّات الإقناع والهيمنة الثقافيّة، ص٣٦٤.

2 - Oxford Dictionaries. «Word of the Year 2016: Post-Truth».

٣ - المقصود منها هنا: التقارير أو السرديّات التي يجري تقديمها على أنّها حقيقة جاهزة.

ب. الإطـار المعتمد لتقديـم المعلومات: بحيث تحقّق أكبر قدرٍ مـن توجيه الانفعلات والتصوّرات. وفي هذا العنوان، يمكن ذكر:

- كيفيّة تقديم القصّة أو تصوير طـرفي الخلاف: فقد تُصوّر المظاهرات المطالبـة بالحقـوق على أنّها أعمال شـغب، أو يجري شـيطنة بعض الحركات المعارضـة، أو تصوير القضيّة على أنّهـا خلافٌ بين «نحن» «الكيان المتحضّر»، و«الآخر» الإرهابيّ المتخلّف.
- البراعة في اسـتخدام المفردات، مثل حقوق الإنسان، والأمن القوميّ، والديمقراطيّـة، مضافًا إلى صناعـة مفرداتٍ ومصطلحـاتٍ جديدةٍ أو اللعب في معانيها ومضامينها؛ ويمكن هنا الاستفادة كمثال من مصطلح «الحقائق البديلة» غير الكاذبة الذي تمّ اعتماده للأخبار المزيّفة[1].
- انتقاء الإحصاءات بعناية، واختيار عيّنةٍ للبحث تدعم الفرضيّة، وتضخيم بعض الأرقام مع تجاهل أخرى، كما لو أرادت وسيلةٌ إعلاميّةٌ تضخيم معدّلات البطالة، فإنّها لا تحتسـب العاملـين وفق نظام «العمل الحرّ» على سبيل المثال.

ج. المصادر المعتمدة: تعتمد الوسائل الإعلاميّة، بشكلٍ شبه حصريّ، على تصريحاتٍ حكوميّـةٍ مع إقصاء أو التقليل من قيمة المصـادر الأخرى، مضافًا إلى اعتماد خبراء من مراكز ومؤسّسات معيّنة، وهنا يمكن التفصيل بين أمورٍ ثلاثة:

- قيام وسـائل الإعلام بالتزوّد بمعلوماتها من صنّـاع القرار، الذين يوفّرون أخبـارًا يوميّة مضافًـا إلى توفير خبراء مختارين بعناية، تتكرّر أسـماؤهم في البرامج الأخباريّة والسياسـيّة، ما يشكّل لدى المتلقّين قناعةً بكونهم

١ - كان هذا المصطلح مثار الجدل الذي أثارته (كيليان كونواي-Kellyanne Conway)، مستشارة الرئيس الأمـيركيّ (دونالد ترامـب- Donald Trump)، عندما اعتبرت تصريحات الناطق الرسـميّ باسـم البيت الأبيض عن الجمهور الغفير الذي حضر حفل تنصيب الرئيس حقائق بديلة غير كاذبة، بيد أنّ مقارنة صور هذا المشهد بحفل تنصيب (باراك أوباما - Barack Obama) تُبيِّن أن تلك المعلومات لم تكن حقيقيّة.

يمثّلون الرأي العقلانيّ الموثوق، ويكرّسهم مراجع شبه دائمة في الأزمات.

- إنشـاء علاقةٍ تبادليّةٍ مع مراكز الدراسات والأبحاث والتفكير، واعتماد دراساتهم وتحليلاتهم وإحصاءاتهم، واسـتضافة مفكّريهم وباحثيهم والترويج لهم. وفي الحقيقة، هذا العامل نوعيٌّ وأساس في التأثير؛ لأنّه يخلـق لدى المتلقّي قناعةً بما يُقدَّم لـه، فيتضاءل في ذهنه أيّ احتمالٍ للخلاف حتّى لا يعود مُلتفتًا إليه؛ وذلك لأنّ مثل هذه الأبحاث تعتمد لغة الأرقام التي لا تخطئ، وسلطة العلم والمعرفة.

د. تقنيّـات الإقناع العامّة: تندرج فيها مجموعةٌ ممّا سـبق ذكره وغيرها من الأسـاليب، كاللغة المستخدمة والمصطلحات، والتكرار لترسيخ الرسالة في الذهن، واستخدام الإحصاءات بوصفهـا أرقامًا محايدة، وإضفـاء الطابع العلميّ، وتنشـيط الجيوش الإلكترونيّة والحسابات الوهميّة.

ثالثًا: مراكز الأبحاث والتفكير- مصانع إنتاج المعرفة

يُعدّ ظهور مراكز الأبحاث والدراسات في الديمقراطيّات الحديثة ظاهرةً حديثةً نسبيًا؛ بحيث يُرجعهـا الباحثون إلى مرحلة ما بعد الحرب العالميّة الأولى، وقد ازداد عددها وتأثيرها بشـكلٍ ملحوظٍ إبّان الحرب الباردة، إلى أن أصبحت مطلع النصف الثاني من القرن العشرين لاعبًا رئيسًا في إنتاج المعرفة، وصياغة القرارات، والتأثير على الرأي العام[1].

فإذا غضضنا النظر عن الخلاف والغموض الذي يكتنف تعريفها بشكلٍ عام، يمكن القول إنّ مراكز البحث والفكر -كما تعرّفها جامعة أوكسـفورد-، «تمثّل مؤسّسـاتٍ بحثيّةً تسعى إلى لعبٍ دورٍ رئيس في صنع السياسات العالميّة والإقليميّة والوطنيّة والتأثير عليها، في حين أنّ كلّ مركزٍ بحثيٍّ يخدم غرضًا محددًا، لكنّها جميعًا تشـترك في رؤيةٍ مشتركةٍ لتحسين قطاعاتها، فضلاً عن

١ - حسين مزهر خلف: مراكز البحث والتفكير الأمريكيّة ودورها في صنع القرار السياسيّ الخارجيّ- بروكينغز وكارنيغي أنموذجًا، ص١٥٩.

كونها مصادر للأفكار والأبحاث الجديدة»[١].

ومن المهمّ الإشـارة أنّه حتّـى عقد الأربعينيّات من القرن المـاضي، كان يجري تعريف أغلب مراكز التفكير على أنّها مؤسّساتٌ أو مراكز للدراسات والأبحاث، لكنّه جرى إطلاق تسمية مراكز التفكير أو صناديق الأدمغة، أثناء الحرب العالميّة الثانية، على نوعٍ محدّدٍ من المؤسّسات البحثيّة، هي التي تضطلع بمهمّة تقديم التوجيه والإرشاد لصنّاع القرار، وتؤثّر في صنع السياسات العامّة[٢].

ومن خلال تتبّعٍ بسيطٍ، يمكن رؤية فرقٍ دقيقٍ بين مراكز الفكر ومراكز الدراسات أو الأبحاث؛ حيث إنّ مراكز الفكر مشهورةٌ بتبعيّتها الأيديولوجيّة والسياسيّة، ولها تمويلٌ واضحٌ وهدفٌ محدّدٌ هو التأثير في السياسـات وفي الرأي العام. أمّا وظيفتها، فتكمن في صياغة تحليلاتٍ وتوصياتٍ اسـتراتيجيّة وفق خطـابٍ موجّهٍ، حتّى لو لبس لبـوس الصبغة العلميّة. في حـين تهدف مراكز الدراسـات أو الأبحاث التي ترتبط في الغالب بجامعاتٍ أو مؤسّساتٍ أكاديميّة، لإجراء أبحاثٍ ودراساتٍ منهجيّةٍ تنتج معرفةً علميّة، في خطابٍ أقّل انخراطًا في السياسة. هذا في الرؤية البَدْويّة، ولكن عمليًّا، فإنّ مراكز الدراسـات ليسـت مسـتقلّةً تمامًا، وكثيرًا ما تخضع للجهات المموّلة أو الأيديولوجيّـات والسياسـات؛ حيث يكون لها أهداف الأُولى نفسـها، ولكـن مرتديةً الرداء الأكاديميّ؛ بحيث يشـير (راوين كونيل- Raewyn Connell) إلى أنّه "عندما تعتمد الجامعات على تمويل شركات أو أجندات الدولة، فإنّ المعرفة التي تُنتجها ليست محايدة، بل تميل إلى أن تعكس مصالح الجهة المموّلة، وتصبح -في الجوهر- معرفةً أيديولوجيّة"[٣].

١ - وظائف مراكز الأبحاث والتفكير

إنّ الأفكار هي التي تشكّل العالم، ومراكز الأبحاث لم تعد في العالم المعاصر مجرّد مؤسّساتٍ علميّةٍ

---

1 - Oxford University Careers Service. Think Tanks.

٢ - حسين مزهر خلف: مراكز البحث والتفكير الأمريكيّة ودورها في صنع القرار السياسيّ الخارجيّ- بروكينغز وكارنيغي أنموذجًا، ص١٦٢.

3 - Raewyn Connell, Southern Theory: The Global Dynamics of Knowledge in Social Science, p.125.

بحثيّــة، بل أصبحت نقطة الاتّصال بين عالم البحث وعالم السياســة، وبهذا لم تعد وظيفتها الوحيدة تقديم المنتج الفكريّ والمعرفيّ، بل استخدامه بوصفه سلاحًا وأداةً سياسيّةً؛ بحيث لا تعود مجرّد ناقلٍ للمعرفة، بل تتعدّى ذلك إلى ترجمة البحث الأكاديميّ إلى توصياتٍ قابلةٍ للتطبيق وفق رغبات صانعي القرار. ومن هنــا، فإنّ هذه المراكز المتفاوتة تفاوتًا كبيرًا في أحجامهــا وهيكليّاها ومواردها، -كما في مجال أبحاثها ودراساتها-، أصبحت لها وظائف أبعد من العالم البحثيّ العلميّ، تصل إلى:

أ. توليد الأفكار، ووضع خارطةٍ لتطبيقها، وقياس مدى فعاليّتها على مختلف الأصعدة.

ب. تحليل الوقائع، واستشراف المستقبل، وتقديم رؤى مستقبليّة تساهم في تطوير الواقع والنهوض به.

ج. وضع الاســتراتيجيّات المبنيّة وفق مبادئ علميّة، للوصول إلى قراراتٍ ذات أســس متينةٍ، وتقليل احتماليّة الخطأ.

د. تقديم الاستشــارات المتنوّعة، خصوصًا فيما يخصّ القضايا التي تحتاج إلى معرفةٍ متخصّصةٍ، ودقّةٍ في اتّخاذ القرار.

ه. توفير قاعدة بياناتٍ بحثيّةٍ وتطوير البحث العلميّ في المجالات كافّةً.

و. الدخول باعتبارها طرفًــا توفيقيًّا بين الأطراف الحكوميّة المتنازعة، وتقريب وجهات النظر المتباينة في سياساتٍ معيّنة.

ز. المشاركة في العمليّة الدبلوماسيّة عبر خبراء يرافقون الوفود، ويكونون جزءًا من مسار التفاوض في قضايا موضع خلافٍ ونقاش.

ح. توفير خبراء للعمل في مراكز عُليا حسّاسة.

ط. لعب دور القناة الإعلاميّة للمسؤولين الكبار، عبر إرسال رسائل استباقيّة غير مباشرة.

ي. تشكيل الرأي العام عن طريق تقديم معرفةٍ موجّهة، تسهم في تحقيق سياساتٍ معيّنة[1].

ومــن خلال ملاحظة هذه الوظائف المتنوّعة، يمكن أن نخــرج بنتيجةٍ، مفادها أنّ مراكز البحث والتفكــير لا تكتفي بالتفكير، بل تفكّر بغرضٍ، فهي تســعى لصياغة البدائل في مختلف المســائل

١ - هزار إسماعيل: دور مراكز الأبحاث في عمليّة صنع القرار وإعداد السياسات العامّة، ص٣٤.

الخلافيّة وتسـويقها، ويكمن تأثيرها في قدرتها على تحويل المعطيات إلى توصياتٍ، يسهل تبنّيها مـن قِبَل صُنّاع القرار، وإقناع الجمهور بها. فعمل هذه المؤسّسـات لم يعد مقتصرًا على العلم، بل توسّـع إلى ربط البحث الأكاديميّ بالواقع السـياسيّ، وردم الهوّة بين النظريّ والعمليّ، من خلال تقديم أوراق تحليليّة، ورؤى اسـتراتيجيّة، وإنتاج الأفكار والتوصيات التي سوف يُعاد تدويرها في الإعلام من أجل تشكيل الوعي الجماهيريّ؛ فإنّ توليد الأفكار ومشاركتها يمكن أن يؤدّي إلى تغيير طريقة التفكير في قضايا رئيسـة ومصيريّة. ولذا، تأخذ هذه المراكز أدورًا مختلفة من البحث ونشر الإحصاءات، والدعوات إلى الحوار، وتقديم برامج تدريب، وإنتاج الكتب، والظهور عبر وسـائل الإعلام لإيصال رسائلها. ومن المفيد الإشارة هنا إلى أنّه وفقًا لتقرير State of the Sector: Insights from the Global Survey of Think Tanks لعام ٢٠٢٤، الصادر عن منصّة On Think Tanks، أفاد أكثر من ٧٠٪ من مراكز التفكير المشـاركة بأنّها أثّرت في نتائج السياسـات العامّة، وعمليّات اتّخـاذ القرار في بلدانها خلال السـنوات الثلاث الماضية[1]؛ ما يطرح علامات اسـتفهامٍ كبيرةٍ عن تحوّل هذه المؤسّسات تحت غطاءٍ علميٍّ إلى مجرّد أدواتٍ تخدم منظومة الهيمنة.

وحينـما يُعلم أنّ المنظومة الإعلاميّة، ومراكز التحليل والأبحاث لا تقدّم تحليلاتٍ مسـتقلّةً، بل تنتجهـا تحت غطاء العلم والخبرة، يصبـح من المحتّم القول إنّ المعرفـة الصادرة من هذه المؤسّسات لم تسلم من التحوّل إلى «معرفةٍ مسلّطة»...

٢ - إنتاج المعرفة وفق الأيديولوجيا

تواجه مراكز البحث والتفكير معضلة الاستقلاليّة فيما تقدّمه من معرفة. فإذا ما راجعنا بشكلٍ مختـصرٍ أنواع هذه المراكز، وجدناها إمّـا مراكز مرتبطة بالدول، أو مراكـز تموّلها جماعاتٌ أو جهاتٌ سياسـيّة، أو مراكز مستقلّةٌ نسـبيًا، وهذا ما يطرح بقوّةٍ هاجس التمويل الذي له ما له من تأثيرٍ على نتائج ومخرجات هذه المؤسّسـات، هذا مضافًا إلى التأثـير الضخم للعامل المتمثّل بالخلفيّات الأيديولوجيّة. وهنا يُقال إنّ مراكز الدراسات لا يمكن أن تنفصل، في بنيتها التمويليّة

1 - On Think Tanks. State of the Sector: Insights from the Global Survey of Think Tanks.

وخطابهـا المعرفيّ، عن المنظومة الأيديولوجيّة والسياسـيّة التي تخضع لهـا، خصوصًا عندما تدخل في شراكةٍ مع مؤسّسةٍ إعلاميّة، أو تستثمر في مشاريع سياسيّة. وفي الواقع، إنّ هذه المراكز البحثيّة، التي تتلبّس بلبوس العلم، تنتج معرفةً مسلّطةً ترتدي قناع الحياد، لإخفاء حقائق وصناعة وتزييف أخرى، وفق متطلّبات الجهات الداعمة وتوجّهاتها الأيديولوجيّة، مثل هذه المعرفة القابلة للمسـاومة، يمكنها أن تتلاعب بالأولويّات البحثيّة، واختيار العناوين، وجمع البيانات، وانتقاء العيّنات وطريقة القياس، وطرح التحليلات، وصياغة التوصيات، كما أنّ أخطر ما يمكن تقديمه، في هذا الإطار، هو تغليف الأيديولوجيا بغلافٍ علميٍّ مبنيٍّ على أدلّةٍ وبياناتٍ غير دقيقةٍ، لشرعنة الخيارات السياسيّة أو الاقتصاديّة أو سواها، ومن هنا يُرسم القالب الذي سوف تقدّم فيه الحقيقة المُعاد تشكيلها من خلال الإحصاءات والتحليلات والتوصيات العلميّة.

إنّ إدراك صنّاع القرار أنّ المعرفة عنصرٌ مهيمنٌ وجذّاب، دفعهم إلى تسخيرها للتوصّل إلى الهيمنة باستخدام سـلطان العلم الذي تقدّمه المؤسّسات البحثيّة، وهذه العلاقة الثلاثيّة التي كانت رماديّةً منذ سـنوات عدّة، باتت واضحة المعالم بين صنّاع القرار، الذيـن يقدّمون للمراكز أهدافًا محدّدةً، كيما يعملوا على تخريجها وفق ما تمليه المبادئ العلميّة والفكريّة، وتتبنّاها النخب الإعلاميّة على أنّهـا حقيقةٌ ناتجةٌ عن أبحاثٍ علميّةٍ ذات مصداقيّةٍ عالية، من خلال أدوات الإقناع المختلفة، التي تشـكّل الرأي العام والإذعان الجماهـيريّ. وفي حين تكوّن مراكز الدراسـات الأفكار والقرارات المأدلجـة، التـي يقدّمها باحثوها في مؤتمراتٍ ونـدواتٍ ودوراتٍ تدريبيّة، تعمل وسـائل الإعلام باعتبارهـا واجهاتٍ لعرض هذه الأفـكار، من خلال المقالات، وإجـراء المقابلات، وتقديمها في النشرات ومختلف البرامج. فالعلاقة بين وسـائل الإعلام التـي تعتمد على مراكز الأبحاث لتقديم معرفةٍ لا تخضع للمساءلة، ومراكز الأبحاث التي تعتمد على الإعلام لإيصال أفكارها ورؤاها، هذه العلاقة علاقةٌ تكامليّة. وبذا يمكن -بكلّ هدوءٍ- تقليل النقاش المضادّ إلى أدنى مسـتوى، وإضفاء المشروعيّة على الحروب، والعقوبات الاقتصاديّة، والتدخّلات السياسيّة، أو تمرير مشاريع القوانين وحشد التأييد لسياساتٍ معيّنة، وتوجيه مختلف الخيارات الاقتصاديّة والثقافيّة والاجتماعيّة... عبر فرض قوالب تفسيريّة معيّنة، وتضييق مساحة النقد أمام الرأي العامّ؛ لأنّ الجمهور غالبًا ما يثق بمثل هذه المراكز التي تتحدّث بلغة الأرقام والتحليل، لا بلغة الرأي والموقف؛ فيرى فيها سلطةً محايدةً

يطغـى على خطابها الطابع العلميّ، بما يمنحها حصانةً تصعّب مسـاءلتها. وحين تُحدّد أولويّات الجمهـور، وتُقدّم له الحقائق بلغة الأرقام التي لا تخطئ، ويُعاد تكرار المصطلحات المشـوِّهة للواقع، وتُهمّش الأصوات المخالفة، ويُسـتبعد التفكير النقديّ، وتُقدّم المعرفة المسـلّطة على شـكل دراسـاتٍ علميّةٍ مؤيَّدةٍ بتحليلاتٍ من قِبل من يُوثق بأنّهم أهل علمٍ وخبرة، خصوصًا في أوقات الأزمات المختلفة التي يحتاج فيها الناس للاطمئنان، ولأنّ جلّ الجمهور لا يمتلك الوقت الكافي، أو القدرة التي تسمح له بالبحث عن الحقائق الموضوعيّة، ونقد ما يجري عرضه عليه، ولأنّ أدوات الإقناع التي يستخدمها مثلّث السلطة، والإعلام، ومراكز الدراسات مدروسةٌ بعناية، فإنّ الأعمّ الأغلب تنطلي عليهم هذه الحقائق، وتأتي بالثمرة المرجوّة منها.

رابعًا: صناعة الحقيقة في حرب غزّة[1]

حرب غزّة ٢٠٢٣م هي مثالٌ نموذجيٌّ على "صناعة الحقيقة" عن طريق التنسـيق الكامل بين

١ - ملاحظـة: لجـأ هذا البحث في بعض تفاصيلـه إلى تقارير مراكز الأبحاث؛ والسـؤال: كيف نبرّر استخدام مخرجات مراكز الأبحاث لنقد دور مراكز الأبحاث؟
أمّا الإجابة فتكمن في مجموعة من النقاط:
لا يهـدف المنهج النقديّ إلى الرفض مطلقًا بـل إلى التفكيك المبنيّ على التحليل العلميّ؛ فلا يقول إنّ جميع المراكز غير نزيهة؛ بل إنّ بعضها، -خصوصًا المرتبط منها بالنخب السياسـيّة أو الاقتصاديّة أو الثقافيّة...-، يسهم في صياغة خطابٍ موجّهٍ يصبّ في مصالح بعينها.
يفـترض منهـج البحث النقـديّ إمكانيّةً نقد بنيـة النظام المعرفيّ مـن داخل النظام نفسـه. وعليه، يمكن اسـتخدام تقارير بعض المؤسّسـات وتحليلاتها، لنقد النسق الذي تعمل وفقه مؤسّساتٌ أخرى؛ حيث إنّ هنـاك بعض مراكز الأبحاث التي تدرس بنيـة مراكز الأبحاث الأخرى وأدوارها، كما اعتمد (أندرو ريتش-Andrew Owen Rich) في كتـاب Think Tanks and the Politics of Expertise عـلى الدراسـات الميدانيّة وتحليل التمويلات وخرائط التأثير. ثمّ إنّنا نجد داخل مراكز الأبحاث نفسـها أصواتًا نقديّةً تشير إلى ثغـراتٍ في التمويـل أو الضغـوط الخارجيّة أو التأثير؛ ممّا يكون شـاهدًا ذا قيمة كبـيرة. وفي الختام يجري اعتماد دراسـات مراكز الأبحاث والأكاديميّين المستقلّين، لا ما تنتجه مراكز المتّهمة بالتواطؤ، هذا مع مراعاة عدم التسـليم المطلق بالمصداقيّـة، بل بإخضاعها للنقد العلميّ. وعليه، فإنّ اسـتخدام بعض دراسـات مراكـز الأبحاث في نقد دور هـذه المراكز ليس نقضًا للمنهج العلميّ، بل هـو عمليّة نقدٍ بنيويٍّ تستخدم أدوات المنهج العلميّ نفسه، للتمييز بين المراكز المستقلّة، وتلك المتواطئة فيما تقدّمه.

الأقطاب الثلاثة؛ السلطة والنخب الإعلاميّة ومراكز الدراسات والتفكير، في عالمٍ لم تعُد فيه الضحيّة تُقتل بآلات القتل العسكريّة فحسب، بل يُخفى صوتها بالتضليل وحذف المحتوى، وتُشوّه صورتها من خلال فرض روايةٍ مزيّفة.

ففي سياق هذه الحرب، برزت بوضوح "الحقيقة الرسميّة" المزيّفة من خلال تعاونٍ وثيقٍ بين الحكومات والنخب الإعلاميّة الغربيّة والعربيّة، ومراكز الأبحاث المرتبطة بالمصالح الجيوسياسيّة، وفق المقولة المشهورة: "الصراع ليس فقط على الأرض، بل على السرد".

١ - نبذة عن حرب غزّة[١]

في ٧ أكتوبر ٢٠٢٣، نفّذت فصائل المقاومة الفلسطينيّة هجومًا على جنوب الكيان الإسرائيليّ الغاصب، عُرف بعمليّة «الأقصى تنتفض»، في سياق نزاعٍ ممتدٍّ منذ ١٩٤٨؛ حيث تُعتبر الأراضي الفلسطينيّة المُحتلَّة منذ نكبة ١٩٤٨ ونكسة ١٩٦٧، وفق تقارير الأمم المتّحدة، خاضعةً لاحتلالٍ عسكريٍّ إسرائيليّ مستمرّ. وقد أُعلن عن هذا الهجوم في إطار حقّ المقاومة المشروعة -كما هو منصوصٌ في القانون الدوليّ- ضدّ الاحتلال.

ردّت إسرائيل بحملة قصفٍ جويٍّ وبحريٍّ وبريٍّ مكثّفٍ على القطاع، وأتبعتها بعمليّةٍ برّيّةٍ واسعة.

ما زالت الحرب الإسرائيليّة قائمةً حتّى تاريخ كتابة هذه الكلمات، تاركةً ما يزيد على ٤٨ ألف شهيد[٢]، جلّهم من النساء والأطفال، مع تدمير أكثر من ٢٥٠ ألف وحدةٍ سكنيّة، و٢٩ مستشفى، و١٧٠٠ مدرسة، و٨٥٪ من البنى التحتيّة، مضافًا إلى انعدام الأمن الغذائيّ الحادّ بحيث طالت

---

١ - في الأزمات الإنسانيّة الكبرى يكون كلّ حيادٍ تواطؤ، يقول (إدوارد سعيد): "الكتابة عن الشرق الأوسط لا يمكن أن تكون محايدةً إذا كانت تتجاهل تجربة الشعب الفلسطينيّ، الحياد الحقيقيّ هو الوقوف مع المعرفة، لا مع القوّة".

٢ - آخر إعلان من وزارة الصحّة في غزّة، خلال مؤتمرٍ صحفيّ يوم ٤ آب ٢٠٢٥م، وقد أشارت تقديرات (OCHA) وWHO)) إلى أنّ نحو ٧٠٪ من الشهداء من النساء والأطفال.

المجاعة ٩٧٪ من سكّان القطاع[١].

وهنا تظهر الإشكاليّة الجوهريّة: كيف تناولت وسائل الإعلام الدوليّة ومراكز الأبحاث هذه الأحداث؟ وما هي الإطارات الخطابيّة التي استُخدمت لوصف الأطراف، وتقديم الأسباب، وتفسير الأضرار؟ فإنّ السرد اليوم يؤثّر من دون شكٍّ على السياسات الدوليّة، والرأي العام، وفهم العدالة والشرعيّة.

٢ - دور الإعلام في الحرب

أ. تصفية الأخبار والاختيار الانتقائيّ

يتجلّى في تغطية وسائل الإعلام للحرب على قطاع غزّة نمطٌ متكرّرٌ من التحيّز البنيويّ، يبدأ بإهمال السياق التاريخيّ للصراع الفلسطينيّ- الإسرائيليّ، فغياب الإشارة إلى نكبة ١٩٤٨، والاحتلال المستمرّ منذ ١٩٦٧، والحصار المفروض منذ ٢٠٠٧، يجعل الأحداث تُقدّم على أنّها معزولةٌ عن حلقة النزاع بين الجلّاد والضحيّة.

إلى جانب ذلك، تُلاحظ المفارقة الواضحة في تغطية الخسائر: ففي حين تُغطّى الخسائر الإسرائيليّة مع تفصيلٍ إنسانيّ -أسماء، وصور، وقصص شخصيّة- تُقدّم الخسائر الفلسطينيّة باعتبارها أرقامًا مجمّعة، غالبًا تحت وصف "أضرار جانبيّة" أو "ضحايا غير محدّدين". كما تُشكّك بعض وسائل الإعلام في مصداقيّة أرقام وزارة الصحّة في غزة.

ثمّ إنّه يُعتمد بشكلٍ شبه حصريٍّ على المصادر الإسرائيليّة، بينما تُقلّل وسائل الإعلام من مصداقيّة المصادر الفلسطينيّة أو المنظمات الحقوقيّة المستقلّة، حتّى التابعة منها للأمم المتّحدة.

وعلى صعيد وسائل التواصل الاجتماعيّ، جرى توثيق الحجب الواسع للمحتوى الفلسطينيّ تحت ذرائع "انتهاك سياسات المجتمع"، بينما يُسمح لنفس المصطلحات بالانتشار عند استخدامها ضد الفلسطينيّين[٢].

---

١ - هذه الأرقام مأخوذةٌ من تقريرات منظّمة الصحّة العالميّة ومنظّمة الأونروا.

2 - Amnesty International. Silenced: How social media platforms censor Palestinian voices.

ب. استخدام وسائل الإقناع

- صياغة الحرب ضمن إطار «المأساة المزدوجة» التي يُعطى فيها «الضحايا الإسرائيليّون» مركز الصدارة، بينما يُقدّم الفلسطينيّون بوصفهم «مصدرَ تهديدٍ»، وغالبًا بوصفهم «إرهابيّين» دون سياق مقاومة الاحتلال.
- استخدام المفردات المُلطَّفة لتقديم العنف الإسرائيليّ، مثل «عمليّة عسكريّة دقيقة»، أو «ردّ فعل»، أو «إجراءات أمنيّة»، بينما تُوصف المقاومة بـ«هجوم إرهابيّ»، كما يُوصف المدنيّون الفلسطينيّون بـ«أضرار جانبيّة».
- تكريس هذه السرديّة عبر تكرارٍ ممنهجٍ في الوسائل الإعلاميّة الكبرى، ما يُنتج «التوافق الإعلاميّ» الذي يُهمّش أيّ روايةٍ بديلة.
- استخدام تحليلات مراكز الأبحاث والتفكير لتبرير العمليّات العسكريّة، غالبًا من مراكز مرتبطة بسياساتٍ حكوميةٍ غربيّة، ما يُضفي شرعيّةً أكاديميّةً على خطاب القوّة.

٣ - دور مراكز الدراسات والأبحاث في الحرب

منذ بدء الحرب على غزّة حتّى اليوم، أصدرت مراكز الدراسات عشرات التقارير والتحليلات التي تصوّر الحرب على أنّها «ردٌّ دفاعيٌّ مشروع»، مع التركيز على «التهديد الإرهابيّ» لحركة حماس، مضافًا إلى التقليل من أعداد الضحايا وحجم الدمار، وتهميش انتهاكات حقوق الإنسان، يُذكر على سبيل المثال:

أ. نشر معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى WINEP دراساتٍ عدّة، وصف فيها المقاومة الفلسطينيّة حماس بأنّها "ذراعٌ لإيران" و"جزءٌ من شبكةٍ إرهابيّةٍ إقليميّة"، وأنّ الحرب ليست بين إسرائيل وفصيلٍ مسلّح، بل بين "العالم الحرّ والراديكاليّة الإسلاميّة"، وقد جرى تكرار هذه العبارات نفسها في كبريات الصحف الأميركيّة، مثل واشنطن بوست ونيويورك تايمز، واستُخدمت هذه التصنيفات لتبرير تسليح إسرائيل[1]. كما أنّ المعهد نفسه أصدر سلسلةً من التقارير ركّزت على حقّ إسرائيل

1 - Matthew Levitt, The Hamas–Iran relationship.

في الدفاع عن نفسها، مع توصيف المقاومة الفلسطينيّة بأنّها «فاعل غير عقلانيّ»، و«تهديد وجوديّ»، وقد قامت المؤسّسات الإعلاميّة مثل واشنطن بوست وCNN بتكرار المصطلحات نفسها اعتمادًا على توصيات الباحثين[١].

ب. بعد القصف الإسرائيليّ لمستشفى المعمدانيّ في غزّة[٢]، تبنّت وسائل الإعلام الغربيّة مثل BBC ونيويورك تايمز الرواية الإسرائيليّة بالاستناد إلى تصريحات الخبراء والمراكز المعنيّة. وقد أظهر تحقيقٌ أجرته قناة Channel4 لاحقًا أنّ التحليلات اعتمدت على تفسيراتٍ انتقائيّةٍ للأدلّة المرئيّة، وأنّ بعض الخبراء المُستشارين كانوا غير محايدين[٣].

ج. على الرغم من كون معهد راند (RAND Corporation) بعيدًا في الظاهر عن الصراع الميدانيّ، لكنّه أنتج سلسلةً من التقارير منذ نهاية ٢٠٢٣م تناول فيها "إعادة إعمار غزّة" و"الحكم بعد حماس"، ما يعني إهمال توثيق جرائم الحرب الجارية، وتجهيز سرديّة ما بعد تدمير غزّة، وهذا التخطيط لما بعد الصراع يُعدّ وسيلةً لتطبيع الدمار[٤].

د. نشر مركز Heritage Foundation، سلسلةً من المقالات بعد ٧ أكتوبر ٢٠٢٣، معتبرًا أنّ الدعوات لوقف إطلاق النار ليست إنسانيّة، بل تمثّل انتصارًا استراتيجيًّا لحماس، وحذّر من أنّ المظاهرات المؤيّدة للفلسطينيّين تُهدّد التحالف الاستراتيجيّ مع إسرائيل. وقد جرى تداول هذه الأفكار على نطاقٍ واسعٍ في وسائل الإعلام،

---

1 - Ido Levy, How Hamas built an army.

٢ - في ١٧ أكتوبر ٢٠٢٣م، وقع انفجارٌ ضخم في محيط مستشفى المعمدانيّ أدّى إلى استشهاد أكثر من ٥٠٠ فلسطينيّ، وفي تغطيتها الأوّلية قالت الـ BBC إنّ الصاروخ أُطلق من داخل غزّة معتمدةً على تحليلات الجيش الإسرائيليّ، وشركة تحليلٍ فضائيٍّ Planet Labs، وخبراء من معهد "الحرب الحديثة" Institute for the Study of War، ومحلّلين من تحليلات الدفاع Defense Intelligence. أمّا نيويورك تايمز فبالاستناد إلى تحليلاتٍ من شركة Maxar Technologies، وخبراء من Middle East Eye وتحليلاتٍ عسكريّةٍ أميركيّة، خرجت بالنتيجة نفسها.

3 - Channel 4 News, Human rights investigators raise new questions on Gaza hospital explosion.

4 - RAND Corporation, Reconstructing Gaza: A Framework for a Sustainable and Secure Post-Conflict Gaza.

RAND Corporation, Governing Gaza After Hamas: Options for International Administration.

التـي عدّت النقد الإنسـانيّ للحرب على غـزّة غير واقعيٍّ، ومتواطئًـا مع الإرهاب، وذلك لتحويل النقاش حول الإبادة إلى نقاشٍ حول الولاء والأمن[1]. وقد استُخدمت تقارير مراكـز الأبحاث لنفي تهمة الإبادة الجماعيّـة، أو لتقليلها إلى «أضرار جانبيّة في سـياق مكافحة الإرهاب»، كما فعل المسـؤولون الأميركيّون في مجلس الأمن، اعتمادًا على تقارير مراكز مثل Brookings Institution، أو Center for Strategic and International Studies.

سـاهمت مثل هذه التقارير والتحليلات في إضعاف التعاطف العالميّ مع الضحايا المدنيّين مـن خلال تصوير الحرب على أنّها حربٌ على الإرهـاب، وفي خلق إجماعٍ داخل المجتمعات الغربيّة يبرّر السياسات الإسرائيليّة.

٤ - مقاومة صناعة الحقيقة

على الرغم مـن هيمنة هذا الرواية وخلفيّتها السـلطويّة، لكنّ هناك مسـاحةً لمقاومة صناعة الحقيقة المزيّفة بقيت حاضرةً لتنقل صورة الواقع كما هو.

فقد حاول الصحفيّون والمراسلون الفلسطينيّون نقل صور المعاناة الإنسانيّة والدمار باستخدام وسـائل التواصل الاجتماعيّ منبرًا بديلًا، رغم الحجب الواسـع لحسـاباتهم، وذلك في مقابل الحسابات المروِّجة للعنف ضد الفلسطينيّين التي بقيت دون رقابةٍ فعّالة.

وجهـد عددٌ كبير من الأكاديميّين والمفكّرين والناشـطين في كشـف التحيّزات المعرفيّة في التغطية الإعلاميّة، وفضح التزييـف المتعمّد للوقائع. وفي أكتوبر ٢٠٢٣، وقّع أكثر من ١٥٠٠ أكاديميّ من جامعاتٍ حول العالم على بيانٍ دوليّ يدعو إلى وقف بيع الأسلحة لإسرائيل، ويُدين الصمت الدوليّ تجاه جرائم الحرب[2].

كما انتشرت الحركات الطلابيّـة في الجامعات الأمريكيّة والأوروبيّة، مطالبةً بقطع العلاقات

1 - The Heritage Foundation, Why Calls for a Ceasefire Play into Hamas's Hands.
The Heritage Foundation, The Danger of Anti-Israel Sentiment in America.

2 - Committee to Protect Journalists (CPJ). Censorship of Palestinian voices on social media.

الأكاديميّة مع الجامعات الإسرائيليّة المتورّطة في البحث العسكريّ، وفضح التمويل الأكاديميّ المرتبط بصناعات الدفاع، ودعت إلى التحقيق في تمويل مراكز الأبحاث من شركات الأسلحة.

ثمّ إنّ مراكز الأبحاث المستقلّة لعبت دورًا لافتًا في تقديم رؤى نقديّة وتحليلاتٍ واقعيّة، مثل: Al-Shabaka، وMIFTAH (Palestine Center for Policy Research)، وForensic Architecture، التي قدّمت تحقيقاتٍ دقيقةً باستخدام الصور الجويّة، والبيانات، والشهادات، لكشف جرائم الحرب وتفنيد الروايات الرسميّة.

وأخيرًا، استُخدمت أدوات التحقّق الرقميّ والذكاء الاصطناعيّ لكشف التزييف، على سبيل المثال، أظهر تحليلٌ أجراه Bellingcat أنّ بعض المواقع التي ادّعى الجيش الإسرائيليّ أنّها "مقرّات عسكريّة لحماس"، كانت في الحقيقة مدارس ومراكز إغاثة فارغة. كما استُخدمت تقنيات تحليل الفيديو لتحديد مصدر القصف، ونفي الرواية الإسرائيليّة عن قصف مستشفى المعمداني[1].

٥ - المعرفة الحرّة والمعرفة المسلّطة في حرب غزّة

يتجلّى التباين بين هذين النوعين من المعرفة -الحرّة والمسلّطة-، بوضوحٍ في سياق حرب غزّة؛ حيث تقدّم دولة الاحتلال ووسائل الإعلام التابعة لها ومراكز الدراسات المرتبطة بأيديولوجيّتها سرديّةً تصف الحرب بأنّها «دفاعٌ مشروعٌ ضدّ تهديدٍ إرهابيّ»، هذه السرديّة تعيد تشكيل الواقع عبر لغةٍ تزيّف المصطلحات وتستخدم أكثرها تحريكًا للخوف: «تهديد وجوديّ»، و«إرهاب»، و«الحرب على الإرهاب».

في هذا السياق، يتحوّل الفلسطينيّ من ضحيةٍ للاحتلال والتطهير العرقيّ إلى "رمزٍ للشر"، بينما يُقدَّم المعتدي باعتباره ضحيّة.

في المقابل، تسعى المعرفة الحرّة إلى البقاء حيّةً من خلال كشف الحقيقة من دون أقنعة، فيجاهد الصحفيّون الفلسطينيّون، والباحثون الأكاديميّون، والناشطون المستقلّون، لتقديم الرواية

1 - Bellingcat. Gaza: Debunking Israeli military claims.

الحقيقيّة باستخدام الوقائع والمصطلحات الدقيقة: "مجازر"، و"إبادة جماعيّة"، و"تجويع"، و"مقاومة ضدّ الاحتلال"، ولا تعبرّ فقط عن الواقع الميدانيّ، بل عن المقاومة المعرفيّة التي تعيد صورة الشعب الفلسطينيّ بوصفه ضحيّةً للهيمنة العالميّة.

خاتمة

وسط زخمٍ هائلٍ من التطوّر الإعلاميّ غير المسبوق، وفي عالمٍ أصبحت فيه الكلمة تطوي المسافات الطويلة في ثوانٍ لتصل إلى أسماع جميع البشر على امتداد الأرض، كي يكون كلّ واحدٍ منهم متلقيًا للمعرفة التي يقصر عن الوصول إليها بنفسه، لم تعد الحقيقة مجرّد إبرازٍ للواقع، بل صورةٌ يجري تشكيلها وعرضها على المتلقّين من خلال تفاعلٍ واسعٍ بين النخب الإعلاميّة، ومراكز الأبحاث عبر أدوات العلم، كالتحليلات الإحصائيّة وتقنيّات الإقناع؛ بحيث يصبح المكوّن المعرفيّ المقدّم أداةً فعّالةً في ضبط الوعي وقولبة الأفكار؛ وذلك لأنّ الصراع على الحقيقة هو في جوهره صراعٌ على السلطة.

ولكي نتحرّر من الأوهام التي تزرعها القوى المهيمنة، نحتاج إلى مصادر معرفيّةٍ مستقلّةٍ تتحدّى الرواية الرسميّة، ففي مقابل المعرفة المسلّطة تبرز الحاجة ملحّةً إلى صوت المعرفة الحرّة، من خلال دعم مراكز الأبحاث المستقلّة ذات المصداقيّة العالية، وتعزيز الإعلام المستقلّ، وتمكين الجمهور من مهارات النقد وتفكيك المعرفة المسلّطة والاستفادة الذكيّة من التكنولوجيا.

المصادر والمراجع

- حسين مزهر خلف: مراكز البحث والتفكير الأمريكيّة ودورها في صنع القرار السياسيّ الخارجيّ- بروكينغز وكارنيغي أنموذجًا، مجلّة قضايا سياسيّة، العدد٧٩، ٢٠٢٤م.
- سعاد عبيدي: وسائل الإعلام واستراتيجيّات الإقناع والهيمنة الثقافيّة، مجلّة الباحث في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، العدد الثاني، المجلّد ١٤، ٢٠٢٢.
- صالح خليل أبو إصبع: الاتّصال والإعلام في المجتمعات المعاصرة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، ط٥، ٢٠٠٦م.
- نعوم تشومسكي: السيطرة على الإعلام: الإنجازات المذهلة للدعاية، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٢م.
- نعوم تشومسكي: الإعلام وصناعة الموافقة، ترجمة محمّد أحمد حسن، نسخة إلكترونيّة، مكتبة نور، https://www.noor-book.com
- هزار إسماعيل: دور مراكز الأبحاث في عمليّة صنع القرار وإعداد السياسات العامّة، مجلّة السياسة العالميّة، المجلّد٥، العدد٣، ٢٠٢١م.
- Andrew Rich, (2005). Think Tanks, Public Policy, and the Politics of Expertise. Cambridge: Cambridge University Press. https://doi.org/10.1017/CBO9780511614381
- Antonio Gramsci: Prison Notebooks (trans. Joseph A. Buttigieg). Columbia University Press, 1992–1996 (3 vols).
- Ido Levy, (2024). How Hamas built an army. The Washington Institute for Near East Policy. https://www.washingtoninstitute.org/policy-analysis/how-hamas-built-army
- Matthew Levitt, (2023, November). The Hamas–Iran relationship. The

Washington Institute for Near East Policy. https://www.washingtoninstitute.org/policy-analysis/hamas-iran-relationship

- Michel Foucault, (2002). The Archaeology of Knowledge. London: Routledge. (Original work published 1969).
- Raewyn Connell, (2007). Southern Theory: The Global Dynamics of Knowledge in Social Science. Cambridge: Polity Press.
- Oxford Dictionaries. (2016). "Word of the Year 2016: Post-Truth". https://languages.oup.com/word-of-the-year/2016/?spm=a2ty_o01.29997173.0.0.151b5171yspPiA
- Oxford University Careers Service. Think Tanks. https://www.careers.ox.ac.uk/think-tanks
- Amnesty International. (2024). Silenced: How social media platforms censor Palestinian voices. https://www.amnesty.org/en/documents/mde152024/7798//en
- Bellingcat. (2023). Gaza: Debunking Israeli military claims. https://www.bellingcat.com/news/middle-east/202303/11//israeli-airstrike-on-al-ahli-hospital-in-gaza
- Channel 4 News, Human rights investigators raise new questions on Gaza hospital explosion. https://www.channel4.com/news/human-rights-investigators-raise-new-questions-on-gaza-hospital-explosion
- Committee to Protect Journalists (CPJ). (2023). Censorship of Palestinian voices on social media. https://cpj.org/reports/202311//gaza-palestinian-social-media-censorship/
- The Heritage Foundation. (2023). The Danger of Anti-Israel Sentiment in

America. November 8, 2023. https://www.heritage.org/israel/report/the-danger-anti-israel-sentiment-america

- The Heritage Foundation. (2023). Why Calls for a Ceasefire Play into Hamas's Hands. October 12, 2023. https://www.heritage.org/middle-east/report/why-calls-ceasefire-play-hamas's-hands
- RAND Corporation. (2024). Reconstructing Gaza: A Framework for a Sustainable and Secure Post-Conflict Gaza (RR-A20241-). Santa Monica, CA: RAND. https://www.rand.org/pubs/research_reports/RRA20241-.html
- RAND Corporation. (2024). Governing Gaza After Hamas: Options for International Administration. https://www.rand.org/pubs/perspectives/PEA20241-.html
- On Think Tanks. (2024). State of the Sector: Insights from the Global Survey of Think Tanks. https://www.onthinktanks.org/articles/state-of-the-sector-2024

Mind Consciousness Wars: Western Think Tanks, Strategic Tools of Hegemony

■ Mr. Mohammad Baqir Karki[1]

Abstract

This research analytically examines the role of Western think tanks in the structure of contemporary hegemony, highlighting how they have transitioned from academic research institutions to strategic tools for producing directed knowledge and formulating narratives that influence international politics.
It demonstrates that these centers operate within a complex network where politics, economics, media, and finance intersect, giving them an effective ability to redefine problems and formulate solutions that serve the interests of dominant powers. It also focuses on how they employ concepts such as "failed state" and "moderate Islam" in sensitive regional contexts, such as Iraq, Lebanon, Syria, and Iran, making them partners in producing legitimacy for interventionist policies.
The research reviews models of prominent institutions such as RAND, Brookings, and WINEP, revealing the nature of their structural bias, their role in rotating elites, and their influence on media discourse.
It draws on internal Western critical readings (Chomsky, Foucault) to highlight the dimensions of these centers' cognitive complicity with power.
The research concludes the necessity of building local cognitive alternatives capable of resisting soft cognitive colonialism and formulating narratives that reflect societies' priorities and autonomy.

Keywords:

Think Tanks, Soft Hegemony, Cognitive Warfare, Strategic Narratives, Conditional Financing, Decision-Making, Cognitive Resistance.

1 -Researcher in philosophy and political communication (Lebanon).

العقلُ المُدبِّر لحروب الوعي: مراكزُ التفكير الغربيَّة والأذرع الاستراتيجيَّة للهيمنة

■ محمد باقر كركي[1]

ملخّص

يتناول هذا البحث بالدراسة التحليليَّة دور مراكز التفكير الغربيَّة في بنية الهيمنة المعاصرة، مبرزًا كيف انتقلت من مؤسسات بحثيَّة أكاديميَّة إلى أدوات استراتيجيَّة، لإنتاج المعرفة الموجّهة، وصياغة السرديَّات المؤثّرة في السياسات الدوليَّة. يوضّح البحث أنَّ هذه المراكز تعمل ضمن شبكة معقّدة، تتقاطع فيها السياسة والاقتصاد والإعلام والتمويل، ما يمنحها قدرة فاعلة على إعادة تعريف المشكلات، وصياغة الحلول، بما يخدم مصالح القوى المُهيمنة. كما يركّز على كيفيَّة توظيفها لمفاهيم، مثل «الدولة الفاشلة» و«الإسلام المعتدل»، في سياقات إقليميَّة حسَّاسة، كالعراق، ولبنان، وسوريا، وإيران، الأمر الذي يجعلها شريكًا في إنتاج الشرعيَّة للسياسات التدخليَّة. ويستعرض البحث نماذج لمؤسَّسات بارزة كـ (RAND) و(Brookings) و(WINEP)، كاشفًا طبيعة انحيازها البنيويّ، ودورها في تدوير النخب، والتأثير في الخطاب الإعلاميّ. ويستند إلى قراءات نقديَّة غربيَّة داخليَّة (تشومسكي، فوكو)، لإبراز أبعاد التواطؤ المعرفيّ لهذه المراكز مع السلطة. ويخلص البحث إلى ضرورة بناء بدائل معرفيَّة محليَّة قادرة على مقاومة الاستعمار المعرفيّ الناعم، وصياغة سرديَّات تعكس أولويَّات المجتمعات واستقلاليَّتها.

الكلمات المفتاحية: مراكز التفكير، الهيمنة الناعمة، الحرب الإدراكيَّة، السرديَّات الاستراتيجيَّة، التمويل المشروط، صناعة القرار، المقاومة المعرفيَّة.

---

١ - باحث في الفلسفة والاتصال السياسي.

مقدِّمة

حين تُبنى الجيوش وتُرصّ الصفوف، قد لا يكون العدوّ مرئيًّا على خطّ التماس. فثَمَّة معارك تُخاض في الظلّ، وأسلحة لا تُدوّي، وخرائط لا تظهر على الشاشات. في هذا الحيّز الرماديّ من الصراع العالميّ، تتقدّم «مراكز التفكير» باعتبارها أذرع استراتيجيَّة متقدِّمة، تتسلَّل إلى الوعي الجمعيّ، وتصوغ الرأي العام، وتعيد تشكيل تصوّرات العالم عن ذاته والآخر.

لقد شهدت العقود الثلاثة الأخيرة تحوّلاً نوعيًّا في مفهوم الهيمنة، لم يعد فيه السلاح الصلب هو الأداة الوحيدة لتثبيت النفوذ، بل أضحت السيطرة على المعاني والرمزيَّات، وتوجيه الفهم الجمعيّ، وصناعة الخطاب، أدوات لا تقلّ فاعليَّة عن الرشّاش والطائرة. لقد أدركت القوى الكبرى أنَّ "الحقيقة" يمكن "تصنيعها" وفرضُها؛ تمامًا كما جرى تصنيع الحدود بين المجتمعات والدّول.

يجري تقديم مراكز التفكير في المُخيِّلة العالميَّة، وفي المجالات السياسيَّة والاجتماعيَّة والدوليَّة بصفتها مؤسَّسات بحثيَّة مستقلَّة، تُعنى بإنتاج المعرفة، وتحليل الظواهر، وتقديم المشورة لصنّاع القرار. لكنّ التّعمّق قليلاً تحت السطح، والنظر في بنيتها الداخليَّة، وشبكات تمويلها، وخطابها العامّ، يكشف عن طبيعة أكثر تعقيدًا وديناميكيَّة: إنّها تتجاوز حدود كونها مراكز بحث أكاديميَّة، تسعى للوصول إلى نتائجها بمعزل عن أيّ تحيّز، وإنّما -في حقيقة الأمر- هي مصانع لتوليد السرديَّات الاستراتيجيَّة، تُنظّم فيها المفاهيم، وتُصاغ فيها الرؤى، وفق مصالح سياسيَّة واقتصاديَّة وثقافيَّة مدروسة. ولا بدّ من النظر إليها انطلاقًا من طموحاتها ووظائفها التي أسّست من أجلها؛ وهو أنّها تعمل على المعرفة والمعلومات من موقع "المشاركة" في إنتاج السلطة وتوجيهها؛ كونها، في أغلب الأحيان، مموّلة من قبل أجهزة رسميَّة، أو مرتبطة بشبكات

مصالح كبرى، أو مدعومة من جماعات ضغط (لوبيّات)، لها أهداف جيو-سياسيَّة محدّدة. لذا، فـإنّ الأوراق البحثيَّة الصـادرة عنها، وإن بدت محايدة في ظاهرها، فإنّهـا غالبًا ما تخدم سرديَّة مركزيَّة، تُعيد إنتاج صورة الآخر المسـتهدَف، وتخدم بوصفها مبرّرًا ودافعًا نحو أشكال متعدّدة من التدخّل الناعم أو الخشن.

في العقدين الماضيين، شـاع اسـتخدام مفاهيم محدّدة، وبشـكل خاصّ في الفضاء العربيّ والإسلاميّ، لا سيّما في الملفَّات الحسَّاسة والمعقّدة في العراق، ولبنان، وسوريا، وإيران، مثل "الدولة الفاشلة"، و"الإسلام المعتدل"، و"الإرهاب الشيعي"، و"التحوّل الديمقراطي الموجّه"، و"الإعـمار المشروط" ـ لم تكن هـذه المفاهيم من ابتـكار الإعلام ولا نتاج العمل السـياسيّ المباشر، بل نشـأت في مراكز مثل "راند" (RAND)، و"بروكينجز" (Brookings)، و"تشـاتام هاوس" (Chatham House)، و"معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى" (WINEP)، ثمّ جرى تسـويقها في الصحافة الغربيَّة، واعتمادها مرجعًا في السياسـات الخارجيَّة، والاستناد إليها في قرارات العقوبات والدعم والضغط والتصنيف.

إنّ حضور هذه المراكز في إنتاج "الرؤية المهيمنة عن العالم" لا يقتصر على التأثير في الداخل الغربيّ، بل يتعدّاه إلى تشـكيل بيئات الاسـتجابة في الخارج، أي في المجتمعات المسـتهدفة بالتدخّل أو التغيير. وهنا تتحـوّل مراكز التفكير إلى أدوات تأثير مزدوج: من جهة تُغذّي صناعة القرار في المركز، ومن جهة أخرى تُمهّد الأرض نفسيًّا وثقافيًّا لقبول هذا القرار من قبل الأطراف. وبهـذا، تأخذ هـذه المراكز دورهـا الأعمق والأخطـر، وتتحوّل مـن مجـرّد "أدوات تحليل"، إلى "أدوات هيمنة ناعمة". يشـير باحثون غربيّون بوضوح إلى أنّ هذه المراكز تشكّل أوّل حلقة في سلسلة النفوذ الغربيّ الناعم؛ إذ تكتب الخطاب الذي يُشرعن التدخّل باسم المصلحة الدوليَّة، الأمر الذي يخرجها من حقل الاختصاصات الأكاديميَّة، وتدخل في عمق صراع القوة والشرعيَّة والهيمنة، بوصفها فاعلاً رمزيًا واستراتيجيًا في آنٍ معًا.

انطلاقًا مما تقـدّم، يتّخذ هذا البحث لنفسـه زاوية تحليليَّة نقديَّة، تسـعى إلى تفكيك الدور الهيمنيّ لهذه المؤسّسـات، من خلال مسـاءلة بنيتها المعرفيَّة والسياسيَّة، ونمط تمثيلها لذاتها، وطبيعة الخطاب الذي تُنتجه، والشبكات التي تمكّنها. وهو لا يكتفي بذلك، بل يحاول مساءلة

هذه البنية من داخل المنظومة الغربيَّة نفسها، اعتمادًا على قراءات نقديَّة أوروبيَّة وأمريكيَّة تكشف تناقضات هذه المؤسسات مع مبادئ الحياد والموضوعيَّة التي تدّعيها.

ثمّ يحاول هذا البحث فتح نافذة مقارنة بين مراكز التفكير الإقليميَّة، التي تتوزّع بين نموذجين: نمـوذج أوّل "مدمج" بالكامل في المنظومة الغربيَّة، ونموذج ثانٍ يسـعى إلى بناء خطاب مقاوم نسبيًّا، وإن تفاوتت من حيث الاستقلال والتأثير. في الوقت نفسه، يستنكف البحث عن الدخول في المفاضلة السـاذجة بين النماذج، ليركّـز أكثر على فهم موقع كلّ منهـا في الصراع المعرفي المعاصر؛ حيث تحوّل "إنتاج المعرفة" إلى سـاحة مواجهة اسـتراتيجيَّة، لا تقلّ حساسـيَّة عن ساحات الحرب والدبلوماسيَّة.

إن قراءة مراكز التفكير بصفتها أدوات "هندسة للوعي"، لا مجرّد منصات للبحث، تُعيد طرح سؤال جوهري: من يصوغ المعنى؟ ومن يتحكّم في السرديَّة؟ ومن يملك سلطة التأويل في زمنٍ أصبح فيه الخطاب هو الميدان، والمعلومة هي السلاح، والمعرفة هي الجبهة الأماميَّة للصراع؟

أوّلًا: مراكز التفكير بين المفهوم والوظيفة

لطالما أثارت مقولة «الحياد المعرفيّ» مخيّلة المثاليّين في نظرتهم إلى العمل البحثيّ على وجه العموم. لكنّ حسـابات الواقع خالفت حسابات الحالمين؛ إذ تحوّلت في العقود الأخيرة مراكز التفكير (Think Tanks) مـن الصورة البريئة التي تُصوّرها بصفتها "معاملَ أفكار" محايدة، إلى كونها فاعلاً سياسيًّا ومعرفيًّا مركزيًّا في بنية صنع القرار، سواء في الأنظمة الديمقراطيَّة أم السلطويَّة، وفي البيئات الوطنيَّة أو العابرة للحدود. وكما يوضّح (دونالد أبِلسُـن-Donald Abelson)، فإنّ "السـؤال لم يعد يتمحور حول ما إذا كانت هذه المراكز تؤثّر [بالفعل]، بل [أصبح عن] الكيفيَّة التي تمارس بها هذا التأثير، ومـن يتبنّى أفكارها، ولأيّ غرض"[1]. هذه الملاحظة تكثّف إدراكًا جوهريًّا: التأثير ليس عمليَّةً محايدةً، بل نتاجَ تفاعلٍ معقّد بين البنية التنظيميَّة للمراكز، وشبكات، التمويل والسياسة، والإعلام.

1 Donald Abelson: Think Tanks, Public Policy, and the Politics of Expertise, p25.

١. الحقول المتقاطعة والفاعليَّة الهجينة

قبل أيِّ أمر، لا بدّ من الخروج من فكرة، مُفادها أنّ المراكز المذكورة تقدّم المشورة الموضوعيَّة، وأنْ يجري النظر إليها على أنّها «آلة إنتاج» تقدّم المنتَج المطلوب بالجودة المطلوبة، التي يرضى عنها صاحب العمل قبل أيّ شيء آخر. يقدّم (توماس ميدفيتز-Thomas Medvetz) إطارًا لفهم طبيعة مراكز التفكير، باعتبارها "نقاطَ تقاطعٍ بين أربعة حقول: الأكاديمي، والسياسي، والاقتصادي، والإعلامي"[1]. أما الخاصّيَّة التي تمنحها تلك القدرة على التأثير، فهي مرونتها في التنقّل بين هذه الحقول، واستثمار الشرعيّات المختلفة التي توفّرها؛ إذ يمكن للتقرير أنْ يبدأ نصًّا أكاديميًّا متقيّدًا بالمنهجيَّة، لكنّه في نهاية المطاف سيتحوّل إلى موجز سياسيّ موجّه لصنّاع القرار، ويُعاد إنتاجه مرّة إضافيَّة باعتباره مادّةً إعلاميَّة تبسّط الأفكار للجمهور، أو حتى أداة ضغط وورقة إدانة ظرفيَّة في مداولات برلمانيَّة. هذا التداخل الوظيفي يمنح المراكز موقع الوسيط بين المعرفة والسلطة، مع القدرة على إعادة إنتاج الفكرة نفسها بصيغ متعدّدة تخدم سياقات مختلفة. مثال ذلك، مجلس العلاقات الخارجيَّة في الولايات المتحدّة، الذي يصدر تقارير بحثيَّة معمّقة، لكنّها غالبًا تُختصر في رسائل استراتيجيَّة موجَّهة إلى المسؤولين، أو تُقدَّم في صيغة إعلاميَّة، بحيث تصل الرسالة ذاتها إلى جمهورين مختلفين بأسلوبين متباينين.

٢. شبكات القرار وتمويل الأفكار

من الأفكار السائدة -أيضًا- عن هذه المراكز، هو أنّها مؤسّسات تسعى للرقابة على العمل الحكوميّ، والنقابيّ، والسياسيّ، والحقوقيّ في نطاق ما، وتقدّم أنشطتها على شكل دور إشرافيّ يسعى -ببراءة غريبة- إلى رفع مستوى العمل لدى الجهة التي تُشرِف عليها أو تتعامل معها. لكنّ العلاقة بين هذه المراكز والكيانات، التي ترتبط بها، هي بعيدة كل البُعد عن هذا التوصيف؛ إذ تؤكّد (ديان ستون-Diane Stone) أنّ مراكز التفكير في الغرب "ليست مؤسّسات مراقبة مستقلّة، بل عقدًا داخلَ شبكات إنتاج القرار"[2]. هذا الارتباط لا يقتصر على السياقات السياسيَّة، بل

1 - Thomas Medvetz: Think Tanks in America, p60.

2 - Diane Stone: Capturing the Political Imagination: Think Tanks and the Policy Process, p110.

يشمل التمويل أيضًا؛ حيث تحدّد علاقات المراكز مع الحكومات، أو الشركات، أو المؤسّسات المانحــة أولويَّاتها البحثيَّة، وأحيانًا صياغة المخرجات ذاتها. ويضيف (أندرو ريتش- Andrew Rich) أنّ "أحد أهمّ أشــكال التأثير يكمــن في وضع مخطَّطات النقاش العام، عبر تحديد كيفيَّة تعريف المشــكلة قبل حتى مناقشــة الحلول"[1]. إنّ تأطير المشكلة بشــكل مسبق، يعني إقفال الأبواب الموضوعيَّة والمنهجيَّة أمام التفكير خارج إطار محدّد مســبقًا، فيجري القيام بالأعمال المعرفيَّة، لأجل خدمة هدف موضوع مســبقًا، لا يمكن الحياد عنــه، أو تقويمه، أو القول بعدم صلاحيّته مثلاً.

إنّ من البديهيّ اليوم، لدى الباحث المتفطّن والدقيق، اعتقاده الصارم بأنّ التمويل المشروط قد يغيّر اتجاه البحث. وقد تكون هذه المراكز أحد أبرز الأدلّة الواقعيَّة على هذا الأمر؛ ففي دراسة عن "ســوق الأفكار" في الولايات المتحدّة، تبيّن أنّ المراكــز التي تعتمد على مموّلين من قطاع الطاقة نادرًا ما تتبنّى مواقف معارضة لمشــاريع الوقود الأحفــوريّ، حتى في ظلّ وضوح الأدلّة العلميَّة على أضرارها[2].

٣. نوافذ السياسات واستراتيجيَّة الحلول الجاهزة

في تحليلــه لعمليَّة صنــع القرار، يطرح (جــون كينجــدون-John Kingdon) فكــرة "نوافذ السياســات" التي تُفتح حين تتقاطع ثلاثة مسارات: المشكلات، والحلول، والسياسة. وتتحوّل الأفكار مســبقة التحضير إلى واقعٍ جاهزٍ للتبنّي العمليّ، حينها "تصبح الأفكار سياســات حين تلتقــي هذه التيّارات في لحظــة مؤاتية"[3]. ولأجل ذلك، تحافظ مراكــز التفكير على رصيد من "الحلــول الجاهــزة" في انتظار هذه اللحظــة. ويضيف (دانيال دريزنــر- Daniel Drezner) أنّ "السوق لا يكافئ دائمًا الفكرة الأكثر دقّة أو علميَّة، بل الفكرة الأكثر قابليَّة للتسويق السياسيّ"[4].

1 - Andrew Rich: Think Tanks, Public Policy, and the Politics of Expertise, p45.
2 - Eric Conway, and Naomi Oreskes: Merchants of Doubt, p172.
3 - John Kingdon: Agendas, Alternatives, and Public Policies, p65.
4 - Daniel Drezner: Ideas and Foreign Policy: Beliefs, Institutions, and Political Change, p30.

يتّضح ذلك في مجالات الأمن القوميّ؛ حيث تضع بعض المراكز خططًا مسبقة للتعامل مع تهديدات مفترضة، وعندما تقع أزمة -سواء هجوم أم انهيار اقتصاديّ- تُطرح هذه الخطط بسرعة على طاولة القرار، مدعومة بتغطية إعلاميَّة تسهّل تبنّيها.

٤. الاقتصاد السياسيّ لزراعة الشكّ

لا يمكن للنّشطاء المحلّيين في أيّ بلد من البلدان التي تستهدفها قوى الهيمنة، أنْ يعملوا وفق معطيات لا تمتلك شيئًا من الصدقيَّة، وتكون السرديَّة ممزوجة بشيء من الحقيقة، لأجل ذلك، تصبح مراكز التفكير العالميَّة مصدرًا رئيسًا لهم، ليتمكّنوا من الاستناد إلى معلومات تبدو في ظاهرها نظيفة وصحيحة، ويمكنها أن تشكّل أرضيَّة صالحة للهجوم، أو الدفاع، أو التشكيك السياسيّ. فضلاً عن تشغيل هؤلاء النشطاء والسياسيين وطبقة من الأكاديميين في حلقات متصلة بهذه المراكز، ما يعطي هذه الشخصيّات ظاهرًا رزينًا، ووزنًا سياسيًّا معتبرًا لدى الجمهور والنخب.

في كتابهما "تجّار الشكّ"، تكشف (نعومي أوريزكس-Naomi Oreskes) و(إريك كونواي-Eric Conway) أنّ بعض مراكز التفكير "تتلقّى تمويلاً من أطراف لها مصلحة في خلق الشكوك عن الإجماع"[1]. وهذه الاستراتيجيَّة التي تهدف إلى زرع الشكّ ضمن أيَّة دائرة مطلوبة، لا تقتصر على قضايا هامشيَّة أو حقوقيَّة محلّيَّة، وإنّما تمتد إلى السياسة الدوليَّة؛ حيث يمكن تغليف مخطّطات أمنيَّة أو اقتصاديَّة بسرديّات عن "الاستقرار" أو "الديمقراطيَّة".

ولعلّ أحد أبرز الأدلّة المتأخّرة على هذا الأمر، ما حصل في العراق، وتحدّث عنه (محمد إدريس أحمد)، من أنّ شبكات المحافظين الجدد تعاونت مع مراكز فكريَّة مثل (AEI) و(PNAC)، لإنتاج خطاب تهديد ممنهج ضدّ العراق، ما هيّأ المناخ السياسيّ لغزوه عام ٢٠٠٣ [2].

وبالمثل، يوثّق (تريتا بارسي-Trita Parsi) كيف أسهمت المؤسّسات البحثيَّة في ترسيخ سرديَّة "الخطر الإيرانيّ" في أروقة صنع القرار الأميركيّ، ممهّدة الأرضيَّة اللازمة لتسويغ سياسات

1 - Eric Conway, and Naomi Oreskes: Merchants of Doubt, p77.

2 - Muhammad Idrees Ahmed: The Road to Iraq: The Making of a Neoconservative War, p115.

الاحتـواء والتصعيد[1]، وفي نهاية المطاف: الاسـتهداف العسـكريّ، والاعتداء على السـيادة، واستمرار الحصار.

ثانيًا: كيف تعرّف مراكز التفكير نفسها ودورها؟

عنـد مراجعة الصياغات المعتمدة، مـن قِبل مراكز التفكير الغربيَّة تحديـدًا، في تعريفها عن نفسـها، نلحظ خطابًا مؤسّسيًّا مصقولاً، يتكرّر فيه اسـتخدام مفردات مثل «الاستقلال»، و«غير الربحيَّـة»، و«غير الحزبيَّة»، و«الالتزام بالمصلحة العامّة»، و«المعرفة القائمة على الأدلّة». هذه المثاليَّة المفرطة في التعبيرات، لا تعدو كونها استعراضًا لرمزيّات مدروسة تسويقيًّا، وهي بعيدة عـن الأدوار الحقيقيَّة التي تتجاوز التجميل الموضوعيّ والصياغيّ إلى حدّ كبير، وهي لا تعدو كونها تمثّل واجهة رمزيَّة تخفي وراءهـا أدوارًا وظيفيَّة معقّدة تتجاوز الحياد الأكاديميّ، بحيث تتموضع في صلب صناعة القرار السياسيّ وصياغة الاستراتيجيّات الدوليَّة. كما يمكن استعراض عدد كبير من الأمثلة على ذلك، منها:

١. مؤسسة راند (RAND): بين الحياد المعلن وإعادة تشكيل السرديّات

تؤكّد مؤسّسـة «راند» في تعريفها الرسـميّ، على أنّها «منظّمة غير ربحيَّة وغير حزبيَّة، تساعد صُنّاع السياسات على اتخاذ قرارات مبنيَّة على بحوث دقيقة وتحليلات موثوقة»[2]. لكنّها تذكر بوضوح تأثيرها على القرار، وتكوين اتجاه محدّد لدى صنّاعه، بشكل بدأ يثير التساؤلات، حتى لدى المعنيين بالشـأن العام الأمريكي، فيما تحاول مراكز التفكير، ومنها مؤسّسة "راند" الإيحاء بأهميَّة التدخّلات التي تدعمها، وتسـهم في صياغتها، كونها أتاحت "للولايات المتحدّة إحباط سرديّات زائفة قبل أن تكتسب زخمًا".[3]

1 - Trita Parsi: Treacherous Alliance: The Secret Dealings of Israel, Iran, and the U.S., p234.

2 - RAND Corporation: About RAND, p2.

3 - Jennifer Kavanagh, and Mike Rich: Truth Decay: An Initial Exploration of the Diminishing Role of Facts and Analysis in American Public Life, p.15.

يعكس هذا الموقف، تحوّلاً عميقًا من الدور التحليليّ المبسّط، والممزوج بكثير من الإيحاء بالموضوعيَّة، والعمل المنهجيّ المحايد، إلى دور أعمق يتدخّل في تفاصيل صناعة السرديّات المطلوب تشكيلها. وبعبارة أكثر وضوحًا، إنّ "السرديّات قويَّةٌ؛ لأنّها سهلة الفهم، وتتماهى مع الجمهور المقصود، فتقدّم طريقة مفيدة لتأويل الأقوال والأفعال"[1]، وتصبح الدراسات والأوراق البحثيَّة أدوات لإقناع الجمهور، والنخب بضرورة تبنّي خيارات سياسيَّة محددة. ويجد هذا النمط تطبيقًا في بيئات ما بعد النزاعات، كما في العراق؛ حيث شاركت (RAND) في وضع أطر، لإعادة هيكلة قطاع الأمن، قُدّمت باعتبارها "إصلاحات"، لكنّها عمليًا كانت متّسقة مع أولويّات السياسة الأميركيَّة[2].

٢. مؤسسة "بروكينجز" (Brookings): مركز أبحاث أم ممرّ للسلطة؟

تمثّل مؤسّسة «بروكينجز»، حالة أخرى من التداخل البنيويّ بين البحث الأكاديميّ وصنع القرار. يكشف تقريرها السنوي لعام ٢٠٢٢ عن إحالة ٤٧ من أوراق باحثيها في جلسات استماع للكونغرس، وتنظيم ٣٣ ندوة مغلقة لصنّاع القرار، وانتقال ١٢ باحثًا إلى مناصب رسميَّة في الإدارة الأميركيَّة[3].

تنظر المؤسّسة إلى أنّ معيار نجاح عملها، هو تحوّل أفكارها إلى سياسات فعليَّة، بينما تحاول الإيحاء الدائم إلى أنّ رسالتها بعيدة عن الانحياز، وتقوم على "إجراء بحوث معمّقة غير حزبيَّة لتحسين السياسات والحوكمة على المستويات المحليَّة، والوطنيَّة، والعالميَّة"[4]. تنعكس هذه الأوراق السياسيَّة حتى اليوم على الحوارات الساخنة، وكيفيَّة مقاربتها، وما يدور فيها في أروقة القرار المحليّ.

٣. معهد WINEP: الوظيفة المزدوجة

يمثّل معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى (WINEP) حالة خاصّة من حيث البنية

1 - Christopher Paul, and Miriam Matthews: The Language of Narrative in Strategic Communication: The Case of Counterterrorism, p2.

2 - Toby Dodge: Iraq: From War to a New Authoritarianism, p103.

3 - Brookings Institution: Annual Report, p.14

4 - Brookings Institution: Annual Report, p.3.

والأجندة. فقد أسّسه أفراد مقرّبون من اللّوبيّ الإسرائيليّ (AIPAC)، ويعرّف نفسه بأنّه "مركز أبحاث مستقلّ، يُعنى بتقديم رؤى دقيقة لصنّاع القرار الأميركيين عن الشرق الأوسط"[١].

إنّ مراجعة وافية لتقارير هذا المركز، تكشف ارتباطه الوثيق بالمؤسّسات الأمنيَّة الأميركيَّة والإسرائيليَّة، وانحيازه الواضح إلى توصيف الحركات الإسلاميَّة بأنّها تهديد وجودي، ودعم سياسات التطبيع العربيّ-الإسرائيليّ، وأخيراً الدعوة إلى الضغط السياسيّ والماليّ على خصوم إسرائيل[٢]. هذه الأجندة تجد صدى في تغطياته للحالة اللبنانيَّة؛ حيث يوظف خطاب "الميليشيات المدعومة إيرانيًّا" بوصفه إطارًا مُهيمنًا يحدّد صورة الفاعلين المحلّيّين في الوعي الأميركيّ والدوليّ[٣].

٤. اللغة أداة سلطة

إنّ واحدة من ثوابت علم الاتصال السياسيّ، تتمثّل في النظر إلى اللّغة على أنّها أداة تتجاوز دورها في نقل الأفكار، إلى صياغة الواقع ذاته. فلم يكن هناك من فكر، أو تفكير، أو فلسفة قبل أن يكون هنالك لغة قادرة على التعبير الدقيق عن تلك التركيبات الذهنيَّة المعقّدة، وأيضًا إعادة صياغتها وتسييلها في قوالب أسهل هضمًا لعموم الجماهير؛ إذ يشير مفهوم «الخطاب القابل للنقل» إلى آليّات محدّدة تسمح في إنتاج عبارات مصاغة بعناية، بحيث يسهل تكرارها في الإعلام والسياسات، ما يمنحها طابعًا معياريًّا[٤]. مصطلحات مثل "الدولة الفاشلة"، و"محور الشرّ"، و"الإسلام المعتدل"، و"الميليشيات المدعومة إيرانيًّا"، تمثّل أمثلة واضحة على هذا الاستخدام الممنهج؛ إذ تعيد تعريف الشرعيَّة والمصالح، وتبرّر قرارات التدخّل أو العقوبات أو بناء التحالفات[٥].

وقد ظهر هذا النمط أيضًا في العراق بعد ٢٠٠٣، حين روّجت تقارير مدعومة من مراكز أبحاث

1 - WINEP: About Us, Washington, D.C.: WINEP, p1.
2 - WINEP: Policy Briefs.
3 - WINEP: Policy Briefs, p4.
4 - Diane Stone: Capturing the Political Imagination: Think Tanks and the Policy Process, p110.
5 - Norman Fairclough: Language and Power, p88.

أميركيَّة لوصف البلاد بـ "دولة فاشلة" تحتاج إلى وصاية دوليَّة، ما أسهم في تهيئة بيئة سياسيَّة مؤاتيَّة، لاستمرار النفوذ الخارجيّ[1].

ثالثًا: صناعة السرديّات في المنطقة – العراق، لبنان، سوريا، إيران

١. السرديَّة بوصفها أداة لإعادة إنتاج الهيمنة

لا تكتفي مراكز التفكير بتحليل الوقائع، بل تؤدّي دورًا فعّالاً في صياغة سرديّات استراتيجيَّة تُعيد تعريف الوقائع، وتمنحها تأطيراً يخدم السياسات الرسميَّة. فالسرديَّة المنتجة لا تُفسّر العالم كما هو، بل تصمّمه رمزيًّا من جديد، عبر اختيار المصطلحات، وتحديد الفاعلين، وتوصيف التهديدات، وتعريف الاستقرار. يُشير (إدوارد سعيد) إلى أنّ الغرب «لا يُنتج فقط معرفة عن الآخر، بل يُعيد تشكيل هذا الآخر ضمن بنية رمزيَّة تجعل إخضاعه مقبولاً خُلُقيًا»[2].

٢. العراق: من الدولة إلى الفضاء المُفكَّك

لم تتغيّر نظرة العراقيّين -عمومًا- إلى بلدهم بالصدفة أو بالمعاينة المستقلّة. على العكس، فقد ساهمت مراكز التفكير في تزويد الإعلام والقوى السياسيَّة بما يلزمها من «سرديّات» و «رمزيّات» لتكريس هذه النظرة الدونيَّة للذات؛ إذ تُقدّم مراكز مثل (RAND) و(Brookings) العراق بوصفه دولة "هشّة"، متعدّدة الهويّات، وعاجزة عن بناء إجماع وطنيّ مركزيّ. ويجري تكريس هذا التصوّر محليًّا ودوليًّا من خلال تكرار هذه التوصيفات ضمن أوراقها البحثيَّة، ومن ثَمَّ الدعوة إلى حلول من قبيل "تعزيز الحكم المحليّ"، و"دعم النخب السُنّيَّة المعتدلة"، و"تحجيم النفوذ الإيرانيّ"، وليس آخرها "تسريع دمج قوى المجتمع المدنيّ في عمليَّة إعادة بناء الدولة". يمكن ملاحظة هذا الأمر بشكل واضح في تقرير (Iraq's Fragmented Sovereignty RAND)، من خلال توصيات ذات أهداف لا تنشأ من المصلحة الوطنيَّة العراقيَّة، ولا من معاينة مستقلّة للواقع العراقيّ، وإنّما من خلال ما يتناسب مع مصالح الهيمنة، كهذا المقطع من التقرير المذكور،

1 - Toby Dodge: Iraq: From War to a New Authoritarianism, p117.

2 - Edward Said: Orientalism, p40.

والذي ينص على أنّه "ينبغي تفكيك مركزيَّة القرار السياسيّ عبر تمكين المحافظات، وتخصيص المساعدات بناءً على الشفافيَّة واللا المركزيَّة الإداريَّة"[1]. هذه الرؤية تُشرعن تفتيت السلطة السياسيَّة تحت ستار "الإصلاح"، وتُحوّل صراع الهُويَّة والمصالح إلى مجرّد "إدارة طائفيَّة ذكيَّة".

وبعيدًا عن الخطاب البحثيّ، ثَمّة مسارٌ عمليّ كرّس هذا التفكيك خلال السنوات الأولى لاحتلال العراق من قبل الولايات المتحدّة الأمريكيَّة؛ حيث لم يترك (بول بريمر-Paul Bremer) -الحاكم المدنيّ لسلطة الائتلاف- أيَّة مناسبة للتشديد على أنّه لم يعتمد محاصصةً طائفيَّة "مستوردة"، وأنّ الدستور كُتِب بإرادة عراقيَّة، وأنّ جهوده انصبّت على بلورة مسار ينتهي بانتخابات عامة يختار فيها العراقيّون نظامهم[2]. لكنّ ترتيبات الانتقال نفسها عُدِّلت أواخر ٢٠٠٣ تحت ضغطٍ محليّ لإجراء انتخابات مبكرة، وهيئة منتخَبة لكتابة الدستور، وهو ما وثّقته شهادات مسؤولين شاركوا في إدارة ذلك المسار، فيما الثابت دون أدنى شكّ أنّه قد "جرى إقرار مرسوم اجتثاث البعث من قِبل رؤساء (بريمر) في البنتاغون".[3] أما تشكيل "مجلس الحكم" (تموز ٢٠٠٣) فجاء بتركيبةٍ مُعلَنة تمثّل الهُويّات الجماعيَّة (١٣ شيعيًّا، ٥ سُنّة، ٥ أكراد، ١ تركمانيّ، ١ آشوريّ)، وهو ما قُرئ مبكّراً بداية لشرعنة منطق المحاصصة في هندسة السلطة -على رغم غياب نصّ دستوري صريح بذلك، وأثار انتقادات واسعة عن إرساء سابقة تُقعِّد السياسة على أسسٍ طائفيَّة/قوميَّة[4]. وبالمقارنة المؤسّسيَّة، اتّجه العراق لاحقًا نحو "توافقيَّة ليبراليَّة"، تُماثل لبنان في مخرجات تقاسم الوظائف والتمثيل بين "المكوّنات"، لكن من دون تثبيتٍ دستوريّ لنِسَبٍ طائفيَّة -أيضًا على الطريقة اللبنانيَّة. وقد ساعد على تكريس هذا العرف عاملٌ انتخابيٌّ تنظيميّ: اعتماد نظام القوائم المغلقة في انتخابات ٢٠٠٥، الذي شجّع التموضع ضمن اصطفافات هُويَّتيَّة واسعة، بدل منافسةٍ على برامج محليَّة/فرديَّة[5].

---

1 - RAND Corporation: Iraq's Fragmented Sovereignty: Political Decay and Reconstruction, p8.

2 - PBS/Frontline: "Interviews – L. Paul Bremer III (Gangs of Iraq).

3 - James Dobbins, and Seth Jones: Occupying Iraq: A History of the Coalition Provisional Authority, pxv.

4 - Al Jazeera: "Profile of Iraqi Governing Council Members.

5 - Clingendael Institute (Hamzeh Ezzeddine & Erwin van Veen), Iraq and Lebanon's Tortuous Paths to Reform.

ومع تراكم الوقت، والضوضاء السياسيَّة، والجهات المحليَّة التي تتبنّى خيارات قوى الهيمنة وتبالـغ في الحديث المحليّ عنهـا، إلى درجة لا يعود عند الجمهور القـدرة على تتبع المصدر الخارجـي للسياسـات المقترحة. وهنا يبرز التأثير الذي ينتجه أسـلوب العمـل هذا على تغيير الآراء المحليَّة، والتلاعب الذي يمكن أن يحدث بالأفكار لدى صنّاع القرار والنخب السياسـيَّة والجمهور. أما النتيجة النهائيَّة لكلّ ذلك، فستصبّ نهاية الأمر في خدمة الهيمنة، رغم أنّها ستبدو كأنّها "نتيجـة موضوعيَّة لخيارات حُرّة" لم تؤخَذ تحت الاحتلال وقوّة إنشـاء السرديّات، لكن وبالصدفة تبيّن أنّ "خيارات الناس" متطابقة مع "خيارات قوة الهيمنة" ومصالحها. لا تُصنَع هذه الأفكار مجّانًا، ولا يجري تسييلها وتمريرها بهذا الشكل المعقّد من الحذاقة والدهاء السياسيّين، لولا المشاركة الفاعلة لمراكز الفكر.

٣. لبنان: سرديَّة «الدولة المخطوفة»

يعدّ عمل مراكز الفكر على الملف اللبنانيّ من الأقدم زمنيًّا، ويمكن اعتبار لبنان مختبرًا استباقيًا لكل ما يحصل من هندسـة سياسـيَّة وثقافيَّة واجتماعيَّة في كل المنطقـة. لكن، وبالتركيز على السنوات الأخيرة -وتحديدًا منذ ٢٠١٩، بدأت تقارير (WINEP) و(Atlantic Council) توظّف سرديَّة تُعيد توصيف لبنان بـ "دولة مختطَفة من قِبل حزب مسلّح"، وأنّه بحاجة إلى تدخّل دولي لدعـم الجيش اللبنانيّ، إعادة تأهيل الإدارة، وتمكين منظّمات "مدنيَّة" بديلة. فيما يشـدّد مركز "تشاتام هاوس" (Chatham House) على أنّ "حزب الله صعد ليصبح المنظمة السياسيَّة الأكثر نفوذًا في لبنان، لكنّه يعمل إلى حدّ كبير من دون مساءلة. ومن المحتمل أن يتمكّن من الاستيلاء على الدولة اللبنانيَّة بالقوّة، لكنّه يجد من الأكثر فاعليَّة أن يمارس السـلطة في دولة ضعيفة مثل لبنان من دون تحمّل مسـؤوليات الحكم"[1]. إلى أين يفضي هذا المسار؟ إلى الواقع الذي نراه اليوم في لبنان: خطاب يُقصي قوى المقاومة عن أيّ شرعيَّة سياسـيَّة، ويُجنّب النظام المصرفيّ والنيوليبراليّ أيّ مساءلة.

1 Chatham House: Lebanon's politics and politicians: Explaining Lebanon's political system, the influence of religion, armed groups such as Hezbollah, and corruption in the state.

٤. سوريا: إعادة الإعمار بوصفه مختبراً إداريًّا

شكّل العام ٢٠١٧ مرحلة اعتبر فيها «إسقاط النظام» السابق مشروعًا فاشلاً. وبناءً على هذا الواقع الميدانيّ المستجدّ، انبرت مراكز الفكر للمساهمة في صياغة توجّهات أخرى أكثر تأثيراً ونجاحًا؛ حيث طرح معهـد «بروكينغز» خطّة الضغط من خلال «إعادة الإعمار المشروط». في تقرير (Brookings Reconstructing Syria) ٢٠٢٠، من خلال اعتماد اسـتراتيجيّات مغايرة، تبدأ من دعم الإدارة المحليَّة في مناطق المعارضة، وتحويل المساعدات إلى أدوات ضغط، وتهيئة بيئة انتقاليَّة دون تغيير جذريّ في بنية السلطة المركزيَّة[1]. الهدف غير المعلن هو إدارة بُنى ما بعد الحرب، بما يضمن اسـتمرار السـيطرة الغربيَّة الرمزيَّة، مع الحدّ الأدنى مـن التغيير، وفي حال وضوح فرصة تغيير حقيقيَّة، يكون البديل جاهزاً ومؤطّرًا ضمن سرديَّة "دولة" جاهزة.

٥. إيران: نزع الشرعيَّة الرمزيَّة

منـذ احتجاجات ٢٠٠٩ في إيران عقب الانتخابات الرئاسـيَّة التي أعادت (محمود أحمدي نجاد) إلى الحكم لولاية ثانية، تكرّست سرديَّة جديدة تقوم على «تجفيف شرعيَّة الثورة الإسلاميَّة» في إيـران، وتتالت الدراسـات التي تدعو إلى تغيـير النظام أو الدفع نحو تغيـيرات جذريَّة فيه، إلى حدّ الحديث عن سـيناريوهات ما بعد سـقوطه؛ حيث تذكر إحدى الدراسات أنّها «تعرض خمسة سـيناريوهات بديلة لما بعد خامنئيّ».[2] ومن الجلّي أنّ هذه المقاربة لا تسعى إلى دعم الديمقراطيَّة، بل إلى تفكيك النسق الرمزيّ الذي تستند إليه الجمهوريَّة الإسلاميَّة بصفته مرجعيَّة مناهضة للهيمنة ومساعي الهيمنة في العالم.

1 - Brookings Institution: Reconstructing Syria: A Framework for Political Settlement, pp12–17

2 - David Waltz, Alireza Nader, and David Christ: The Next Supreme Leader: Succession in the Islamic Republic of Iran, p.xiii.

رابعًا: شبكات التأثير وصناعة القرار والخطاب

١. من التمويل إلى صياغة الإدراك

لا تعمل مراكز التفكير منفردة، بل ضمن شـبكات هيمنة ناعمة ترتبط بمصادر تمويل كبرى، وأجهزة أمنيَّة، ومؤسّسـات إعلاميَّة، وجامعات، ومنظّمات مجتمع مدني. تُنتج هذه الشـبكات سرديَّة منسّقة، وتُعيد إنتاج مفاهيم محدّدة، وتُطوّع الخطاب العام لخدمة السياسات الاستراتيجيَّة الغربيَّـة. لا تقاس شـبكات مراكز التفكير بعدد تقاريرها فقط، بـل بقدرتها على التحكم في من يتكلّم، وكيف يُفكّر، وأيّ معرفة تُعَدّ جديرة بالاعتبار؛ إذ «تمارس مراكز الأبحاث تأثيراً كبيراً على الطريقة التي يرى بها المواطنون والمشرّعون العالم»[١].

تلعب مؤسّسـات التمويل دورًا محوريًّا في هندسة المحتوى الذي تُنتجه مراكز التفكير. على سـبيل المثال، تُظهر قاعـدة بيانـات (National Endowment for Democracy) (NED) أنّ المؤسّسة موّلت في عام ٢٠٢٢ أكثر من ٤٠ جهة في لبنان تحت عناوين مثل "المجتمع المدنيّ"، و"الانتخابات"، و"الإعلام المستقلّ"، وأنّها تدعم "سنويًّا أكثر من ١٧٠٠ منحة لمنظّمات غير حكوميَّـة في أكثر من ٩٠ دولـة"[٢]. أما أبرز الجهات المسـتفيدة، فهي مبـادرات بحثيَّة تدّعي الاستقلاليَّة، ومنظّمات تدريب سياسيّ تحوي نشطاء معروفي التوجّه الموحّد والمنظّم، والذي يدور في فلك سياسيّ محدّد، أو وسائل إعلام جديدة مموّلة أميركيًّا. بينما تموّل (USAID) برامج مثل BALADI)) لدعم البلديات المحليَّة، أو مبادرة الحكم الرشيد (DAI)، أو مشاريع تدريب الصحفيين والنشـطاء على "بناء السرديّات البديلة"؛ حيث يشـير التقرير السنويّ لـ (USAID) لبنان إلى أنّ ٦٠٪ من تمويلها تُوجّه نحو "برامج التواصل الاسـتراتيجيّ والتثقيف العام". ومن الأمثلة عـلى ذلك، مذكّرة "تقرير التدقيق النهائيّ عن بيان أمانـة الأموال لدى (كاريتاس لبنان) لبرنامج (BALADI) في لبنان".[٣]

---

1 - Thomas Medvetz: Think Tanks in America, p60.

2 - National Endowment for Democracy (NED): About NED, p.1.

3 - USAID: Audit of the Fund Accountability Statement of Caritas Lebanon Under Multiple Awards Including the BALADI Program, p.2.

٢. تدوير النخب: من المركز إلى القرار

يرصد تقرير (Carnegie) لعام ٢٠٢١ حالات انتقال شخصيّات من مراكز مثل (Brookings) و(Atlantic Council) إلى مواقع تنفيذيَّة داخل وزارة الخارجيَّة والحرب الأميركيَّتين[١]. في الحالة اللبنانيَّة، تظهر شخصيّات بوصفها "خبراء مستقلين"، لكن في حقيقة الأمر، إنّ مؤهّلاتها جرى بناؤها هندسيًّا من خلال كونها مموّلة من (NED)، ومدرّبة ضمن برامج أمريكيَّة، بينما تنقل خطاباتها إلى الإعلام المحليّ باعتبارها مواقف تحليليَّة حياديَّة.

٣. الإعلام بوصفه غرفة صدى

تلعب وسائل الإعلام دورًا حاسمًا في نشر سرديّات المراكز، من خلال ملء الهواء بشكل مستدام بمنتجات هذه المراكز؛ مرة من خلال استضافة «الخبير» المتكرّر، وأخرى عبر الاقتباس من أوراق السياسات. ولكن الاستراتيجيَّة الأكثر أهميَّة، تكمن في إعادة إنتاج المفاهيم في الخطاب السياسيّ اليوميّ؛ فكثير من المصطلحات الشائعة ظهرت أوّلًا في أوراق مراكز التفكير، مثل «الدويلة داخل الدولة»، و«الردع المتوازن»، و«الهلال الشيعيّ»، و«الإسلام المدنيّ»، وغيرها من المصطلحات التي يستسهل، حتى نخب الجهات المستهدَفة، في إعادة استخدامها وتكرارها؛ إذ «يمكن لأدوات التدخّل أن تتسرّب إلى النظام الإعلاميّ المستهدَف وتستخدمها غرفة صدى».[٢]

خامسًا: نقد خطاب الهيمنة – تفكيك من داخل الغرب

رغم السطوة الرمزيَّة لمراكز التفكير الغربيَّة، فإنّ عددًا من المفكّرين الغربيّين البارزين قدّموا نقدًا حادًّا لوظيفتها ودورها، كاشفين كيف أنّها لا تنتج معرفة مستقلة، بل تُعيد إنتاج الخطاب الرسميّ بصيغة تحليليَّة قابلة للتسويق. يشير (نعوم تشومسكي-Noam Chomsky) إلى هذا الأمر بقوله: "وظيفة المؤسّسات المعرفيَّة في الغرب ليست قول الحقيقة، بل إنتاج الإقرار القابل

1 - Carnegie Endowment for International Peace: Think Tanks and Policy Influence, p14.

2 - Samuel Bendett, and Heather Conley: Confronting Russian Information Warfare, p5.

للتكرار"[1]. في كتابهما "Manufacturing Consent"، يشرح (تشومسكي) و(إدوارد هيرمان-Edward Herman) كيف تعمل مراكز التفكير جزءًا من "نظام تصفية للخطاب"، يقوم على ثلاثة عناصر: التمويل الانتقائيّ، وانتقاء الأصوات المقبولة، واستبعاد أي طرح يهدد البنية السياسيَّة أو الاقتصاديَّة القائمة، مشدّدًا على أنّ "الرقابة ليست فرضًا، بل ترتيبًا متقنًا يُنتج ما يمُكن التفكير فيه أصلاً"[2]. وفي المحصّلة، يؤكّد المؤلفان على أن مراكز مثل (Brookings) و(CSIS) تلعب دورًا في بناء "الإجماع القابل للتداول"، لا في نقد السلطة.

١. المعرفة سلطة، والمستقبل مسرح للهيمنة

يرى (ميشيل فوكو-Michel Foucault) أنّ "السلطة لا تُمارس فقط عبر القوانين، بل عبر إنتاج الخطاب نفسه"[3]. لذلك، فإنّه من السطحيّ الاعتقاد بأنّ مراكز التفكير تنتج التوصيات فقط، بل إنّها -في الحقيقة- تحدّد للمجال العام من هو العدوّ، وما هو تعريف الأمن، ومن الذي يجوز له المشاركة في القرار. وبتعبير (فوكو) نفسه، فإنّ هذه المؤسّسات أشبه بـ "آليّات للمعرفة المنتجة للامتثال"، لا للتمرّد.

أما (وندل بيل-Wendell Bell)، فإنّه ينتقد في دراسته (Foundations of Futures Studies)، كيف أنّ التنبؤات الصادرة عن مراكز التفكير الأمريكيَّة لا تحلّل ما قد يحصل، بل تروّج لما يجب أن يحصل وفقًا لمنظور استراتيجيّ مسبق، وأنّ تلك "السيناريوهات تُصاغ بطريقة تجعل مسارًا محدّدًا يبدو قَدَريًّا ومرغوبًّا، وتُقصى السيناريوهات البديلة من النقاش"[4] تمامًا كما حصل في حالة العراق، وصياغة الدستور، والعمليَّة السياسيَّة أيام الاحتلال الأمريكيّ.

من جهته، يستكمل (إيلاي كلار-Eli Clare) في كتابه "Exile and Pride"، كيف أنّ مؤسسات

1 - Noam Chomsky, and Edward Herman: Manufacturing Consent: The Political Economy of the Mass Media ppxi–xii.

2 - Noam Chomsky, and Edward Herman: Manufacturing Consent: The Political Economy of the Mass Media pxii.

3 - Michel Foucault: Power/Knowledge: Selected Interviews and Other Writings, p120.

4 - Wendell Bell: Foundations of Futures Studies, p33.

الفكر الغربيَّة تُقصي الفئات المُهمّشة من أن تكون مُنتِجة للمعرفة، وتُبقيها داخل "موقع الدراسة" فقط، بل ومانعةً إيّاها من أي موقع مبادر آخر؛ الأمر الذي يُعيد إنتاج الهرميَّة المعرفيَّة الإقصائيَّة، بينما تستمرّ تلك المراكز في الوقت نفسه بالتحدّث عن التعدّديَّة وحقوق الإنسان[1].

٢. غزّة وأوكرانيا: تفكيك الدور

في أعقـاب حرب غزّة (٢٠٢٣-٢٠٢٥)، واجهت مراكز مثل (WINEP) و(FDD) انتقادات بسـبب تحيّزها الخطابيّ، وتبنّيها للسرديَّة الإسرائيليَّة -عبر تقديمها كأنّها "تفسير أمنيّ محايد". بينـما رصدت مؤسّسـة (FAIR) -في تقرير خاصّ علاقـة التمويل المباشر بـين لوبيّات مؤيّدة لإسرائيـل ومراكز التفكير- تكرار مصطلحـات مثل "حقّ الدفاع عن النفـس" في تقارير متتاليَّة ومنظّمة[2]، فضلاً عن فضائح التمويل التي أُثيرت من قبل شركات الطاقة لمراكز سياسات دفاعيَّة خلال الحرب الأوكرانيَّة، أضعفت مصداقيَّة استقلاليّتها.

ما يظهره هذا النقد هو أن المواجهة مع خطاب الهيمنة لا تبدأ من الرفض، بل من تفكيك البنية المعرفيَّة التـي تصنع الرأي المقبول. ومراكز التفكير، في بنيتها الحاليَّة، لا تمثّل مسـاحة لتعدّد الآراء، بل آليَّة هندسـة للمعقول السـياسيّ. إذن، ليس المطلوب إنتاج مراكز بديلة فحسب، بل بنية معرفيَّة مقاومة، تُعيد تعريف من له الحقّ في أن يقوم بتوصيف العالم، ومن يُعرّف المصالح، ومن يُعيد تشكيل الإدراك الجمعيّ.

سادسًا: بين الهيمنة ومشاريع المواجهة

تُظهـر المعطيات المسـتعرضة في الفصول السـابقة أن مراكز التفكير الغربيَّة ليسـت مجرد مؤسّسـات تحليليَّـة أو معامل إنتاج للمعرفة، بل هي أدوات وظيفيَّة تُسـهم في هندسـة الوعي الجمعي، وإعادة تشـكيل الإدراك السـياسي بما يتناسـب مع مشـاريع الهيمنة. من خلال ربط

1 - Eli Clare: Exile and Pride: Disability, Queerness, and Liberation, p45.

2 - FAIR: Gaza Coverage and Think Tanks: A Media Watch Special Report FAIR Publications, pp6–10.

التمويل بالخطاب، والخبير بالشرعيَّة، والسرديَّة بالسياسة، تمُارس هذه المراكز ما يمكن تسميته بـ «الاستعمار المعرفيّ الناعم»، الذي لا يفرض القوّة بقدر ما يُقنع بها. إن طبيعة الهيمنة الحديثة لا تحتـاج إلى طائـرات فقط، بل إلى مراكز أبحاث تُقنعك بأنّهـا ضروريَّة ومن دونها لا يمكنك النجاح.

أصبح من المؤكّد اليوم، أنّ مراكز التفكير الغربيَّة ليسـت "مختبرات أفكار" محايدة، بل هي جزء عضويّ من شـبكة هيمنة ناعمة تُنتج المفاهيم والسرديّات وتدفعها، عبر الإعلام والسياسة والمؤسّسـات الأكاديميَّة، إلى فضاء ما يُعتبر "معقولاً" في الـرأي العام. وكما يوضّح (جوزيف ناي-Joseph Nye)، تقوم هذه الآليَّة على جعل الآخرين "يريدون ما نريد" عبر الجاذبيَّة المعياريَّة لا القسر المباشر[1]. هذا الإطار يتكامل مع ما عرضه (نعوم تشومسـكي) و(إدوارد هيرمان) فيما يخصّ "هندسة الإقرار"؛ حيث تجري تصفية الخطابات لتحديد ما يُقال، وما يُسكت عنه، ومن هو الخبير المعتمد، ومن يُقصى من دائرة التأثير[2]. أمّا (ميشال فوكو) فيكشف البُعد الأعمق لهذه البنية؛ إذ يرى أنّ السلطة لا تكتفي بضبط المجال السياسيّ، بل تحدّد أفق التفكير وحدود الممكن تخيّله[3]. وعليه، لا يمكن فهم مراكز التفكير إلا ضمن شـبكات التمويل وتداول النخب، أو ما يُعرف بـ "البـاب الدوّار"، وهي آليَّة وصفها (توماس مِدفتـز-Thomas Medvetz) باعتبار هذه المراكز "عقدًا بين الحقول الأكاديميَّة والسياسيَّة والإعلاميَّة والاقتصاديَّة[4]. وتؤكّد (ديان ستون) أن استقلاليَّة هذه المؤسّسات كثيراً ما تكون خطابًا مُنشأ أكثر منها واقعًا تنظيميًّا [5].

يتطلّب التعامل مع هذا الواقع انشغالاً بسؤال أعمق، عن شروط إنتاج السرديّات: من يموّلها؟ ومن يعرّفها؟ ومن يشـارك في صياغتها؟ وما أثرها على العدالة والسـيادة؟ هنا يصبح تتبّع رحلة

1 - Joseph Nye: Soft Power: The Means to Success in World Politics, p22.

2 - Noam Chomsky, and Edward Herman. Manufacturing Consent: The Political Economy of the Mass Media pxii.

3 - Joseph Nye. Soft Power: The Means to Success in World Politics, p104.

4 - Thomas Medvetz: Think Tanks in America, p15-21.

5 - Diane Stone. Knowledge Actors and Transnational Governance: The Private–Public Policy Nexus in the Global Agora, p37.

المفاهيـم —من التقرير البحثيّ إلى الشاشـات وإلى دوائر القـرار— أداة لفهم البنية التي تمنح السرديَّة قوّتها، أو تحدّ من بدائلها. ويمكن أن يشـكّل التفكير في شبكات بحثيَّة مستقلّة، أو في مختـبرات سرديَّة محليَّة تعيد صياغـة القضايا من منظور حاجات النـاس، خطوة عمليَّة لكسر احتكار الخطاب المُهيمن. فالمطلوب ليس اسـتبدال سرديَّة بأخرى، بل تحرير شروط إنتاجها، عـلى نحو يتيح تعريف المصالـح، والكرامة، والحريَّة بمعجم ينبع مـن الواقع المحلي، لا من قوالـب خارجيَّة. كما أظهرت أعمال (ناي) و(غرامـشي-Gramsci) و(فوكو)، فإنّ الصراع على اللّغة والمعنى هو سـاحة الفعل السـياسيّ الحاسـمة، لا مجرّد ملحق له. وإذا لم ننجح في بناء قدرة مؤسّسـيَّة على تفكيك سرديّات القوة، وصناعة بدائل مقنعة، سنظلّ مجرّد "متلقّين أذكياء" ضمن عالم تُكتب لغته في مكان آخر.

خاتمة

ما يجمع هذه التجارب هو سـؤال: هل تنتج هذه المراكز معرفـة نقديَّة حقيقيَّة، أم تُعيد إنتاج خطاب السـلطة، سواء أكانت سـلطة محليَّة أم عالميَّة؟ المقياس الحقيقي يجب أن يكون: هل تعيد تعريف المفاهيم؟ وهل تفتح أفق التفكير أم تُعيدنا إلى قوالب جاهزة أنتجتها مراكز الهيمنة نفسها؟

إنّ المواجهـة تمرّ من خلال أفكار ومشـاريع جذريَّـة، تبدأ من بناء شـبكات فكريَّة ترفض المركزيَّة الغربيَّة، على مستوى المنهج، قبل أيّ شيء، ودعم مراكز إنتاج معرفيّ نابعة من حاجات شعوبها، وفصل التمويل البحثيّ عن الولاء السياسيّ، وأيضًا تحرير مفهوم "الخبير" من احتكار النخبة المؤدلَجة، وصولاً إلى تأسيس خطاب بديل لا يكون دعائيًّا، بل نقديًّا، وتعدّديًّا، وتحرّريًّا. وإذا كانت المراكز الغربيَّة تُنتـج اللغة التي نُفكّر بها، فإنّ أولى خطوات المقاومة المعرفيَّة، هي التحرّر من هذه اللغة، وإنتاج مفاهيمنا، وسرديّاتنا، ومصالحنا، وأفكارنا من داخل سياقنا السياسيّ والاجتماعيّ، والثقافيّ. ليسـت القضيَّة في أن نكوّن مراكز بديلة، بل أن نُعيد تحديد ما هو بديل أصلاً.

ربطًا بالصورة الأكبر، علينا جميعًا أن نغيّر جذريًّا من رؤيتنا للواقع المتغيّر لطبيعة الصراعات والحـروب والهيمنة؛ إذ إنّ "الحروب الجديدة"، على عكس "الحروب القديمة"، تتميّز بطريقة اسـتخدام العنف المنظّم لأغراض مختلفة، بدءًا من الجريمة المنظّمة إلى الانتهاكات الواسـعة النطاق لحقوق الإنسـان -كما يحدث في غزة وفلسطين اليوم. دارت رحى الحروب القديمة في المقـام الأول على المصالح الجيو-سياسـيَّة أو الأيديولوجيَّة، بينـما تخاض الحروب الجديدة لأسـباب أخرى؛ "المصالح الاقتصاديَّة" و "الهويَّة". تغيّرت الأسـاليب أيضا، فلم تعد الحرب على شكل قوّة تقليديَّة تسعى لنصر حاسم على قوّة تقليديَّة أخرى، بل باتت الصراعات تتمحور أكثر حول "الهيمنة" على الإدراك. وبلغة مباشرة: أصبح الهدف اليوم هو السـيطرة على الناس: قلوبهم، وعقولهم.

بناءً على ذلك، فإنّ التغيير في التفكير الاستراتيجيّ ضروري، ليصار إلى محاذاة الاستراتيجيَّة مع خصائص الحرب المعاصرة. وعلى صانع القـرار في كلّ إطار اجتماعيّ، وتربويّ، وثقافيّ، وسـياسيّ على الخصوص، أن يسارع إلى إعادة التفكير في الأهداف والمَهام التي على أساسها يقوم بتصميم هيكليّاته، وأولويّاته، وتوزيع موارده، بدءًا من الاستراتيجيّات التربويَّة على مستوى المـدراس، وليس انتهاءًا بالقوات المسـلّحة. عليه أن يعيد التفكير في تعريفـات كبرى؛ نهائيَّة الكيانات والدول؟ من هم المؤثّرون الاسـتراتيجيّون في أيّ نزاع على مستوى مجتمعه، والدولة التي يعمل ضمن قوانينها الناظمة؟ وكيف هو الشـكل الحقيقيّ لتوزّع القوة تمهيدًا للصراعات المسـتقبليَّة؛ حيث تُخاض معارك واشـتباكات صغيرة مركّبة ومعقّدة عليه في كل يوم، من أجل ضرب ثبات مفهوم أو موقف ما عند الناس، أو زرع وتثبيت مفهوم، أو موقف جديد في عقولهم وقلوبهـم، وليس مراكز التفكير سـوى إحدى أبـرز الأدوات التي تسـهم في الفاعليَّة على هذا المسرح العمليّاتيّ المعقّد، والذي بات "في ذاته" أحد التعريفات العمليَّة للصراعات المعاصرة.

مصادر ومراجع

- Donald Abelson: Think Tanks, Public Policy, and the Politics of Expertise. Cambridge: Cambridge University Press, 2002.
- Muhammad Idrees Ahmed: The Road to Iraq: The Making of a Neoconservative War. Edinburgh: Edinburgh University Press, 2014.
- Al Jazeera: "Profile of Iraqi Governing Council Members." 29 May 2004. https://www.aljazeera.com/news/200425/5//profile-izz-al-din-salim-2. (Accessed 26 September 2025).
- Trita Parsi: Treacherous Alliance: The Secret Dealings of Israel, Iran, and the U.S. New Haven: Yale University Press, 2007.
- Wendell Bell: Foundations of Futures Studies. New Jersey: Transaction Publishers, 1997.
- Samuel Bendett, and Heather Conley: Confronting Russian Information Warfare. Washington, D.C.: CSIS, 2017.
- Brookings Institution: Annual Report 2022. Washington, D.C.: Brookings, 2022.
- Brookings Institution: Reconstructing Syria: A Framework for Political Settlement. Washington, D.C.: Brookings, 2020.
- Carnegie Endowment for International Peace: Think Tanks and Policy Influence. Washington, D.C.: Carnegie, 2021.
- Chatham House: "Lebanon's Politics and Politicians." London: Chatham House, 2021. https://www.chathamhouse.org/202108//lebanons-politics.

(Accessed 26 September 2025).

- Eli Clare: Exile and Pride: Disability, Queerness, and Liberation. Boston: South End Press, 1999.
- Clingendael Institute (Hamzeh Ezzeddine & Erwin van Veen): Iraq and Lebanon's Tortuous Paths to Reform. The Hague: Clingendael, 2020.
- Noam Chomsky, and Edward Herman: Manufacturing Consent: The Political Economy of the Mass Media. New York: Pantheon Books, 1988 (2nd ed., 2002).
- Eric Conway, and Naomi Oreskes: Merchants of Doubt. New York: Bloomsbury Press, 2010.
- James Dobbins, and Seth Jones: Occupying Iraq: A History of the Coalition Provisional Authority. Santa Monica: RAND Corporation, 2009.
- Toby Dodge: Iraq: From War to a New Authoritarianism. London: Routledge, 2013.
- Daniel Drezner: Ideas and Foreign Policy: Beliefs, Institutions, and Political Change. Princeton: Princeton University Press, 1993.
- FAIR: Gaza Coverage and Think Tanks: A Media Watch Special Report. Washington, D.C.: FAIR Publications, 2024.
- Michel Foucault. Power/Knowledge: Selected Interviews and Other Writings, 1972–1977. New York: Random House, 1980.
- National Endowment for Democracy (NED): About NED. Washington, D.C.: NED, 2022.
- Joseph Nye: Soft Power: The Means to Success in World Politics. New York: PublicAffairs, 2004.
- Christopher Paul, and Miriam Matthews: The Language of Narrative in

Strategic Communication: The Case of Counterterrorism. Santa Monica: RAND Corporation, 2016.

- PBS/Frontline: "Interviews – L. Paul Bremer III (Gangs of Iraq)." 17 April 2007. https://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/gangsofiraq/interviews/bremer.html. (Accessed 26 September 2025).
- RAND Corporation: About RAND. Santa Monica: RAND, 2020.
- RAND Corporation: Iraq's Fragmented Sovereignty: Political Decay and Reconstruction. Santa Monica: RAND, 2021.
- Andrew Rich: Think Tanks, Public Policy, and the Politics of Expertise. Cambridge: Cambridge University Press, 2004.
- Edward Said: Orientalism. New York: Pantheon Books, 1978.
- Diane Stone: Capturing the Political Imagination: Think Tanks and the Policy Process. London: Routledge, 1996.
- Diane Stone: Capturing the Political Imagination. London: Routledge, 2007.
- Diane Stone: Knowledge Actors and Transnational Governance: The Private–Public Policy Nexus in the Global Agora. London: Palgrave Macmillan, 2013.
- USAID: Audit of the Fund Accountability Statement of Caritas Lebanon Under Multiple Awards Including the BALADI Program. Washington, D.C.: USAID, 2021.
- David Waltz, Alireza Nader, and David Christ: The Next Supreme Leader: Succession in the Islamic Republic of Iran. Santa Monica: RAND Corporation, 2011.
- WINEP: About Us. Washington, D.C.: WINEP, 2021.
- WINEP: Policy Briefs. Washington, D.C.: WINEP, 2019–2023.

Qur'anic Perspective of Consciousness: Reason, Revelation, Faithful State

■ Assist. Dr. Sajjad Hadi al-Anbaki[1]

Abstract

This research aims at explore the conceptual framework of consciousness formation from the perspective of the Qur'an. It examines the interrelated foundations of reason, revelation, and the faith-based state, proposing a deeper understanding of consciousness, one that transcends superficial interpretations and instead envisions it as a profound cognitive state that liberates the individual from blind imitation and dependency. The research investigates the dynamic relationship between reason, as a tool for reflection and analysis, and revelation, as a source of guidance and knowledge. It asks whether these two foundations diverge or intersect, and to what extent they are in harmony and epistemological complementarity, with revelation ensuring the integrity and direction of reason.
Furthermore, the research highlights the pivotal role of the faithful state as a civilizational system grounded in justice and human rights. It explores how just governance within such a state serves as a fundamental safeguard for consciousness, protecting it from manipulation and distortion often perpetuated by modern systems of Western control.
Finally, the study offers a critical comparison between the Qur'anic vision of the formation and preservation of consciousness and contemporary methodologies, which frequently rely on propaganda and media-driven techniques that construct a false or manipulated consciousness.

Keywords: Qur'anic Perspective, Shaping Consciousness, Reason, Revelation, Faithful State.

1 - Lecturer at Kufa University - College of Jurisprudence.

الرؤية القرآنيَّة لصناعة الوعي: العقل، الوحي، الدولة الإيمانيَّة

■ م.د سجاد هادي العنبكي[1]

ملخّص

تسعى هذه الدراسة إلى بيان البناء المفهومي لتشكّل الوعي في منظور النصّ القرآنيّ، وبيان العلاقة الترابطيَّة بين الأسس الثلاثة: العقل، والوحي، والدولة الإيمانيَّة. محاولة تخطي الفهم السطحيّ للوعي، بل تجعله حالة إدراكيَّة عميقة، تحرّر الإنسان من التبعيَّة والتقليد الأعمى.

ثم تبيّن العلاقة بين العقل بوصفه أداةً للتحليل والتدبّر، وبين الوحي بصفته أساسًا للهداية ومنبعًا للمعرفة الهادية، وهل هناك مواطن يختلفان فيما بينهما، أو يتقاطعان؟ أو أنّهما في انسجام وتكامل معرفيّ، يضمن فيهما الثاني استقامة الأول.

محاولة بيان الأثر المحوريّ للدولة الإيمانيَّة، بوصفها منظومة حضاريَّة تعمل بمبدأ العدل، وحقوق الإنسان، ثمّ تبيّن كيف يكون الحكم الرشيد، في تلك الدولة، ضامنًا أساسًا في صيانة الوعي وحفظه من أساليب الخداع والتزييف، التي تعمل على صناعتها أنظمة السيطرة الغربيَّة المعاصرة.

لتقدّم بعد ذلك مقارنة نقديَّة بين الرؤية القرآنيَّة لتشكّل الوعي وحفظه، وبين المنهجيّات المعاصرة، التي غالبًا ما تقدّم تقنيّات التضليل، والدعايات الإعلاميَّة لصناعة وعي مزيّف.

الكلمات المفتاحية: الرؤية القرآنيَّة، صناعة الوعي، العقل، الوحي، الدولة الإيمانيَّة.

1 - أستاذ في جامعة الكوفة- كليَّة الفقه.

مقدّمة:

تشـكّل قضيَّة وعي الإنسان في البنية القرآنيَّة محورًا أساسًا وأصيلاً في المشروع القرآني لبناء الفرد والمجتمع، ولا يقف القرآن الكريم عند دعوة الإنسـان أنْ يدرك الحقائق، وأنْ يُعمل فكرَه فقط، بل يذهب لتأسيس نظام معرفيّ وخُلُقيّ متكامل، تتشارك فيه مَهامّ العقل ووظائف الوحي؛ لصناعة وعي حرّ ورشيد، مؤمَّن من الانحرافات الفكريَّة والسلوكيَّة.

وفي ظلّ التحدّيات المعاصرة للهيمنة الإعلاميَّة والخطاب المضلل، يظهر الأنموذج القرآنيّ المؤسِّـس لمشروع يتكامل فيه العقل بمدركاته وتحليلاته، والوحي بمنظومته الهدايتيَّة الكاشفة للحقائق، لا على نحو المُلغي لوظيفة العقل، بل على نحو التكامل والإرشاد والتصويب.

ثمّ إنّ هذا الوعي بحاجة للاسـتمرار والديمومة؛ ليعطي أُكله. من هنا، تأتي المَهمَّة المحوريَّة للدولـة الإيمانيَّة المبنيَّة على الرؤية القرآنيَّة بوصفها الإطار المرجعيّ المؤسّـسي لحفظ الوعي وصيانته، عن طريق ترسـيخ القِيَم الكـبرى، كإقامة العدل، وتفعيل دور المؤسّسـات التعليميَّة والإعلاميَّة المنضبطة، وتحقيق الرؤية المعرفيَّة الواعية، دون السقوط في مصائد الهيمنة الفكريَّة، أو الاسـتلاب الثقافيّ، فتكون -الدولة الإيمانيَّة- مشتغلة على الحريَّة الفكريَّة للعقل، وفق إطار قِيَمي إيمانيّ ضابط.

وتـبرز مشـكلة البحث، من خلال ما يواجهه الإنسـان في العصر الراهن، مـن تحدٍّ وجوديّ يتجسّد في سيادة (الوعي المزيّف) لأنظمة السـيطرة العالميَّة؛ لتحويل الإنسان المسلم من فرد فاعل ومنتـج للمعرفة والوعي، إلى كائن مُسـتهلِك، يخضع للوعي المصـدّر إليه، وفق آليّات تضليل ممنهجة، تهدف إلى تقويض البناء المجتمعي والخُلُقيّ.

وتتمثّل أهمّيَّة البحث، بمحاولته تقديم الرؤية القرآنيَّة المتكاملة لصناعة الوعي، وعدم الاكتفاء

بعرض التحدّي القائم على التجهيل الممنهج في زمن ضياع البوصلة الفكريَّة، وكذا يهدف لربط العقل بالوحي، محكومين بإطار اجتماعيّ وسياسيّ ممثَّلاً بالدولة الإيمانيَّة، بحكمها الرشيد، والحامية لهذا الوعي ونمائه.

ويحاول البحث الإجابة عن التساؤلات الآتية:

- ما مفهوم الوعي في الرؤية القرآنيَّة، وبمَ يختلف عن مفهومه في الفكر المعاصر؟
- كيف يكون التكامل بين العقل والوحي لبناء وعي حرّ ومنضبط وفق المنظور القرآنيّ؟
- ما دور الدولة الإيمانيَّة وحكمها الرشيد في حماية الوعي وصيانته؟
- ما الفرق بين منهجيَّة القرآن الكريم في صناعة الوعي، ومنهجيّات الأنظمة المعاصرة؟

وسوف أستخدم المنهج التحليليّ، لتتبّع المفاهيم المتعلّقة بالوعي ومقارباته، والعقل، والوحي. وكذا المنهج المُقارِن؛ لعقد الموازنات بيت الرؤية القرآنيَّة للوعي، وأنظمة السيطرة المعاصرة. ولا يدّعي الباحث الإلمام بالموضوع بجميع جوانبه، فهو أوسع من أن يُحاط به في هذا البحث المختصر.

أولًا: المفاهيم المؤسِّسة للبحث:

١. الوعي:

عند تتبّع المعاجم اللغويَّة، نجد أنْ الجذر (و ع ى) حيل إلى دلالات عميقة، قد تتجاوز (الحفظ)، وإنْ أشار بعض الأعلام إليه[١]، وقال: وعى الحديثَ يعيه وَعْيًا إذا حفظه، الوَعْي: حفظ الْقلب للشَّيْء[٢]، ويبينّ (ابن منظور) (ت:٧١١هـ) هذه المعاني ومرادفاتها بتفصيل أكثر، فيقول: «الوعي: حفظ القلب الشيء. وعى الشيء، والحديث يعيه وعيًا، وأوعاه: حفظه وفهمه وقبله، فهو واعٍ، وفلان أوعى من فلان، أي أحفظ وأفهم. وفي الحديث: نضر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها، فربّ مبلِّغ أوعى من سامع... الواعي: الحافظ الكيّس الفقيه. وفي حديث (أبي

١ - ينظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين، ج٢، ص٢٧٣.
٢ - ينظر: محمد بن الأزهري: تهذيب اللغة، ج٣، ص١٦٦.

أمامة): لا يُعذِّب الله قلبًا وعى القرآن... أي عقله، إيمانًا به وعملاً، فأمّا من حفظ ألفاظه، وضيّع حدوده، فإنّه غير واعٍ له»[1].

ويميّز (الكفوي) (ت: ١٠٩٤هـ) بين الحفظ والوعاية، فيقول: «الوعي: هُوَ أَن تحفظ فِي نَفسك الشَّيْء... والوعاية: أبلغ من الْحِفْظ؛ لِأَنَّهُ يخْتَص بالباطن، وَالْحِفْظ يسْتَعْمل فِي حفظ الظَّاهِر»[2].

من هنا، يتّضح أنّ دلالة (الوعي) تتجاوز الحفظ المجرّد، أو الاستظهار الآليّ للمعلومات، بل هو عمليَّة قلبيَّة وعقليَّة تضمّ الحفظ النفسي والفهم للشيء، ولأنه يرتبط بالباطن والإدراك القلبيّ يجعله أكثر ثباتًا وتأثيرًا، ولعلّ هذه الدلالات تنسجم تمامًا مع الرؤية القرآنيَّة للوعي، الدالّة على حالة من الفقه والفهم والنظر، ما يدلّ على أنّه ليس عمليَّة تلقينيَّة، بل هو منهج تربويّ للعقل والقلب، ما يجعله عارفًا بمسؤليّاته.

فقد قدّم المفسِّرون رؤية تبيّن الفكرة الأساس، وفي قوله تعالى: ﴿...وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢]: إنها "أذن سمعت وعقلت ما سمعت وأوعت"[3]" وكذلك " تحفظ ما سَمِعَتْ وَتَعْمَل به، أي ليحفظ السامع ما سمع ويعمل به"[4]، وكذا هو وصف للقلب، فيُقال: «وعي قلبه العلم يعيه وعيًا، وقال الشاعر إذا لم تكن واعيًا حافظًا * فجمعك للكتب لا ينفع، فمعنى (واعية): ممسكة ما يحصل فيها. وقال (ابن عباس): حافظة. وقيل قابلة سامعة"[5]، والأذن الموصوفة بأنها واعية «من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه بتذكره وإشاعته والتفكر فيه والعمل بموجبه»[6]. وكذا تدلّ على الثبات والاستقرار في النفس؛ لتؤدّي ما وعت كما سمعت[7].

من هنا، نلحظ أنّ النص القرآني أكسب مفهوم الوعي دلالات أعمق مما هي عليه في مفهومه

١ - محمد بن منظور: لسان العرب، ج١٥، ص٣٩٥.
٢ - أيوب بن موسى الكفوي: الكليات، ص٩٤٤.
٣ - عبد الرزاق الصنعاني: تفسير القرآن، ص٣، ص٣١٣.
٤ - إبراهيم الزجاج: معاني القرآن وإعرابه، ج٥، ص٢١٥.
٥ - محمد بن الحسن الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، ج١٠، ص٩٨.
٦ - ناصر الدين البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)، ج٥، ص٢٤٠.
٧ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج١٩، ص٣٩٤.

واستعماله المعجميّ، ونستطيع تلخيص ذلك بالآتي:

أ. إن الوعي هو عمليَّة عقليَّة وقلبيَّة متكاملة.

ب. تجاوز الوعي لمعنى (الحفظ)، ليدلّ على العمل والسلوك، لا استيعاب المعلومة وحفظها فقط، بل تمثّلها في الواقع وترجمتها عملاً.

ج. يمكن أنْ يتّصف القلب بالوعي، فيُقال: وعى قلبُه العلمَ.

د. يدلّ الوعي على الثبات والاستقرار للمعلومة، ما يُمكّن الإنسان من تطبيقها دون زيادة أو نقصان.

٢. العقل:

يُطلق العقل في اللغة ويراد به نقيض الجَهْل[١]، ويرى (ابن فارس) (ت: ٣٩٥ هـ) أن: « الْعَيْنُ وَالْقَافُ وَاللَّامُ أَصْلٌ وَاحِدٌ مُنْقَاسٌ مُطَّرِدٌ، يَدُلُّ عُظْمُهُ عَلَى حُبْسَةٍ فِي الشَّيْءِ أَوْ مَا يُقَارِبُ الْحُبْسَةَ. مِنْ ذَلِكَ الْعَقْلِ، وَهُوَ الْحَابِسُ عَنْ ذَمِيمِ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ[٢]، ويرى (الأصفهانيّ) (ت: ٥٠٢هـ) أنّ: «أصل العقل الإمساك والاستمساك، كعقل البعير بالعقال، وعقل الدواء البطن، وعقلت المرأة شعرها، وعقل لسانه: كفّه، ومنه قيل للحصن: معقل، وجمعه معاقل»[٣]. وتتمحور الدلالة اللغويَّة للعقل على ما يحبس أو يمنع الإنسان من المهالك أو الشرور، بالقول أو الفعل.

أما في الاصطلاح، فقد أورد (الشيخ الطوسي) (ت: ٤٦٠هـ) معاني العقل بقوله: «العقل هو العلم الأول الذي يزجر عن قبيح الفعل، وكل من كان زاجره أقوى، كان عقله أقوى، وقيل: العقل: معرفة يفصل بها بين القبيح والحسن في الجملة، وقيل: العقل: قوة يمكن معها الاستدلال بالشاهد على الغائب»[٤].

ويرى (السيد الطباطبائي) (ت: ١٤٠٢هـ): «إن المراد بالعقل في كلامه -تعالى- هو الإدراك

---

١ - الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين، ج١، ص٥٩.

٢ - أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج٤، ص٦٩.

٣ - الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص٣٤٢.

٤ - محمد بن الحسن الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، ج١٠، ص٢٠٠-٢٠١.

الذي يتمّ للإنسان مع سلامة فطرته»[1]، ويقسِّم العقل إلى "العقل النظري الحاكم بالضرورة والإمكان، والعقل العملي الحاكم بالحسن والقبح المعتمد على المصالح والمفاسد"[2].

ويلخّص (محمد مصطفوي) معاني العقل بإرجاعه إلى أصل واحد، يدلّ على «تشخيص الصلاح والفساد في جريان الحياة ماديًّا أو معنويًّا، ومن لوازمه الإمساك، والتدبّر، وحسن الفهم، والإدراك والانزجار، ومعرفة ما يُحتاج إليه في الحياة، والتحصّن تحت برنامج العدل والحقّ... وهو أقوى وسيلة في تحصيل السعادة والوصول إلى الكمال، ولا ينفع في فقدانه عبادة، ولا زهد، ولا رياضة، ولا أيّ عمل واقع»[3].

ثمّ إنّ الناظر في آيات القرآن الكريم يجدها استعملت مفردات مقاربة، أو دالّة على العقل، كالقلب، واللبّ، والفؤاد، والنُهَى، والفكر، والفهم...إلخ، وهي -وإن فرّق بينها العرب بفوارق دقيقة- متقاربة، ويبيّن تلك الألفاظ وفوارقها (أبو هلال العسكري)[4] (ت:٣٩٥هـ)؛ إذ يرى أنّ:

- الفرق بَين الْعلم وَالْعقل: إن الْعقل هُوَ الْعلم الأول الَّذِي يزْجر عَن القبائح، وكل من كَانَ زاجره أقوى كَانَ أَعقل، وَقَالَ بَعضهم الْعقل يمْنَع صَاحبه عَن الوقوع فِي الْقَبِيح، وَقَالَ بَعضهم الْعقل الْحِفْظ. وَقيل: الْعقل يُفِيد معنى الْحصْر وَالْحَبْس، وعقل الصَّبِي إِذا وجد لَهُ من المعارف مَا يُفَارق بِهِ حُدُود الصّبيان، وَسمّيت المعارف الَّتِي تحصر معلوماته عقلاً؛ لأنها أَوَائِل الْعُلُوم، وَخلاف الْعقل الْحمق، وَخلاف الْعلم الْجَهْل.
- الفرق بَين الْعقل والإرب: إن قَوْلنَا الإرب يُفِيد وفور الْعقل.
- الفرق بَين الْعقل واللب: إنّ قَوْلنَا اللبّ، يُفِيد أَنّه من خَالص صِفَات الْمَوْصُوف بِهِ، وَالْعقل يُفِيد أَنّه يحصر مَعْلُومَات الْمَوْصُوف بِهِ، فَهُوَ مفارق لَهُ من هَذَا الوجه. ولباب الشَّيْء ولبّه خالصه، وَلمّا لم يجز أَنْ يُوصَف الله -تَعَالَى- بمعان بَعْضهَا أخْلص من بعض، لم يجز أَنْ يُوصَف باللبّ.

---

١ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج٢، ص٢٥٠.
٢ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج٨، ص٥٥.
٣ - ينظر: محمد مصطفوي: التحقيق في كلمات القرآن: ج٨، ص١٣٨- ٢٣٩.
٤ - أبو هلال العسكري: الفروق اللغويَّة: ج١، ص٨٣-٨٥.

- الفـرق بين العقل وَالنَّهْي: إنّ النهي هُوَ النِّهَايَة فِي المعـارف، الَّتِي لَا يحْتَاج إِلَيْهَا فِي مُفَارقَة الْأَطْفَال، وَمن يجْرِي مجراهم.
- الفرق بَين الْعقل والحِجا: إنّ الحجا هُـوَ ثبات الْعقل، من قَوْلهم تحجى بِالْمَكَانِ إِذا أَقَامَ بِهِ.
- الفرق بَين الْعقل والذهن: إنّ الذِّهْن هُوَ نقيض سوء الفَهم، وَهُوَ عبارَة عَن وجود الحِفْظ لما يتعلّمه الإِنسَان، وَلَا يُوصّف الله بِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُوصف بالتعلّم.

وهذا ما صرّح به المفسرون كـ (الشـيخ الطوسي) في تفسـير قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ [الرعد: ١٩]؛ إذ يقول: "معناه إنّما يتذكّر في ذلك، ويفكّر فيه، ويستدلّ به ذوو العقول والمعرفة. والألباب هي العقـول، واحدها لبّ ولبّ الشيء أجلّ ما فيه، وأخلصه وأجوده، فلبّ الإنسـان عقله؛ لأنه أجلّ ما فيه"[١]، فجعل اللبّ مرادفًا، أو بمعنى العقل، ومثله في قوله تعالى: ﴿**لِمَـنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ**﴾ [ق: ٣٧]؛ حيث يقول: "قيل معنى القلـب - ههنا - العقل من قولهم أين ذهب قلبك، وفلان ذاهب القلب، وفلان قلبه معه، وإنما قال (لمن كان له قلب)؛ لأن من لا يعيي الذكر لا يعتد بماله من القلب"[٢]، فجعل القلب بمعنى العقل.

ويقول (الشيخ الطبرسي) (ت:٥٤٨هـ): إنّ العقل والفهم والمعرفة واللبّ نظائر، ورجل عاقل فهم: لبيب ذو معرفة، وإنّ ضدّ العقل الحمق، وقد قيل لابن عباس أنىّ لك هذا العلم، قال: قلب عقول ولسان سؤول... ثمّ ينقل عن علي بن عيسى قوله: إن العقل هو العلم الذي يزجر عن قبيح الفعل، ومن كان زاجره أقوى فهو أعقل. وقيل: العقل معرفة يفصل بها بين القبيح والحسـن في الجملة. وقيل: هو التمييز الذي له فارق الإنسـان جميع الحيـوان، وهذه العبارات قريبة معاني بعضها من بعض، ثم يفرّق الشـيخ بين العقل والعلم، فيقول: إن العقل قد يكمل لمن فقد بعض العلوم، ولا يكمل العلم لمن فقد بعض عقله[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ**

١ - محمد بن الحسن الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، ج٦، ص٢٤٢.
٢ - محمد بن الحسن الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، ج٩، ص٣٧٤.
٣ - ينظر: الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان: ج١، ص٢١٤-٢١٥.

﴿بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الفاتحة: ٤٦]، يقول (السيد الطباطبائي): « ثم لما كان المعنيان جميعا ـ التعقل والسمع ـ في الحقيقة من شأن القلب، أي النفس المدركة، فهو الذي يبعث الإنسان إلى متابعة ما يعقله أو سمعه من ناصح مشفق. لذلك عُدّ إدراك القلب، رؤية له ومشاهدة منه، وعدّ من لا يعقل ولا يسمع أعمى القلب، ثمّ بولغ فيه بأنّ حقيقة العمى هي عمى القلب دون عمى العين؛ لأن الذي يعمى بصره يمكنه أن يتدارك بعض منافعه الفائتة بعصا يتخذها، أو بهاد يأخذه بيده، وأما القلب فلا بدل له يتسلّى به»[1].

من هنا، يتّضح أنّ للعقل عدّة معانٍ مترادفة أو متقاربة، منه قد استعملها العرب، والقرآن الكريم -بوصفه نزل بلسان عربي مبين- حينما يراد فهم معنى العقل فيه، لا يُقتصر على لفظه فقط، بل بضميمة تلك الألفاظ لمعرفة وظائف العقل، وحدوده في القرآن الكريم.

٣. الوحي:

يُقَال: وحيْتُ إِلَى فلَان، إِذا أشرتَ إِلَيْه وأومأْتَ، وقيل: (وَحَى لَهَا القرارَ فاستقرَّت) أَي: وَحَى اللَّـهُ الأرضَ بِأَن تَقرّ قرارًا فَلَا تميدُ بِأَهْلِهَا، أَي أَشَارَ إِلَيْهَا بذلك. وقيلَ: وَيكون وَحَى لَهَا القرارَ أَي كتب لَهَا القَرار، وَقَالَ بَعضهم أَي أَمَرها. وأَوْحَى إِلَيْه، وَهُوَ أَن يكلّمهُ بِكَلَام يُخفيه من غَيره.

وَقَالَ (الفرّاء) (ت: ٢٠٧هـ) فِي قَوْله تَعَالَى ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ [مَرْيَم: ١١] أَشَارَ إِلَيْهِم. قَالَ: والعربُ تَقول: أَوْحى وَوَحى، وأَوْمى ووَمَى بِمَ»عْنى وَاحِد، وَوَحى يحِي وَوَمى يمي. وَقَالَ جلّ وعزّ ﴿كَانُواْ يَحْذَرونَ وَأَوْحَيْنَآ إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم﴾ [القَصَص: ٧] قيل: إِن الْوَحْي هَهُنَا إِلْقَاءُ اللَّه فِي قَلبهَا[2].

ويلخّص (ابن فارس) معاني الوحي بقوله: «الْوَاوُ وَالْحَاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ: أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إِلْقَاءِ عِلْمٍ فِي إِخْفَاءٍ أَوْ غَيْرِهِ إِلَى غَيْرِكَ. فَالْوَحْيُ: الْإِشَارَةُ. وَالْوَحْيُ: الْكِتَابُ وَالرِّسَالَةُ... وَالْوَحِيُّ: السَّرِيعُ: وَالْوَحَى: الصَّوْتُ»[3].

---

١ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج١٤، ص٣٨٩.
٢ - ينظر: محمد بن الأزهري: تهذيب اللغة، ج٥، ص١٩٢.
٣ - أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج٦، ص٩٣.

ومثلــه ما بيّنه (الراغب)، من أصل (الوحي) هو الإشــارة السّريعة، ولتضمّن السّرعة قيل: أمر وَحْيٌ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرّمز والتّعريض، وقد يكون بصوت مجرّد عن التّركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة[1].

ومــن خلال اســتقراء دلالات الوحي في المعاجم، يظهر أنّ هذا المفهــوم يدلّ على (الإلقاء الخفي السريع)، ســواء تمثّل في الإشــارة أم الرمز، أم تَجَسّــد في الكتابة أم الإلهام. لكنَّ السمة الأساس في هذا اللفظ تضمّ ركني: (الخفاء والسرعة)، ما يجعله أوسع دلالة من مجرّد التواصل اللفظي، ليدلّ على وســيلة متميّزة في الإعلام، الذي يوصل المعنــى إلى الآخرين بصورة دقيقة ومغايرة لما هو معهود. لذا، كان المصطلح في الاستعمال القرآني حاملاً لأبعاد أعمق، متجاوزة لحدود الإشارة اللغويَّة، إلى أفق الهداية والتشريع الإلهي.

أما في الاصطلاح، فيبيّن (الشيخ الطوسي) (ت: ٤٦٠هـ) معانيه بقوله: «(الوحي) على وجوه في كلام العرب: منها وحي النبوة، ومنها الإلهام، ومنها الإشــارة، ومنها الكتاب، ومنها الإسرار: فالوحــي في النبوّة ما يوحي اللــه إلى الأنبياء، كقوله ﴿**إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِــلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ**﴾ [الشورى: ٥١]، والوحي بمعنى الالهام، قوله ﴿**وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ**﴾ [النحل: ٦٨] ... ووحي الإشــارة كقوله ﴿**فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا**﴾ [مريم: ١١]، قال مجاهد: أشار إليهم، وقال الضحّاك: كتب لهم، وأصل الوحي عند العرب، هو إلقاء الانسان إلى صاحبه ثيابًا للاستتار والإخفاء»[2].

وبعد أنْ يتتبع (الشيخ ناصر مكارم الشيرازي) الوحي في القرآن، يستخلص الآتي: « من خلال هذه الاستخدامات المختلفة للوحي ومشــتقّاته، نستنتج أنّ الوحي الإلهي على نوعين: (وحي تشريعيّ) و(وحي تكوينيّ).

فالوحــي التشريعي هو مــا كان ينزل على الأنبيــاء ﷺ، ويمثّل العلاقة الخاصــة بينهم وبين الخالق؛ حيث كانوا يستلمون الأوامر الإلهيَّة والحقائق عن هذا الطريق.

---

١ - الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص٨٥٨.

٢ - محمد بن الحسن الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، ج٦، ص٤٠٣.

أما الوحي التكوينيّ، فهو، في الحقيقة، وجود الغرائز والقابليات والشروط والقوانين التكوينيَّة الخاصّة التي أوجدها الخالق في أعماق جميع الكائنات في هذا العالم"[1]، وفي كلّ من النوعين، آيات قرآنيَّة تدلّ على ذلك المعنى.

معاني الوحي في القرآن الكريم:

أما معاني الوحي في القرآن الكريم، فقد لخّصتها الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام، حينما سألوه عن لفظ الوحي في كتاب الله -تعالى-، فقال[2]:

منه وحي النبوّة، ومنه وحي الإلهام، ومنه وحي الإشارة، ومنه وحي أمر، ومنه وحي كذب، ومنه وحي تقدير، [ومنه وحي خبر]، ومنه وحي الرسالة.

ثم فصّل كلّ نوع مستشهدًا بالآية قرآنيَّة، فقال عليه السلام:

١. فأما تفسير وحي النبوة والرسالة، فهو قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ...**﴾ [النساء: ١٦٣].

٢. وأما وحي الالهام، فقوله عزّ وجلّ: ﴿**وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ**﴾ [النحل: ٦٨]

٣. وأما وحي الإشارة، فقوله عزّ وجلّ: ﴿**فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**﴾ [مريم: ١١]، أي أشار إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿**أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا**﴾ [آل عمران: ٤١] .

وأما وحي التقدير، فقوله تعالى: ﴿**وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا**﴾ [فصلت: ١٢]

وأما وحي الأمر، فقوله سبحانه: ﴿**وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي**﴾ [المائدة: ١١١].

وأما وحي الكذب، فقوله عزّ وجلّ: ﴿**شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ...**﴾ [الأنعام: ١١٢].

---

١ - ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير القرآن المنزل، ج١٥، ص٥٨٥.

٢ - ينظر: محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج٩٠، ج١٦-١٧.

وأما وحي الخبر، فقوله سبحانه: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ**﴾ [الأنبياء: ٧٣].

ثانيًا: وظائف العقل في القرآن الكريم:

يعدّ العقل في المنظور القرآنيّ منشأ للتكليف وأساسًا للمسؤوليَّة، وكان الخطاب القرآني موجّهًا إياه نحو فطرته السليمة. ولم يختزل القرآن الكريم مفهوم العقل في الاستعمال الفلسفيّ المجرّد، بل يظهر قصده عبر مجموعة من المصطلحات التي تشير إلى عمليّات معرفيَّة متكاملة، كالقلب، والنُهى، والفؤاد، واللبّ...إلخ، وتلك الاستعمالات تدلّ على رؤية شاملة ومتكاملة للعقل، وعدم اختزاله ببُعد واحد. وفيما يأتي بيان لأهمّ الوظائف التي أُعطيت للعقل في لقرآن الكريم:

١. التمييز الإدراكيّ الحسّيّ:

من الوظائف الأساس التي تمُكّن الإنسان من فهم واعٍ لما يحيط به في عالمه المادّيّ، وأداة للتمييز بين الخير والشرّ، والحقّ والباطل، لما يؤدّيه من وظيفة تأمّليَّة في آيات الله الكونيَّة، قال تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [الروم: ٢٨]، فبعد إن ذكر الله -تعالى- بعض النعم المادّيَّة المحيطة بالإنسان، "يؤكّد أنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون، ويفهمون أنّ وراء هذه الخطّة المدروسة يدًا قادرة تقودها وتهديها، ولا يمكن أن تكون المسألة وليدة الصدفة والضرورة العمياء الصمَّاء أبدًا"[1].

ويُعطي القرآن الكريم للعقل وظيفة تكامليَّة للحواسّ بوصفها الرافد المعرفيّ له، ويبرز تكامل العقل مع الحواسّ في قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [النحل: ٧٨]؛ حيث تبيّن الآية أنّ

١ - ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير القرآن المنزل، ج١٢، ص٤٠٥.

المعرفة تبدأ من الصفر حين الولادة، ثم تُبنى عن طريق الأدوات الحسيَّة (السمع والبصر)، ومن أداة عقليَّـة هي(الأفئدة). وهذا التمييز الإدراكيّ الحسّيّ الذي يمهّد مسـار العقل. «ولا يبعد أن يكون المراد بالسمع والبصر مطلق الحواسّ الظاهرة من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل، وبالفؤاد وهو النفس المتفكّرة يمتاز من سائر الحيوان.»[1].

وقال تعالى: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا**﴾ [الإسراء: ٣٦]، يُبيّن القرآن أن الحواس ليست منافذ للحسّ فقط، بل هي المسؤولة؛ لأنّها تمُدّ العقل بالموادّ التي يبني بها أحكامه، وينقي المدركات ويعيد تركيبها، فيفهم المقاصد، ويـؤول الظواهر الناتجة عن تلـك الحواس، فالعقل يكون كالضابط لتلـك الحواس، فحُمّلت مسؤوليَّة السؤال يوم القيامة؛ لما تمثّله من عمليَّة محوريَّة وركيزة أساس في هداية الفرد أو ضلاله؛ لأنّها نعمة من الله -تعالى- ينبغي أن يؤدّى حقّها.

ثـمّ إنّ القـرآن الكريم يحذّر من تعطيـل وظائف تمييز الإدراك الحـسّيّ، فالحواسّ لا تكفي وحدها، بل يجب أن تُفعل عن طريق العقل في سـياق الهداية، قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ**﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وفي قولـه تعالى: ﴿**لَهُمْ قُلُـوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُـمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَـا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**﴾ [الأعراف: ١٧٩]، يؤكّد (الشيخ مكارم الشيرازي): أنّ معنـى (القلب) في القرآن الكريم هو العقل، فيقول: "قد قلنـا مرارًا: إن التعبير بـ(القلب) في مصطلح القرآن يعني الفكر والروح وقوة العقل، أي أنهم بالرغم مما لديهم من استعداد للتفكير، وأنهم ليسوا كالبهائم فاقدي الشعور والإدراك؛ لأن البهائم والأنعام لا تملك هذه الاستعدادات والإمكانات، إلا أنهم بما لديهم من عقل سالم وعين باصرة وأذن سامعة، بإمكانهم أن يبلغوا كل مراتب الرقي والتكامل"[2].

ويقول (الطاهر بن عاشـور) في قوله تعـالى: ﴿**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُـمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ**

---

١ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج١٩، ص٣٦٣.

٢ - ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير القرآن المنزل، ج٥، ص٣٠١-٣٠٢.

بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]: إنّ "تَقْدِيمُ الْأَفْئِدَةِ عَلَى الْأَبْصَارِ؛ لِأَنَّ الْأَفْئِدَةَ بِمَعْنَى الْعُقُولِ، وَهِيَ مَحَلُّ الدَّوَاعِي وَالصَّوَارِفِ، فَإِذَا لَاحَ لِلْقَلْبِ بَارِقُ الِاسْتِدْلَالِ وَجَّهَ الْحَوَاسَّ إِلَى الْأَشْيَاءِ وَتَأَمَّلَ مِنْهَا. وَالظَّاهِرُ أَنَّ وَجْهَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَفْئِدَةِ وَالْأَبْصَارِ وَعَدَمِ الِاسْتِغْنَاءِ بِالْأَفْئِدَةِ عَنِ الْأَبْصَارِ لِأَنَّ الْأَفْئِدَةَ تَخْتَصُّ بِإِدْرَاكِ الْآيَاتِ الْعَقْلِيَّةِ الْمَحْضَةِ"[1]، فهو يرى أن الأفئدة بمعنى العقول، ومنها تنطلق الإرادة في توجيه الحواسّ نحو النظر والتأمل، كما لا يُستغنى بالأفئدة وحدها عن الأبصار، فلكلّ منهما وظيفة تؤدّيها: فالأولى تختصّ بإدراك البراهين والآيات العقليَّة المحضة، والثانية تختصّ بإدراك الموجودات المحسوسة. وبهذا، جاء تعبير القرآن الكريم ليُظهر التكامل بين أدوات الإدراك (العقل والحسّ) للحصول على الهداية.

٢. التفكر والتدبر:

يعطي القرآن الكريم للعقل وظيفة محوريَّة وهي (التفكّر والتدبّر)، وبها تتجاوز هذه الوظيفة الفهم السطحيّ إلى التعمّق في إدراك المعاني والغايات، وكذلك الربط بين الأسباب والمسبَّبات، والتفكّر في عواقب الأشياء، ومعرفة النتائج، ما يستدعي تفعيل النظر بعمليَّة تأمّليَّة عميقة، قال تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ**﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقد روي عن الإمام الكاظم (عليه السلام) قوله: "قال الحسن بن علي عليهما السلام: إذا طلبتم الحوائج فاطلبوها من أهلها، قيل يا ابن رسول الله ومن أهلها؟ قال: الذين قصّ الله في كتابه وذكرهم، فقال: ﴿**إنما يتذكر أولو الألباب**﴾ قال: هم أولو العقول"[2]، يقول صاحب تفسير الأمثل: إنّ "آيات القرآن الكريم ليست للقراءة والتلاوة فقط، بل نزلت لكي يفهم الناس مقاصدها ويدركوا معانيها، وما التلاوة والقراءة إلا مقدمة لتحقيق هذا الهدف، أي التفكّر والتدبّر والفهم"[3].

ثم يبيّن سبب تقديم الذكر على الفكر؛ ليبيّن أنّ ذكر الله وحده لا يكفي، وإنّما يعطي ثماره

١ - محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج٧، ص٤٤٣.
٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج١، ص١٩-٢٠.
٣ - ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير القرآن المنزل، ج٣، ص٤٨.

القيمــة إذا كان مقترنًا بالتفكّر، كما أنّ التفكر بدوره لا يفــضي إلى النتيجة المتوخّاة ما لم يقترن بالتذكر. وإنّ التفكير في أسرار الخلق يعطي للإنســان وعيًا خاصًّا، ويترك في عقله آثارًا عظيمة، وأوّل تلك الآثار، هو الانتباه إلى هدفيَّة الخلق، وعدم العبثيَّة فيه[1].

ويذكر (الشــيخ قراءتي) أهمّ التعاليم المســتفادة من هذه الآية، ومنهــا: ينبغي لأهل الذكر أن يكونوا أهلاً للتعقّل والتدبّر، وأنّ قيمة الإيمان في التفكّر والتدبّر، تكون للذكر قيمة حينما يقترن بالتفكّر، وأن لا ســبيل إلى الكمال إلهيّ إلا بهما، ثمّ إنّ المعرفة الحسّــيَّة بالطبيعة لا تكفي، ما لم تقــترن بالتعقّل والتفكّر، وهما يؤدّيان إلى اليقين بأنّ هنالــك خالقًا لهذا الكون، وأنّ الإيمان والمعرفة يأتيان بعد الفكر والتعقل، ومن ثمراتهما الخوف يوم القيامة[2].

وتتجــلّى أهمّيَّة التفكّر والتدبّر ومركزيّتهــما في حياة الفرد وآخرته فيما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قولــه: «ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفكّر، وفي رواية أخرى: ألا لا خير في علم ليس فيه تفهّم، ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر، ألا لا خير في عبادة لا فقه فيها...»[3]. لذا، تعدّ هذه الوظيفة هي الوظيفة الأســاس للعقل، والتي بها يمتاز الإنســان عمّا سواه من المخلوقات.

٣- وظيفة الهداية والاتعاظ:

لعــل المتأمّل في هــذه الوظيفة، يجد أنّها غير قائمــة بذاتها، بل هي نتاج عــن عمليَّة التفكّر والتدبّر، وهذا صحيح، لكنّ التأكيد القرآنيّ على هذه الوظيفة بشــكل جليّ، كانت دافعًا لجعلها مســتقلّة، كقوله تعالى: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُــنَنٌ فَسِــيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَــةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ * هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُــدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٧-١٣٨]، يقول (القشــيري) (ت:٤٦٥هـ) في بيان أهميَّة العقل في هذه الآية: «يعنى اعتبروا بمن ســلف، وانظــروا كيف فعلنا بمــن وَالَى وكيف انتقمنا ممن عَادَى، وقوله -تعالى- هــذا بَيَانٌ لِلنَّاسِ: بيان

١ - ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير القرآن المنزل، ج٣، ص٤٨.
٢ - ينظر: محسن قراءتي: تفسير النور، ج١، ص٦٤٦- ٦٤٧.
٣ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج١، ص٨٤.

لقوم من حيث أدلّة العقول، ولآخرين من حيث مكاشفات القلوب، والآخرين من حيث تجلّى الحقّ في الأسرار"[1].

ويبين (الطبرسي) (ت:٥٤٨هـ) محوريَّة العقل في الهداية والاتعاظ، فيقول: "تعرّفوا أخبار المكذّبين وما نزل بهم، لتتّعظوا بذلك، وتنتهوا عن مثل ما فعلوه، ولا تسلكوا في التكذيب والإنكار طريقتهم، فيحلّ بكم من العذاب ما حلّ بهم...وإنّما خصّ المتّقين به، مع كونه بيانًا وهدى وموعظة للناس كافّة؛ لأنّ المتّقين هم المنتفعون به والمهتدون بهداه و المتّعظون بمواعظه"[2]، فالذي يُعمل العقل في القرآن الكريم سيستخلص العبر والدروس، ولا يكرّر أخطاء السابقين، بل يحوّل الماضي إلى خبرة ووعي، وهذا الربط القرآني للعقل بالواقع العملي، ولم يجعله عقل تنظيري مجرد فحسب.

ثالثًا: العلاقة التكامليَّة بين العقل والوحي وفق الرؤية القرآنيَّة:

تعد قضيَّة العلاقة بين العقل والوحي من أبرز القضايا التي شغلت الفكر الإنساني عبر العصور. فقد سعى الإنسان لفهم الكون، والبحث عن حقيقة وجوده، ومحاولة إدراك معنى الحياة منذ فجر الحضارات، فقد ذهب بعض المفكرين والفلاسفة إلى اعتبار العقل هو المصدر الوحيد للمعرفة، وأنّ أي شيء يخرج عن نطاق العقل لا يعدو كونه وهمًا وخرافةً. بينما رأى آخرون أن للعقل حدًّا وإطارًا لا يتعدّاه، وأنّ هناك بعضَ الحقائق لا يمكنه إدراكها إلا عن طريق مصدر إلهيّ أو وحي، وهو ما يعرف بـ (الوحي)، وحينما نعبّر بـ(الوحي) نقصد به التشريعات، والأحكام، والعقائد ...إلخ الواردة في القرآن الكريم، لا الوحي (الملائكة) أو الإلهام، وغيره من صور الوحي.

فالوحي الإلهي لم يقم بتهميش العقل، أو عدّه نقيضًا له، بل حثّ على تفعيله، والإفادة منه بأقصى ما يمكن بالتدبّر والتفكّر، وهذا ما يجعل من الرؤية القرآنيَّة متفرّدة في عرضها لهذه

١ - عبد الكريم القشيري: لطائف الإشارات، ج١، ص٢٨٠.
٢ - الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان: ج٢، ص٣٩٧.

القضيَّة، فالقرآن لا يرى أن العقل مصدر مستقلّ للمعرفة، بل هو أداة فاعلة، ولا غنى عنها لفهم الوحي وتطبيقه، هو بمثابة الضوء الذي ينير الطريق، ولكن الوحي هو الخريطة التي تحدّد معالم الطريق الصحيح.

ومع أن للعقل أهمّيَّة كبرى في الإسلام، لكن له حدوده ومجالاته، ولا يمكنه أن يحيط ببعض الأمور كالغيب، أو بعض التشريعات.

وتمتاز الرؤية الإسلاميَّة عمّا سواها، بأنّها تقوم على أساس التكامل المعرفيّ بين العقل بوصفه أداة للفهم والتحليل والتفكير، وبين الوحي بتمثيله لمصدر الهداية الإلهيَّة الذي يرفد الإنسان بالمبادئ والقِيَم، التي لا يدركها العقل وحده. وهي، بهذا التكامل المعرفي، تقدّم أنموذجًا فريدًا يرفض التصادم بينهما، أو استقلال أحدهما عن الآخر، بل يؤسّس لعلاقة تكامليَّة بانسجام تامّ.

وقد صرّح بهذا المعنى الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام بقوله: "يا هشام إن لله على الناس حجّتين: حجة ظاهرة وحجّة باطنة، فأمّا الظاهرة، فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام، وأما الباطنة، فالعقول"[1]. وهذا الحديث يؤسّس للرؤية الإسلاميَّة التكامليَّة بين الوحي والعقل، فالحجّة الباطنة في هذا الحديث تدلّ على الارتباط (الوحيانيّ) الذين يأتون من الله بالتعاليم الإيمانيَّة والغيبيَّة، وهي ممّا لا يحيط بها العقل وحده، والتي أشارت إليه آيات عدّة، منها قوله تعالى ﴿**ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ...**﴾ [البقرة: ٢-٣]. وإنّ «المراد بالإيمان بالغيب في مقابل الإيمان بالوحي والإيقان بالآخرة، هو الإيمان بالله -تعالى-، ليتمّ بذلك الإيمان بالأصول الثلاثة للدين، والقرآن يؤكّد القول على عدم القصر على الحسّ فقط، ويحرص على اتّباع سليم العقل وخالص اللب»[2]، فالعقل وسيلة وأداة للتفكّر في عالم الشهادة والحسّ، أما الوحي فهو الرافد الذي يفيض على إنسان من عالم الغيب، وعلاقة الإنسان بتلك الشؤون.

وقد أوثق القرآن الكريم في آيات كثيرة جدًّا العلاقة بين العقل بما يقوم به من عمليَّة إدراكيَّة وتحليليَّة، والوحي بوصفه مددًا غيبيًّا هاديًا للإنسان ومغذّيًا لروحه وفطرته، من ذلك قوله تعالى:

---

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج١، ص١٦.

٢ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج١، ص٤٦.

﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. يقول (الشيخ السبحاني): " والمراد من الأفئدة في الآية - وهي جمع فؤاد - بقرينة لفظتي): السمع (و(البصر) هو العقل البشري على أنّ ذيل الآية المذكورة الذي يتضمّن أمرًا بالشكر، يفيد أنّ على الإنسان أن يستفيد من هذه الأدوات الثلاث؛ لأنّ الشكر يعني صرف كلّ نعمة في موضعها المناسب"[1].

ولا يُفهم من اختصاص العقل بالتفكر والتدبر بان ليس له علة بالدين، فإن أعلى شيء في الدين وهي الأصول او العقائد ترتكز على العقل ويستدل به عليها، كالتوحيد والعدل والنبوة ...الخ،

وإن أي محاولة لفهم النص الإسلامي بغير هذه الرؤية التكامليَّة تفضي إما إلى النزعة العقلانيَّة المجردة، الرافضة للوحي، أو إلى النصّيَّة المتزمّتة، التي تهمل دور العقل ومكانته، وكلاهما يُعدّان خروجًا عن المنهج الإسلامي، ومما صرّح به القرآن الكريم من تكامليَّة العقل والوحي قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ١-٢]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وغيرهما من الآيات الدالّة على أن القرآن الكريم بوصفه وحيًا إلهيًّا نزل ليس للتلاوة فحسب، بل للتدبّر والتفكّر في آياته؛ لأنّ تلك العمليَّة العقليَّة ستؤدي إلى نتائج يهدف إليها منزّل النص القرآني .

لذا نستطيع القول[2] إنّ:

١. العقل والوحي يعتمد عليهما وتستقى منهما العقائد والأحكام.
٢. عصمة الوحي وصدوره عن الله تعالى، أو النبي الأكرم ﷺ بوصفه امتدادًا للتشريع الإلهي، نفيد منه في المجلات كلّها، أما العقل فهو محدود بإطار معرفي خاص.
٣. العقل والوحي يؤيّدان حجيَّة بعضهما، فإذا ثبت بحكم العقل القطعيّ حجيَّة الوحي، فإنّ الوحي بدوره يؤيّد كذلك حجيَّة العقل في مجاله الخاص به.

---

١ - جعفر السبحاني: العقيدة الإسلاميَّة على ضوء مدرسة أهل البيت عليهم السلام، ص١٦-١٧.
٢ - جعفر السبحاني: العقيدة الإسلاميَّة على ضوء مدرسة أهل البيت عليهم السلام، ص١٦-١٧.

٤. القــرآن الكريــم - في كثير من المواضع - يؤكد على حكم العقل وقضائه، ويســتعين بالعقل لإثبــات مضامين دعوته، وليس ثمّة كتاب ســماوي كالقــرآن الكريم يحترم المعرفة.

٥. أئمّة أهل البيت عليهم السلام أكّدوا على حجيَّة العقل وأحكامه في المجالات التي يحق للعقل الحكم فيها .

٦. العقل والوحي لا يتعارضان؛ لما كان الوحي دليلاً قطعيًّا، وكان العقل مصباحًا منيراً جعله الله في كيان كلّ فرد من أفراد النوع الإنساني، وإن بدا تعارض بَدْويّ -أحيانا- بين هاتين الحجَّتين، فيجب أن يُعلم أنّه ناشئ من أحد أمرين:

أ. إما إن استنباطنا من الدين في ذلك المورد غير صحيح.

ب. وإمــا إن هناك خطأ وقع في مقدّمات البرهــان العقلي- وهو الغالب-؛ لأنّ الله -تعالى- حكيم، وهو لا يدعو الناس إلى طريقين متعارضين مطلقًا.

من هنا، يتّضح أنّ اتباع العقل وحده لا يكفي لهداية الإنسان، أو صناعة فرد واعٍ، وكذا الوحي لنفســه؛ لأنّ العقل هو المفعّل لذلك الوحي على الواقــع والمطبّق له، ومن دونه لا يفهم العقل الوحي على وجهه المراد، بل يعطي نتائج عكســيَّة كما يحدث في بعض الحركات التكفيريَّة أو المتطرّفــة التي أبعدت العقل، واعتمدت على ظاهر النصّ فقــط، دون تفعيل للعقل، وفهم واعٍ للدين.

رابعًا: العقل والوحي وأثرهما في صناعة الوعي:

تتأسّس صناعة الوعي في المنظور الإسلامي على ثنائيَّة بنّاءة بين العقل والوحي. فالأول لما يحمله من إمكانيَّة التفكّر والاستدلال بالكون والأنفس، قال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [محمد: ٢٤]. لكنّ العقل لا يمكنه أن يحيط بكثير من الأشياء؛ لمحدوديَّة الإنسان، فاحتاج في ذلك إلى مرشد يُكمل ذلك النقص، ودليل ويرشده إلى ما يعجز عن إدراكه. وهنا جاء دور الوحي بوصفه نصًّا إلهيًّا موجّهًا للإنسان، غير لاغٍ للعقل ولا معطِّلاً له، بل مفعِّلاً لــه وموجّهًــا طاقاته نحو الحقّ، كما قال أمير المؤمنــين عليه السلام: « فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُــلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ

أَنْبِياءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُم مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بَالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ"[1].

وهذه الثنائيَّة التكامليَّة، تحقّق للإنسان وعيًا إسلاميًّا متكاملاً لا يفصل فيه الجانب العقليّ عن الجانب الوحيانيّ، وسبيّن البحث بعضًا من أنواع الوعي التي تنتجه تلك الرؤية التكامليَّة:

١. الوعي الحرّ:

يدعو القرآن الكريم إلى وعيٍ إنسانيٍّ حُرٍّ في آيات عدّة، كقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ**﴾ [سبأ: ٤٦].

فهي تأمر، بصورة صريحة وخطوات عمليَّة واضحة، بتأسيس وعيٍ حرٍّ، والوصول إلى الحقيقة بأنفسنا، وأن نتحرّر من تبعيَّة القطيع، بأن نقوم فرادى أو مثنى، وأن يكون التفكير بشكل منفرد ومستقلّ، حتى لا نتأثّر بضغوط المجموعة.

وكذا أمرتنا بأن نتفكّر (ثم تفكّروا)، وهي الأداة الأساس للوعي: ("ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا")، والتعبير بـ (ثم) للدلالة على الترتيب، أي في الخطوة الأولى يكون التحرّر من الضغط الفكري للمجموعة، وبعد ذلك، تأتي الخطوة الثانية، وهي التفكّر والتعقّل والتدبّر، بأن ينظر الإنسان في الأدلّة، ويحلّل المقدّمات، ليصل إلى النتائج بنفسه. وغيرها كثير من الآيات الدالّة على حرّيَّة الوعي والتخلّص من التقليد الأعمى للآباء أو الكبراء، كقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾ [البقرة: ١٧٠]، وغيرهما كثير.

٢. الوعي المتوازن:

إنّ التكامل بين العقل والوحي ينتج وعيًا متوازنًا في الرؤية، ما يجنّب الإنسان من الوقوع في

---

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج١١، ص٦٠.

أحد محذورين:

أ. المادّيَّـة الصرفة: ونقصد بها الاعتماد على العقـل والحواسّ فقط، وإهمال الجانب الروحيّ، والغاية من الخلق، ما يؤدّي الى اختزال الحياة بالجوانب المادّيَّة والتفاعلات الكيميائيَّة والفيزيائيَّة، والتي تفضي في بعض الأحيان الى الإلحاد وإنكار كلّ المعارف الغيبيَّة، والى القول بنسبيَّة القيم الخُلُقيَّة، وإن الخير والشر مفاهيم غير ثابتة، ما يؤدّي الى التفكّك المجتمعي والعبثيَّة.

ب. التصـوّف المنغلق: ونعني به تلك الممارسـات الروحانيَّة التي تهمل العقل، وتلغي دوره في الكشـف عن الواقع والتفكّر في النصوص، والاعتماد على الكشف الذاتي فقط بصفته مصدرًا للمعرفة، ما يفتح الباب أمام الرهبانيَّة التي نهى عنها القرآن الكريم، وعدم وجود معيار موضوعيّ لتمييز الحقائق، وتؤدّي كذلك الى الانطواء على الذات، والهروب من الواقع.

٣. الوعي المتكامل

تذهب أغلب الفلسفات والمذاهب الماديَّة إلى فصل كثير من الثنائيّات بوصفها متضادّة او متقاطعة، بينما يرى الإسلام أنّ تلك الثنائيّات يكامل بعضها بعضًا، فالدين لا يتعارض مع الدنيا أو الدولة، والعقل لا يُفصل عن الوحي، والعلم ينسـجم مع الأخلاق؛ لأنّه يعطي رؤية تكامليَّة بين الوحي والعقل، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأنعام: ١٦٢]، فلا فصل بين المناسك العباديَّة والشؤون الحياتيَّة.

٤. الوعي الهادف:

يرسخ الإنسـان المبدأ الغائي في الخلق، وأنّ خلق الإنسان واسـتخلافه في الأرض وإرسال الرسـل لم يكن عبثًا، بل لغايات عُليا، كقوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦]، وكقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ...**﴾ [الحديد: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ**

فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، فالوحي يرشد العقل للغاية من الخلق، وهدف الإيجاد، وعلى العقل إيجاد سبل تحقيق تلك الغاية والأهداف.

٥. الوعي المسؤول:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وهذه القاعدة الوحيانيَّة تؤكّد على الترابط الوثيق بين الوحي والعقل، فالأول بها يحيل النص إلى التثبت والتيقّن في الاتباع، وألَّا نقتفي أثرًا أو نتّبع شخصًا، أو فكرة دون دليل، فالعلم شرط للاعتقاد والمعرفة.

فالإنسان مسؤول عن الموثوقيَّة في مصادر الوعي والمعلومات (السمع، البصر)، وكذا هو مسؤول عن دقة استعمال (الفؤاد) بوصفه أداة لمعالجة تلك المعارف المُستقاة من مصادر المعرفة.

إنّ التكامل بين الوحي والعقل وفقا للرؤية القرآنيَّة يصنع وعيًا متزنًا، وشموليًّا، وهادفًا، له القدرة على مواجهة التحدّيات المعرفيَّة الراهنة، ومكوّنًا وعيًا حرًّا من سلطة الهوى، والتقليد الأعمى، محقّقًا للهدف الإلهي من خلق الانسان واستخلافه في الأرض.

خامسًا: أثر الحكم الرشيد في حماية الوعي

تعدّ مسألة الوعي من أخطر المسائل المعاصرة، والتي تعمل على تزييفه أنظمة السيطرة العالميَّة -بقواها الماليَّة والإعلاميَّة والثقافيَّة-؛ لأنّ الوعي الحُرّ أخطر ما يهدّد وجودها، فأخذت تعمل على تشكّل وعي زائف يخدم مصالحها، ويحقّق هيمنتها العالميَّة، ما جعل المسؤوليَّة مضاعفة على الحكم الرشيد بتحمّل أعباء حماية الوعي الإنساني الحرّ من غزو الوعي الزائف الذي تصنعه القوى والنخب المسيطرة؛ لتحقّق مصالحها، فيتوهّم الناس بأنّ وعيهم حقيقيّ، بينما هو يضرّ بمصالحهم ويخدم تلك القوى المُهيمنة، والتي تتخذ وسائل عدّة، لتحقيق تلك الأهداف، منها:

١. هدم الثوابت: أي العمل على تفكيك الأسس والثوابت القِيَميَّة التي تشكّل عقيدة الفرد، كالأخلاق، والأسرة، والدين، والتأريخ...إلخ، عن طريق نشر الشبهات والفتن

بـين الأفراد والجماعات والمذاهب، والتركيز على نقاط الافتراق وإن كانت بسـيطة جدًّا، وجعلها محلاًّ لتفكك الأسر والمجتمعات، وبالتالي استلاب الهويَّة، وسهولة الانتماء لتلك القوى التي تصوّر أنّ وعيها حقّ.

٢. استبدال المفاهيم: تضمّ المنظومة الإسـلاميَّة مجموعة من القِيَم والمفاهيم الفرديَّة والاجتماعيَّة، التي تتناغم مـع الفطرة والعقل والوحي، والتي يؤدّي الاعتقاد بها الى خلق وعي إنسـانيّ راسـخ، يحافظ على حدود الأفراد وواجباتهم، ويبيّن حقوقهم. ولإدراك القوى خطورة هذه المفاهيم سارعت لتشويهها، والضخّ الإعلاميّ للتثقيف على إيجاد البديل الموضوعيّ الذي يخدم مصالحهم، فمثلاً تشـويه مفهوم الجهاد وربطه بتيَّارات متطرّفة، جرى دعمها من قِبَلهم إعلاميًّا وماليًّا وعسكريًّا للقيام بعمليات إرهابيَّة، ثمّ ربط تلك الحركات بمسمّى الجهاد، فأخذ الناس ينفرون من هذا التسمية؛ لارتباطه بتلك الحركات المتطرّفة، وأخذ مفهوم (الإرهاب) يحلّ محلّ الجهاد، وغيره من المفاهيم، كالحريَّة الشخصيَّة، وتمكين المرأة، والجنوسة...إلخ.

٣. الثقافـة الغربيَّـة: عملت القوى العالميَّة على التقليل من شـأن العـادات والثقافات العربيَّة والإسـلاميَّة، وربطه بالرجعيَّة والتخلّف، وتصويـر الحياة الغربيَّة بأنها خالية من المساوئ، ويجب على الفرد تقليد تلك الثقافة حتى بأسماء الأطعمة، واللباس، والأثاث، والعادات والكلام...إلخ.

٤. فرّق تسد: أدركت القوى الغربيَّة أنّها لم تتمكّن من خلق وعي مضادّ، والسيطرة على المجتمعات العربيَّة والإسـلاميَّة مـا دام هناك تكاتف واجتماع على مبادئ إنسـانيَّة وإسلاميَّة، والاعتقاد بأنّه (أمَّة واحدة)، فأخذت بخلق النزاعات الطائفيَّة، والمذهبيَّة والكراهيـة، والتقاتـل بين الشـعوب والدول بعد ترسـيم حدودهـم، وبثّ خطاب الكراهيـة، ودعم الجماعـات المتطرّفة، فأخذت الأمة بالتمـزّق، والتفرّق، وأخذت بصناعة عدوٍّ وهميٍّ، وتوجيه الشـعوب نحوه، فأخذت بعض الجماعات تنسلخ من هُويّتهـا، وتنبذ مجتمعاتهـا، وبالتالي وجدت في الغرب ما يشـبع رغباتها بديلاً عن مجتمعاتهم، وعاداتهم، وعدم الاهتمام بشـؤون الأمة، وبالتـالي بدأت تلك القوى

بالسيطرة على الشعوب والدول، وليست القضيَّة الفلسطينيَّة عنا ببعيدة.

وغيرها من الوسائل والأدوات والمناهج التي اتخذتها القوى العالميَّة لخلق وعي زائف في قبال الوعي الإنسانيّ والإسلامي الحقّ.

سادسًا: الحكم الرشيد ومواجهة الوعي الزائف:

بعد أن اتّضحت وسائل القوى العالميَّة المهيمنة وأهدافها لصناعة وعي زائف في قبال الوعي الإسلامي، يلقى على عاتق الحكم الرشيد مواجهة الوعي الزائف، والحفاظ على الوعي الإسلامي.

وعُرّف الحكم الرشيد بأنّه: «الحكم الذي تتسم به مؤسّسات الدولة بالشفافيَّة في تضمين مَهامها وأنشطتها الرئيسة، مثل الانتخابات، والإجراءات القانونيَّة، ويجب أن تتعامل بنزاهة ومسؤوليَّة أمام الشعب...»[1]، وغيرها من التعاريف، لكنّنا يمكن أن نعرّفه وفقا للرؤية الإسلاميَّة بأنّه: إدارة الدولة وفقًا لمبادئ العدل الشورى، بما يحقّق مقاصد الشريعة، ضمن منظومة خُلُقيَّة مستندة إلى الوحي والعقل.

ولكي تحقّق الدولة الإيمانيَّة أهدافها، فهي تقوم بـ:

١. إعلاء شأن الإنسان بوصفه خليفة لله على الأرض، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ [البقرة: ٣٠].

٢. الالتزام بالعدل والشورى والحريَّة المسؤولة، قال تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ [الشورى: ٣٨].

٣. الحفاظ على القيم الإنسانيَّة وتفعيلها في الواقع، قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ...**﴾ [النحل: ٩٠-٩١].

ولمواجهة الوعي الزائف يقوم الحكم الرشيد بالآتي:

---

١ - أولاد زاوي عبد الرحمن وعباس طلال: دور الحكم الرشيد في التنميَّة المستدامة، ص٣.

١. التحصين الفكري: يقوم الحكم الرشيد بترسيخ القِيَم القرآنيَّة، والتربية الإسلاميَّة الأصيلة، في المناهج المعرفيَّة والتربويَّة؛ لتجعل المواطن واعيًا بدينه وهُويّته، مع تنمية التفكير النقدي؛ حتّى يُميّز الوعي الزائف، ويكون عارفًا بأساليبه وطرقه، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]، فيجب أن يكون الفرد واعيًا بدينه، وعلى بصيرة به، وبالتالي خلق حصانة لدى الفرد المسلم من مزالق القوى العالميَّة.

٢. العدالة الاجتماعيَّة: إن الظلم والفساد الاجتماعيَّيْن والسياسيَّيْن يُعدّ من أسباب وجود الوعي الزائف، الذي يبرّر الاستبداد، فيقوم الحكم الرشيد بمَهمَّة نشر العدالة الاجتماعيَّة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، وقد بيّن أمير المؤمنين عليه السلام ذلك في وصيّته لـ (مالك الأشتر) بقوله: "وأشعِر قلبك الرحمة للرعيَّة، والمحبَّة لهم، واللطف بهم. ولا تكونن عليهم سبعًا ضاريًا تغتنم أكلهم، فإنّهم صنفان؛ إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق..."[1]، فيجب على الدولة أن تراعي حقوق الأفراد كافّة بمختلف توجّهاتهم العقديَّة والسياسيَّة والفقهيَّة، وضمان الحريَّة لهم.

٣. المواجهة الإعلاميَّة: يتّخذ أصحاب الوعي المزيّف أحدث الوسائل والتقنيّات الإعلاميَّة؛ لنشر الوعي المزيّف، ما يستدعي بالحكم الرشيد أن يقوم بالتصدّي لذلك الغزو الثقافي والإعلامي، وبيان مواطن الخلل فيه، وتفكيك أسسه، ويتطلّب كذلك تفعيل دور العلماء والمختصّين، الذين يحيون الوعي الفطريّ، ويبيّنون زيف الوعي المضلّل وأدواته.

٤. ربط الوعي بالبعد الإيماني: إن مما يهدف إليه أصحاب الوعي الزائف، هو فصل الفرد عن إيمانه وأخلاقه حتى يسهل انقياده، والحكم الرشيد يعزّز القيم الإيمانيَّة

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج٣٣، ص٦٠٠.

والخُلُقيَّـة ويربطها بالوعــي؛ ليكون الفرد قادرًا على مواجهة الإغراءات، وقد أشــار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩]، فالإيمان والتقوى تفعّلان العقل ليميّز بين الحق والباطل.

هذه المَهام، وغيرها مما لا يســع البحث لذكرها، تقوم بها الدولة الإيمانيَّة أو الحكم الرشــيد لخلق وعي إنســاني حرّ قائم على ربط الجانب الإيماني والوحيــاني، بالعقل، ومواجهة الوعي الزائف.

خاتمة:

بعد هذا العرض، تبيّن الآتي:

١. أن الوعي وفقا للرؤية القرآنيَّة لا يعد إدراكًا ذهنيًّا أو تراكما معرفيًّا فقط، بل هو عمليَّة تكامليَّة بين العقل بوصفه أداة للتفكير والاستدلال، و(الوحي) باعتباره مرجعيَّةً هادية للعقل، وموجّهة له نحو الصواب، لا ينتج أحدهما دون الآخر الغاية المتوخّاة، فالعقل دون الوحــي عرضة للانحراف، والوحي دون العقــل يبقى بعيدًا عن التفعيل والفهم الواعي. لذا، إن صناعة الوعي وفقًا للرؤية الإسلاميَّة قائمة على التكامل بينهما، فينتجا وعيًا نقديًّا حرًّا، يحرّر الإنسان من أسر التقليد والهوى والتضليل.

٢. يقوم (الوعي في الإســلام) على الالتزام الخُلُقي، بينما يرتكز (الوعي المزيّف) على قلب الحقائــق، وإخضاع العقول لهيمنة القوى المســيطرة. لذا، كان على المجتمع المسلم ـ أفرادًا ومؤسسات ـ مسؤوليَّة صيانة هذا الوعي وحمايته من التزييف.

٣. لا تقتــصر وظيفــة (الحكم الرشــيد والدولة الإيمانيَّــة) على إدارة الشــؤون الدنيويَّة فحســب، بل تتجاوزها إلى بناء الوعي المجتمعي الســليم، عن طريق ترســيخ مبدأ الحريَّة المســؤولة والعدل والشورى، وتفعيل البعد الإيماني، ما يفضي إلى تحصين المجتمع على المستوى المعرفي والتربوي. والقدرة على مواجهة موجات التضليل، وكشف آليّات الوعي الزائف.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- محمـد بن أحمد الأزهري (ت: ٣٧٠هـ): تهذيب اللغـة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
- أولاد زاوي، عبد الرحمن وعباس طلال: دور الحكم الرشـيد في التنميَّة المستدامة، الملتقى الدولي الخامس حول الانفاق البيئي بين حاجات التنميَّة المستدامة ومتطلبات الحكم الرشيد، الجزائـر،٢٠١٨م.
- أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ): أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشـلي، دار إحياء الـتراث العربي – بيروت، ط١، ١٤١٨ هـ.
- أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ): المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشاميَّة - دمشق بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ.
- إبراهيـم بن السري الزجاج (ت: ٣١١هـ): معاني القرآن وإعرابه، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر، عالم الكتب – بيروت، ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- جعفر السبحاني: العقيدة الإسلاميَّة على ضوء مدرسة أهل البيت (ع)، تحقيق وتعريب : جعفر الهادي، ط١، ١٤١٩ - ١٩٩٨ م
- ناصر مكارم الشـيرازي: تفسير الأمثل في تفسير كتاب الله المنزّل، مدرسة الامام علي بن ابي طالب، قم- ايران، ط١، ١٣٧٩هـ ش.
- أبو بكر عبد الرزاق الصنعاني (ت: ٢١١هـ): تفسـير عبد الرزاق، دراسة وتحقيق: د. محمود محمـدعبـده،دارالكتـب العلميَّـةبـيروت،ط١،١٤١٩هـ.
- محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسـين بقم المشرفة، د.ت.

- أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت: ٥٤٨هـ): مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت – لبنام، ط١٤١٥،١ - ١٩٩٥ م.
- أبو جعفر محمد الطوسي (ت:٤٦٠هـ): التبيان في تفسير القرآن، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصر العاملي، مكتب الإعلام الإسلامي، ط١٤٠٩،١هـ.
- محمد الطاهر بن عاشور (ت: ١٣٩٣ هـ): التحرير والتنوير [تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد]، الدار التونسيَّة للنشر – تونس، ١٩٨٤ م- ١٤٠٤ هـ.
- أحمد بن فارس (ت: ٣٩٥هـ): معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: ١٧٠هـ): كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
- عبد الكريم بن هوازن القشيري: (ت: ٤٦٥هـ)، لطائف الإشارات (تفسير القشيري)، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب – مصر، ط٣.
- أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت: ١٠٩٤هـ): الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغويَّة، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت.
- أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني (ت:٣٢٩هـ): الكافي، صححه وعلق عليه: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الاسلاميَّة، تهران، ط٣، ١٣٨٨هـ.
- محمد باقر المجلسي (ت:١١١١هـ): بحار الأنوار الجامع لدرر اخبار الأئمة الأطهر، تحقيق: محمد مهدي الخرسان وآخرون، مؤسسة الوفاء، بيروت-لبنان، ط٢، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
- محسن قراءتي: تفسير النور، ترجمة: حسين صافي، دار المؤرخ العربي، بيروت-لبنان، ط١، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.
- محمد المصطفوي: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مركز نشر آثار العلامة المصطفوي، بيروت – لبنان، ط٣، ٢٠٠٩م.

- محمد بن مكرم بن منظور (ت: ٧١١هـ): لسان العرب، دار صادر - بيروت، ط٣، ١٤١٤ هـ.
- أبو هلال العسكري الحسن بن عبد الله (ت: نحو ٣٩٥هـ): الفروق اللغويَّة، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، لا ط، لا ت.

End of Hegemonic Illusion

Rethinking of American Power, Its Structural Limits

■ Dr. Mohammad al-Mustari[1]

Abstract

This article offers a critical reading of the discourse of American hegemony as it has become entrenched in international consciousness, highlighting the erosion of this discourse in light of profound geopolitical transformations that have revealed the limits of American power and its structural contradictions.

The analysis proceeds from the premise that this hegemony was not built on moral or civilizational superiority, but rather on strategic cunning and the exploitation of moments of international exhaustion, as in World War II. The article relies on the tools of symbolic critical analysis, drawing on the works of Foucault, Edward Said, Baudrillard, and Gramsci, to understand the role of the media, elites, and the global cognitive system in producing and promoting the illusion of hegemony. It also reviews major structural failures in Vietnam and Afghanistan, and the crises of sanctions and alliances.

The article concludes with a call for the liberation of strategic awareness and the establishment of an alternative cognitive and sovereign project that transcends dependency and establishes more equal and balanced international relations.

Keywords:

American Hegemony, Strategic Deception, Media, Knowledge and Power, Subordinate Elites, Critique of Power.

1 - Doctoral researcher in Sociology, Faculty of Humanities and Social Sciences, Ibn Tofail University - Kenitra, Morocco

نهاية وَهْمِ الهيمنة

-في نقد خطاب القوَّة المطلقة الأمريكيَّة وحدودها البِنيويَّة-

■ محمد المستاري[1]

ملخّص

يقـدّم هذا المقال قراءة نقديَّة لخطاب الهيمنة الأمريكيَّة كما تكرّس في الوعي الدولي، مـبرزًا تآكل هذا الخطـاب في ضوء تحولات جيوسياسـيَّة عميقة، كشـفت حدود القوَّة الأمريكيَّـة، وتناقضاتهـا البنيويَّة. ينطلـق التحليل من فرضيَّة، مفادهـا: أنّ هذه الهيمنة لم تُبنَ على تفوق خُلُقيّ أو حضاريّ، بل تأسَّسـت على مكر استراتيجيّ، واستثمار لحظات الإنهاك الدَّوليّ، كما في الحرب العالميَّة الثانية. يعتمد المقال على أدوات التحليل النقديّ الرمزيّ، مسـتندًا إلى أعمال (فوكو)، و(إدوارد سـعيد)، و(بودريـار)، و(غرامشي)، لفهم دور الإعـلام، والنخب، والنظام المعـرفيّ العالميّ في إنتاج وَهْـمِ الهيمنة وترويجه. كما يسـتعرض إخفاقات بنيويَّة كبرى في فيتنام، وأفغانستان، وأزمات العقوبات والتحالفات. ويختتم بدعوة إلى تحرّر الوعي الاسـتراتيجيّ، وتأسـيس مشروع معرفيّ وسياديّ بديل، يتجاوز التبعيَّة، ويؤسِّس لعلاقات دَوليَّة أكثر نديَّة وتوازنًا.

الكلمات المفتاحية: الهيمنة الأمريكيَّة، المكر الاسـتراتيجيّ، الإعلام، المعرفة والسـلطة، النخب التابعة، نقد القوَّة.

---

١ - باحث بسلك الدكتوراه في علم الاجتماع، كليَّة العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، جامعة ابن طفيل – القنيطرة، المغرب.

مقدِّمة

تتربَّع الولايات المتحدة الأمريكيَّة، منذ نهاية الحرب الباردة، على قمَّة النظام الدَّوليّ، بوصفها الفاعـل المركزيّ في صياغـة التوازنات الجيوسياسـيَّة، وإدارة النزاعـات، والتحكم في آليَّات الاقتصاد العالمي ومساراته. وقد ترسّخت صورة «القوَّة المطلقة» للولايات المتحدة، ليس فقط من خلال قدراتها العسكريَّة والتكنولوجيَّة والاقتصاديَّة، بل أيضًا عبر خطاب إعلاميّ وأكاديميّ ضخم، يسـوّق لها، بوصفها «قوَّة اسـتثنائيَّة»، تمتلك شرعيَّة القيادة والتدخّل باسـم «الحريَّة»، و«الديمقراطيَّة»، و«حقوق الإنسان».

لكن هذه الصورة المثاليَّة لا تصمد أمام تفكيك نقديّ للوقائع والتجارب التاريخيَّة والمعاصرة؛ حيث تبرز سلسلة من المفارقات البنيويَّة والتناقضات العمليَّة التي تشكّك في حقيقة هذه الهيمنة وجدواها. فهل تمثّل القوَّة الأمريكيَّة حقيقة استراتيجيَّة راسخة؟ أم أنّها وَهْم متقن الصياغة يُسوّق بمهارة عبر منظومة رمزيَّة متشابكة؟ وهل لا تزال الولايات المتحدة الأمريكيَّة تمثّل مركز الجاذبيَّة الدوليَّة كما كانت في السابق، أم أنّ قوَّتها تواجه حدودًا بنيويَّة آخذة في التآكل؟

إنّ مُساءَلَة «الهيمنة» هنا، لا تعني إنكار تفوّق مادّي أو تفوّق نسبيّ في مجالات معيّنة، بل تعني فحص شروط هذا التفوّق، وحدوده، وأوهامه. فكثير من الدول – خاصّة في العالم العربيّ – بنت خياراتها الاسـتراتيجيَّة والاقتصاديَّة على رهان «الحماية الأمريكيَّـة»، ودفعت -ولا تزال- تدفع أثمانًا باهظة نتيجة هذا الارتهان. لذلك، يصبح من الضروريّ، في هذا السـياق، تفكيك خطاب الهيمنة الأمريكيَّة، وفهم كيف يُصنع هذا الوَهْم، ولماذا يسـتمرّ رغم شواهد الواقع التي تنقضه، ومن المستفيد من إعادة إنتاجه داخل المنظومات الإعلاميَّة والسياسيَّة.

وعليه، لا يُقارب هذا المقال خطاب الهيمنة الأمريكيَّة من زاوية استراتيجيَّة أو سياسيَّة فحسب، بل يسعى أيضًا إلى مُساءَلة التمركز الأمريكيّ في إنتاج المعنى داخل الحقول الجيوسياسيَّة والمعرفيَّة. فالإشكال لا يقتصر على هيمنة الأدوات، بل يمتدّ إلى هيمنة التأويل؛ حيث تُحتكر مفاهيم، مثل «النظام العالميّ»، و«الحماية»، و«الشرعيَّة»، من موقع مركزيّ يدّعي الكونيَّة. ومن ثَمّ، تُعدّ هذه المساهمة محاولةً لتحرير النقاشات الفكريَّة والاستراتيجيَّة من هذا التمركز الرمزيّ، وفتح أفقٍ نظريّ بديل، يفسح المجال لتعدّد المواقع والمرجعيّات في فهم السلطة والعلاقات الدَّوليَّة.

أوَّلًا: خطاب القوّة الأمريكيَّة بين الواقع والوَهْم

من يقرأ الخارطة الجيوسياسيَّة الدَّوليَّة قراءة كمِّيَّة أو سطحيَّة، قد ينخدع بسهولة ببريق القوَّة الأمريكيَّة الظاهرة. فهي تمتلك أكبر اقتصاد في العالم، وتُنفق أكثر من أي دولة أخرى على التسلّح، وتُصدّر ثقافتها إلى أقاصي الأرض. لكن هذا التمظهر الكمِّيّ يخفي في طيَّاته تشقُّقات بنيويَّة عميقة، تكشف عن تناقض صارخ بين مظهر التفوّق وفعاليته الحقيقيَّة.

١. الاقتصاد الأمريكيّ: قوّة الدَّيْن لا قوة الإنتاج؟

لا شكّ أنّ الولايات المتحدة لا تزال تُعدّ قوّة اقتصاديَّة كبرى، بفضل هيمنة شبه مطلقة للدولار، وانتشار كثيف لشركاتها في الأسواق العالميَّة. لكنّ هذه الهيمنة تقوم، في جانب كبير منها، على آليّات الاستدانة والتمويل بالعجز، لا على إنتاجيَّة حقيقيَّة، أو توازن داخليّ مستدام. فقد تجاوز الدَّيْن العام الأمريكي، حتى مارس ٢٠٢٥، سقف ٣٦,٢ تريليون دولار، وفق بيانات وزارة الخزانة الأمريكيَّة[1]، بينما يُتوقّع أن يبلغ العجز الفيدراليّ السنويّ قرابة ١,٩ تريليون دولار خلال العام نفسه، بحسب تقرير مكتب الميزانيَّة في الكونغرس[2]. وعلى مستوى التجارة الخارجيَّة،

1 - U.S. Department of the Treasury, Monthly Statement of the Public Debt of the United States.

2 - Congressional Budget Office: The Budget and Economic Outlook: Fiscal Years 2025 to 2035.

سـجّلت الولايات المتَّحدة عجزًا تجاريًّا في السلع تجاوز ١,٢ تريليون دولار عام ٢٠٢٣، في دلالة على اعتماد متزايد على الواردات الرخيصة بدل التصنيع المحلِّيّ[١].

في هذا السياق، يمكن استحضار ملاحظة (نعوم تشومسكي- Noam Chomsky) عن الطابع «غير المستدام» للقوّة الامبرياليَّة، التي تستنزف ثروات الآخرين، وتُغلّف هذا الاستنزاف بخطاب التقدّم والازدهار[٢]. كما يشـير (إيمانويل والرشـتاين- Immanuel Wallerstein)، في تحليله لنظام الاقتصاد العالميّ، إلى أنّ الاقتصاد الأمريكيّ يعيش ما يسـمّيه «مرحلة القطبيَّة المتأخّرة»؛ حيث يتآكل التفوق بفعل التنافس الصاعد من قوى، مثل الصين والهند، وبفعل اختلال التوازن البنيويّ بين الإنفاق العسكريّ والإنتاج المدنيّ[٣].

٢. التفوّق العسكريّ وحدود السيطرة

من منظور كمِّيّ، لا تضاهي أيّ دولة في العالم حجم الإنفاق العسكريّ الأمريكيّ[٤]، ولا امتداد قواعدها العسكريَّة المنتشرة عبر أكثر من ٧٠ بلدًا وإقليما[٥]. لكنّ هذا التفوّق الظاهر لم يُترجم، خلال العقود الأخيرة، إلى سيطرة استراتيجيَّة حقيقيَّة، أو إنجازات استراتيجيَّة طويلة الأمد. فقد أخفقت الولايات المتَّحدة في حسـم حروب كبرى، رغم تفوّقها العسكريّ والتكنولوجيّ، كما في العراق وأفغانسـتان، وأظهرت محدوديَّة قدرتها على التأثـير في نزاعات إقليميَّة معقّدة، كما في سوريا واليمن وأوكرانيا.

إنّ هذا التناقض بين التفوّق العسكريّ الكمِّيّ والإخفاقات الاستراتيجيَّة المتكرّرة، يُذكّرنا بما

1 - U.S. Census Bureau, U.S. International Trade in Goods and Services: Annual Report 2023.

2 - Noam Chomsky: Hegemony or Survival: America's Quest for Global Dominancel, p.142.

3 - Immanuel Wallerstein: The Modern World-System I: Capitalist Agriculture and the Origins of the European World-Economy in the Sixteenth Century, pp.15–18.

4 - Stockholm International Peace Research Institute (SIPRI), World Military Expenditure Grows to $2.44 Trillion in 2023, with the US Accounting for 37.5%.

5 - David Vine: The United States of War: A Global History of America›s Endless Conflicts, from Columbus to the Islamic State (Berkeley: University of California Press, 2020), pp.8–9.

قاله (ميشيل فوكو- Michel Foucault) عن علاقة السلطة بالقوّة: فالقوّة ليست فقط في التدمير أو الإخضاع، بل في القدرة على إنتاج الطاعة وتنظيم المجال. وكما يوضح (فوكو): «السلطة ليست مجرّد أداة قمع، بل هي منتِجة؛ فهي تنتج معرفة، وخطابات، وأشكالاً من الطاعة والسلوك»[1]. ولهذا، فإنّ محدوديَّة القوّة الأمريكيَّة لا تكمن في إخفاقاتها الميدانيَّة فحسب، بل في عجزها عن تأسيس نظام طاعة دائم يُعيد إنتاج النظام وفق شروطها، ما يجعلها أقرب إلى قوّة إخضاع ظرفيّ، لا إلى هيمنة مستدامة.

٣. تآكل القوّة الناعمة: من الجاذبيَّة إلى الرفض

كانت الثقافة الأمريكيَّة، في النصف الثاني من القرن العشرين، مصدرًا مُهمًّا للنفوذ الرمزيّ والسيطرة الناعمة. فقد اجتاحت السينما، والموسيقى، والتكنولوجيا الأمريكيَّة مخيِّلة الشعوب، وأسَّست لنموذج يُنظر إليه باعتباره رمزًا للتقدّم والحريَّة. لكن هذا البريق بدأ يخفت تدريجيًّا بفعل التناقضات البنيويَّة في الداخل الأمريكيّ: تصاعد العنصريَّة، والانقسامات الحزبيَّة العنيفة، وتفكّك الخطاب الديمقراطيّ، وفضائح التمييز العنصري والقمع الداخليّ.

في هذا السياق، يرى (جان بودريار- Jean Baudrillard)، في تحليله للثقافة الأمريكيَّة، أنّ ما يُقدَّم بوصفه «نموذجًا عالميًّا» ليس سوى «محاكاة رمزيَّة» (simulacrum)، تُخفي هشاشة بنيويَّة خلف واجهة لامعة من البهرجة[2]. لقد أصبحت القوّة الناعمة الأمريكيَّة، كما يضيف، ضحيَّة لنجاحها المفرط؛ إذ تحوّلت من أداة إقناع رمزيّ إلى آليَّة لتكرار الذات وتبرير السيطرة، ما أفقدها كثيرًا من مشروعيّتها الخُلُقيَّة في نظر شعوب الجنوب العالميّ.

ثانيًا: «شُرطيّ العالم» أم وكيل مصالح؟ تفكيك الخطاب التدخّليّ

من أكثر الصور التي تكرّست في الوعي العالمي بشأن الدور الأمريكيّ، هي صورة «شُرطيّ العالم» الذي يراقب، ويتدخّل، ويعاقب متى شاء وأين شاء، تحت ذريعة حماية «النظام الدَّوليّ»

1 - Michel Foucault: Discipline and Punish: The Birth of the Prison, p.194.

2 - Jean Baudrillard: Simulacra and Simulation, pp.6–7.

و«القِيَـم الكونيَّة». لكنّ هذا الدور المزعـوم لم ينبثق من شرعيَّة قانونيَّة دوليَّة، بقدر ما تشـكّل بوصفـه نتاجًا مباشرًا لاختـلال موازين القوى بعد الحرب العالميَّة الثانيـة، وتحديدًا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي؛ حيث استغلّت الولايات المتحدة فراغ القطبيَّة الثنائيَّة، لتقديم نفسها باعتبارها الضامن الوحيد للاستقرار العالميّ. لكنّ الممارسة العمليَّة لهذا الدور سرعان ما كشفت عن وجه مزدوج: خطاب كونيّ مُجمَّل بالشرعيَّة، ومصالح جيوسياسيَّة مُحرّكة بمنطق الهيمنة.

١. التدخّل باسم «الشرعيَّة الدوليَّة»: ازدواجيَّة لا اتساق

كثيراً ما تُبرّر الولايات المتحدة تدخّلاتها العسكريَّة أو الاقتصاديَّة تحت يافطات مثل «الشرعيَّة الدوليَّة» و«حماية القيم الديمقراطيَّة». لكنّ هذه المبرّرات تنهار أمام انتقائيّتها الصارخة في اختيار مناطق التدخّل وأطراف النزاع. فبينما شـنّت حربًا على العراق عـام ٢٠٠٣ دون تفويض أُمَمِيّ صريح، تقاعسـت عن التدخّـل في رواندا أثناء الإبادة الجماعيَّة سـنة ١٩٩٤، وغضّت الطرف عن انتهاكات جسيمة تُرتكب في دول حليفة، طالما لم تمسّ مصالحها الاستراتيجيَّة المباشرة.

يتجـلّى هذا التواطـؤ بوضوح في الصمت الأمريـكيّ المتكرّر تجاه الجرائـم الإسرائيليَّة في فلسـطين ولبنان؛ حيث تُمنَح إسرائيل غطاءً دبلوماسـيًّا وسياسـيًّا يحول دون أيّ مساءلة دوليَّة، رغم توثيق انتهاكات جسيمة للقانون الإنسانيّ الدوليّ من قِبل منظّمات أُمميَّة وحقوقيَّة مستقلّة.

يُحيل هذا التوظيف الانتقائي لمفهوم الشرعيَّة إلى ما وصفه (إدوارد سعيد) بـ«الخطاب الامبريالي»، الذي يوظّف مفاهيم نبيلة، مثل «الحريَّة»، و«حقوق الإنسان»، و«التحرير»، لتبرير التوسّع والهيمنة، وليس لخدمة المبادئ ذاتها. فالشرعيَّة، في هذا السـياق، لا تُمارَس باعتبارها قانونًا أُمَمِيًّا موحَّدًا، بل تُختزل في أداة خطابيَّة مرنة، تُطوّع وفق المصالح الجيوسياسيَّة، لا وفق مبادئ العدالة الدوليَّة[1].

٢. غياب التفويض الدوليّ والدور الاستعماريّ المقنّع

يتعارض التدخّل الأمريكي المتكرّر في شؤون الدول مع مبدأ السيادة الوطنيَّة المنصوص عليه

١ - إدوارد سعيد: الثقافة والامبرياليَّة، ص٢١.

في ميثاق الأمم المتحدة. فالولايات المتحدة لا تملك تفويضًا دائمًا أو شرعيًّا يخوّلها لعب دور «السلطة التنفيذيَّة الكونيَّة». ومع ذلك، تتعامل مع المؤسَّسات الدوليَّة باعتبارها أدوات وظيفيَّة تُفعّلها عندما تخدم مصالحها، وتتجاوزها حين تُقيّد تدخّلاتها، أو تُشكّك في مشروعيَّة أفعالها.

في هذا السياق، يُبرز (ميشيل فوكو)، في تحليله لعلاقة السلطة بالمعرفة، أنّ ما يُسمّى بـ «السلطة الخطابيَّة» يُمكّن القوى المهيمنة من إنتاج واقع، تُمارَس فيه السيطرة باسم القانون، حتى في غياب شرعيَّة مؤسَّساتيَّة حقيقيَّة؛ إذ ليست المسألة في وجود القانون، بل في احتكار تفسيره، وتحديد معاييره، وتطبيقه على نحو انتقائيّ[1]. وهو ما تمارسه الولايات المتحدة تحديدًا، حين تُنصّب نفسها المرجع الوحيد في تحديد من هو «الإرهابيّ»، وما هو «الاستقرار»، ومن يُمثّل «التهديد»، وفق أجندتها الجيوسياسيَّة الخاصّة.

ضمن هذا الإطار، يمكن النظر إلى الدور الأمريكي في العالم بوصفه امتدادًا لـ «استعمار مقنّع»، لا يُمارَس عبر الاحتلال المباشر، بل من خلال آليّات التفوّق الرمزيّ والاقتصاديّ، أو عبر التدخّلات العسكريَّة ذات الطابع «الإنسانيّ» أو «الوقائيّ»، كما يتجلّى في نماذج العراق وليبيا، أو من خلال الدعم الاستخباراتيّ واللوجستيّ في مناطق النزاع بأفريقيا وأمريكا اللاتينيَّة.

٣. تراجع الثقة الدوليَّة في الدور الأمريكيّ بصفته مؤتمنًا

مع تكرار التجارب التي كشفت محدوديَّة فاعليَّة التدخّلات الأمريكيَّة وانحيازاتها البنيويَّة، بدأ التآكل يصيب صورة الولايات المتحدة بصفتها قوّة «ضامنة» للأمن والاستقرار. لم تعد القوى الدوليَّة الأخرى - كألمانيا وفرنسا - ترى في واشنطن فاعلاً محايدًا، بل باتت تعدّها «مُحدِّدًا سياسيًّا عالميًّا» يفرض أجنداته الخاصّة على الجميع، حتى لو كان ذلك على حساب الشراكة والتحالف.

وقد كشفت السنوات الأخيرة عن مؤشّرات متراكمة لهذا التراجع: ازدياد اعتماد أوروبا على منظومات دفاعيَّة مستقلّة نسبيًا عن الناتو، وتصاعد النزعة السياديَّة في عدد من دول الجنوب،

---

١ - ميشيل فوكو: المعرفة والسلطة، ص٣٩.

وتنامـي النفوذ الروسيّ والصينيّ في مناطق، كانت تُعتـبر تاريخيًّا ضمن دائرة النفوذ الأمريكيّ، إلى جانب تصاعد الانتقادات الدوليَّة لتدخّلات واشنطن الاقتصاديَّة والعسكريَّة.

في هذا السـياق، يرى (جـان بودريار) أنّ «محاكاة القوّة الأمريكيَّة أصبحت مكشـوفة»، وأنّ «الولايات المتحدة لم تعد قادرة على تسويق صورتها كما في السابق»؛ لأنّ القوة – حين تنفصل عن الواقع – تتحوّل إلى عبء رمزيّ لا يُقنع أحدًا[1]. فلم تعد المصداقيَّة تُبنى وتمُنح عبر الخطاب وحده، بل على اتسـاق السياسـات مع القِيَم المُعلنة. وعندما تنكشف الهوّة بين القول والفعل، تتحوّل الهيمنة من جاذبيَّة إلى عزلة، ومن مركز استقطاب إلى مصدر ارتياب.

ثالثًا: الضحايا الجانبيّون لوَهْم الحماية الأمريكيَّة

يشـكّل خطاب «الحمايـة الأمريكيَّة» ركيزة أسـاس في بناء التحالفات الدوليَّـة التي تقودها الولايـات المتحدة؛ حيث تُقدَّم نفسـها ضامنًا للاسـتقرار، وقـوّة رادعة ضدّ كلّ مـا يهدّد أمن حلفائها. لكنّ التجارب التاريخيَّة والمعاصرة تكشـف عن هشاشـة هذا الادّعاء، ليس فقط من حيث الفعاليَّة، بل كذلك من حيث انتقائيَّـة الالتزام، وتقدُّم المصالح الذاتيَّة الأمريكيَّة على أي اعتبارات استراتيجيَّة مشتركة.

فعندما تتعارض مقتضيات «الحماية» مع الحسـابات الجيوسياسيَّة لواشنطن، تتبخر الوعود سريعًا، ويتبدّد الوَهْم، وتتكشّـف حدود القـوّة المزعومة، لا نتيجة لهجـوم خارجيّ، بل بفعل التناقضات البنيويَّة الكامنة في هذا الدور. ويمكن تسـليط الضوء على أربع حالات دالّة تكشف هذه المفارقة بوضوح:

١. كرواتيا - خذلان الحليف الصغير

تمثّل الحالة الكرواتيَّة نموذجًا دالًّا على وَهْم «الحماية الأمريكيَّة» وهشاشـتها، لا سيّما عندما يتعلّق الأمر بحلفاء صغار في مواجهة قوى إقليميَّة صاعدة. ففي سياق التوتر المتصاعد بين روسيا

1 - Baudrillard: Simulacra, p. 21.

والغـرب على خلفيَّة الحـرب في أوكرانيا، صرّحت كرواتيا - رسـميًّا أو ضمنيًّـا - بأنها في صفّ الولايات المتحدة، وأعلنت أنّ «أمريكا معنا». لكن واقع الحال كشف أنّ هذا الاصطفاف لم يُقابل بضمانـات ردعيَّة كافية، بل اقتصر الدعم الأمريكيّ على تصريحات رمزيَّة ومسـاعدات محدودة التأثير، ما جعل الحماية الأمريكيَّة أقرب إلى أداة طمأنة خطابيَّة منها إلى التزام استراتيجي فعليّ.

هـذا النمط من الخـذلان، يُعيد إلى الأذهان ما يسـمّيه (نعوم تشومسـكي) بـ «البراغماتيَّة الامبرياليَّة» حيث لا تقوم التحالفات الأمريكيَّة على أسـاس القيم أو المبادئ المعلنة، بل تُبنى على منطق الجدوى السياسـيَّة قصيرة المدى. فالحليـف الصغير، ضمن هذه الرؤية، يظلّ قابلاً للتجاهـل أو الإزاحة متى انتفـت فائدته في معادلة النفوذ الجيوسـياسيّ، أو أصبح عبئًا لا يبرّر الكلفة السياسيَّة[1].

٢. إسرائيل: حماية مشروطة وقلق استراتيجيّ

رغم خصوصيَّة العلاقـة التي تجمع الولايات المتحدة بإسرائيل، والدعم العسـكري الهائل الذي تتلقّاه سـنويًّا، فإنّ التطوّرات الأخيرة - خصوصًا في سـياق المواجهة مع إيران أو فصائل المقاومة الفلسـطينيَّة - كشفت عن حدود الحماية الأمريكيَّة. فالتحرّكات الإسرائيليَّة المتطرّفة، كثيراً ما تضع واشـنطن في مأزق خُلُقي ودبلوماسيّ، وتُظهر أنّ الدعم الأمريكيّ، على الرغم من مظهره المطلق، تحكمه توازنات دقيقة واعتبارات اسـتراتيجيَّة معقّدة، وقد يكون مشروطًا بعدم تجاوز «الخطوط الحمراء» التي ترسمها السياقات الدوليَّة أو مصالح الولايات المتحدة الأوسع.

تكشـف هذه العلاقة عن مفارقة مركزيَّـة في التحالفات الأمريكيَّة: فالقـوّة الحامية لا تكون بالضرورة مستعدّة للدخول في مغامرات غير محسوبة دفاعًا عن حلفائها، بل تحافظ على هامش مناورة يضمن حماية مصالحها أولاً. وهذا ما يجعل إسرائيل، رغم تفوّقها العسـكريّ، في حالة قلق اسـتراتيجيّ دائم، إدراكًا منها أنّ الغطاء الأمريكي قابل للتراجع، أو الانكفاء متى ما تغيّرت الحسابات، أو تعارضت المصالح.

1 - Chomsky: Hegemony, p.68.

٣. الدول العربيَّة - ارتهان مقابل تبعيَّة

يمثّل ارتهان عدد من الـدول العربيَّة للحماية الأمريكيَّة أحد أكثر تجلّيات هذا الوَهْم فداحة. ففي مقابل التسـلّح المسـتمرّ، والعقود الأمنيَّة، والتطبيع الاسـتراتيجيّ مع واشنطن، تفقد هذه الدول تدريجيًّا اسـتقلال قرارها السـياسيّ، وتدخل في علاقات تبعيَّة اقتصاديَّـة وأمنيَّة تُقوّض قدرتها على بناء قوة ذاتيَّة فاعلة، أو رؤية استراتيجيَّة مستقلّة.

وقـد أفرز هذا الوضع ما يمكن تسـميته - اسـتعارة من (ميشـيل فوكو) - بـ «العقل الأمنيّ التابع»؛ حيث تُبنى السياسات العامّة على أساس الخوف الدائم من الانهيار الداخليّ أو التهديد الخارجيّ، ما يعزّز منطق الاستنجاد بالقوّة الخارجيَّة، ويُفرغ السيادة من مضمونها الفعليّ[1].

والمفارقة أنّ هذا الارتهان لا يشـكّل ضمانة للحماية، بل قد يتحوّل إلى مصدر هشاشة مضاعفة، حين تصبح الأنظمة أكثر عرضة للابتزاز السـياسيّ، أو للتخلّي عنهـا في اللحظة التي تتعارض فيها أولويَّاتها مع الأجندة الجيوسياسيَّة الأمريكيَّة. ففي منطق التحالفات الأمريكيَّة، لا يتحقّق تثمين الولاء في حدّ ذاته، بل يُقاس كلّ شيء بميزان الجدوى والامتثال الكامل للأولويَّات الاستراتيجيَّة لواشنطن.

٤. إيران: تحدٍ بنيويّ لوَهْم الردع الأمريكيّ

قـد تمثّل الحالة الإيرانيَّة أحد أبرز الأمثلة على حدود فاعليَّة الردع الأمريكي. فعلى الرغم من العقوبات الممتدّة، والحصار الاقتصاديّ، ومحـاولات العزل الدبلوماسيّ، لم تنجح الولايات المتحدة في كبـح الطموح الإقليميّ الإيرانيّ أو منع تمدده عبر شـبكات النفوذ الجيوسـياسي والإعلامي. بل إن هذا «التهديد» الإيرانيّ، بكلّ ما يحمله من مضامين استراتيجيَّة ورمزيَّة، تحوّل إلى مرآة تعكس هشاشة المظلّة الأمريكيَّة في حماية حلفائها.

لا تقدّم إيران، في هذا السياق، نموذجًا لانتصار عسكري أو دبلوماسيّ حاسم، بقدر ما تقدّم نموذجًا لتفكيك «الخوف من أمريكا» باعتباره رأسـمالاً رمزيًّا لطالما اسـتثمرت فيه واشـنطن. فعندما تفقد التهديدات الأمريكيَّة صدقيّتهـا، ينهار أحد أعمدة الهيمنة: الردع الرمزيّ. وعندها،

1 - Michel Foucault: Security, Territory, Population, p. 23.

لا يكون الخطر في فقدان السـيطرة فحسـب، بل في فقدان الرهبة التـي كانت تضفي على هذه السيطرة معناها ومشروعيّتها.

رابعًا: دلائل تآكل الهيمنة الأمريكيَّة - من الماضي إلى الحاضر

رُوّج للهيمنة الأمريكيَّة، منذ نهاية الحرب الباردة، باعتبارها واقعًا غير قابل للتحدّي، وسُوّقت على أنّها قدر تاريخيّ لا مفرّ منه. فقد ارتبط هذا الخطاب بسلسلة من الممارسات والوقائع التي أعطت انطباعًا بوجود قوّة مطلقة قادرة على التدخّل وفرض النظام متى وأين شـاءت. لكنّ هذا الانطباع، عند إخضاعه للتحليل الزمنيّ والاستراتيجيّ، يكشف عن تناقضات جوهريَّة: نجاحات آنيَّة لم تُفضِ إلى اسـتقرار دائم، وتدخّلات عسكريَّة كرّسـت أزمات بدلاً من حلها، وتحالفات انهارت عند أول اختبار للمصلحة.

فالهيمنة التي تقوم على القسر، لا على التوافق، وعلى الردع لا على الشرعيَّة، سرعان ما تصطدم بحدودها البنيويَّة. وتجارب العقود الأخيرة تُبيّن بوضوح أن القوة الأمريكيَّة، رغم تفوّقها المادي، ليست عصيَّة على التآكل. نستعرض فيما يأتي نماذج دالّة تُجسّد هذا المسار الانحداريّ:

١. حرب فيتنام - الكابوس الاستراتيجي

تشكّل حرب فيتنام (١٩٥٥-١٩٧٥) لحظة مفصليَّة في تاريخ انكسار الهيبة الأمريكيَّة. فرغم التفوّق العسكري الساحق الذي امتلكته واشـنطن من حيث العتاد والتكنولوجيا والموارد، فقد عجزت عن حسم المعركة أمام مقاومة وطنيَّة مدعومة بإرادة صلبة ومعرفة دقيقة بالميدان. أجبرها نزيف الخسائر والاحتجاجات الشـعبيَّة الداخليَّة على الانسحاب، لتخرج بهزيمة رمزيَّة مدوّيَّة طالت صورتها بصفتها قوّة لا تُقهر.

لم يكن هذا الفشـل عسكريًّا فقط، بل معرفيًّا أيضًا، كما أشار (نعوم تشومسكي) حين تحدّث عن «عجز القوة الإمبراطوريَّة عن كسـب العقول»[1]، في إشارة إلى فقدان المشروعيَّة السياسيَّة

1 - Chomsky: Hegemony, p.98.

والخُلُقيَّة. لقد جسّدت فيتنام مأزق القوّة الأمريكيَّة: إمبراطوريَّة تمتلك أدوات القهر، لكنها تفتقر إلى أدوات الإقناع.

٢. أمريكا اللاتينيَّة - «الفناء الخلفي» ينقلب على الهيمنة

مثّلت أمريكا اللاتينيَّة، لعقود طويلة، ما يُعرف في الأدبيّات السياسيَّة الأمريكيَّة بـ «الفناء الخلفيّ»؛ حيث مارست واشنطن نفوذًا واسعًا من خلال دعم الانقلابات العسكريَّة، وتثبيت أنظمة استبداديَّة موالية، والتدخّل المكثّف في الشؤون الداخليَّة للدول، تحت ذريعة «مكافحة الشيوعيَّة» خلال الحرب الباردة.

لم تُفضِ هذه السياسات إلى استقرار دائم، بل خلّفت موجات من المقاومة الشعبيَّة، وإرثًا من انعدام الثقة في النموذج الأمريكي. فقد تحوّلت المنطقة من مجال خاضع للهيمنة إلى مختبر للممانعة، عبرّ عن ذاته من خلال صعود حكومات يساريَّة، وحركات تحرّريَّة، ومبادرات إقليميَّة تسعى إلى تجاوز منطق التبعيَّة وإرساء استقلاليَّة استراتيجيَّة.

في هذا السياق، يُبرز (إدوارد سعيد)، في تحليله للاستعمار المعرفي، أنّ الهيمنة الرمزيَّة والثقافيَّة لا يمكن أن تُفرض على المدى البعيد دون «قَبول داخليّ» فعليّ، وأنّ خطاب التقدّم حين يُستخدم لتبرير السيطرة، يُفضي في النهاية إلى مقاومة متجذّرة[١]. وهو ما يفسرّ تصاعد التحوّلات الجيوسياسيَّة في أمريكا اللاتينيَّة؛ حيث باتت بعض الدول تُعيد توجيه تحالفاتها باتجاه قوى دوليَّة صاعدة كالصين وروسيا، متحرّرة تدريجيًا من دائرة النفوذ الأمريكي التقليدي.

٣. العقوبات الاقتصاديَّة - سلاح مزدوج الحدّ

اعتمدت الولايات المتحدة، في العقود الأخيرة، بشكل متزايد على العقوبات الاقتصاديَّة باعتبارها أداة للضغط على الدول المناوئة، من إيران وكوريا الشماليَّة، إلى فنزويلا، وروسيا، وسوريا. وعلى الرغم من أن هذه العقوبات تسبّبت في معاناة اقتصاديَّة واجتماعيَّة كبيرة للشعوب،

١ - إدوارد سعيد: الثقافة والإمبرياليَّة، ص٤١.

فإنّ فعاليتها السياسيَّة والاستراتيجيَّة تبقى محدودة.

لا تُنتج العقوبات دائمًا تغييرًا في سلوك الأنظمة، بل كثيرًا ما تؤدّي إلى نتائج عكسيَّة، مثل تعزيز المشاعر الوطنيَّة، وتكريس منطق الاكتفاء الذاتي، والبحث عن بدائل اقتصاديَّة وتحالفات دوليَّة جديدة، كما حدث مع إيران التي وسّعت شراكاتها مع الصين وروسيا.

وفي هذا السياق، يُحيل تحليل (ميشيل فوكو) لآليَّات السلطة إلى فكرة محوريَّة؛ حيث يشير إلى أن «الرقابة الزائدة تُنتج أشكالاً غير متوقعة من المقاومة»[1]، وهو ما ينطبق على أدوات العقوبات حين تُستخدم بطريقة ميكانيكيَّة مفرطة، دون اعتبار للخصوصيات السياسيَّة والاجتماعيَّة للدول المستهدفة. فحين يُفرَط في استخدامها، تفقد العقوبات دورها الرادع وتتحول إلى أداة تُغذّي الصمود بدل الإخضاع، ما يُقوّض أحد رهانات الهيمنة الأمريكيَّة.

٤. الانسحاب الأمريكي من أفغانستان - انكشاف أوهام القوة

جسّد الانسحاب الأمريكي من أفغانستان في أغسطس ٢٠٢١ لحظة مفصليَّة في تاريخ تآكل الهيبة الأمريكيَّة. فعلى الرغم من عقدين من الحضور العسكري، وإنفاق تريليونات الدولارات، وتكبّد خسائر بشريَّة فادحة، جاءت لحظة الخروج بطريقة فوضويَّة كشفت عن عجز القوة الأمريكيَّة عن تحقيق أهدافها المعلنة: لا القضاء على طالبان، ولا بناء دولة مستقرة ذات شرعيَّة مستدامة.

لم يكن هذا الانسحاب مجرد نهاية حرب خاسرة، بل لحظة انكشاف عميق لوَهْم السيطرة العسكريَّة، وانهيار الخطاب الذي قدّم الولايات المتحدة كقوة قادرة على «إعادة هندسة» المجتمعات. وقد اعتبره كثير من المراقبين إعادة إنتاج رمزيَّة لمشهد سايغون عام ١٩٧٥، حيث لا يُقاس النصر بالعدّة والعتاد، بل بامتلاك المشروعيَّة وقدرة البقاء.

إن ما كشفته أفغانستان ليس فقط حدود التفوق العسكري، بل هشاشة نموذج الهيمنة ذاته، عندما يُبنى على تدخل خارجي لا يستند إلى قبول داخلي ولا يراعي تعقيدات المجتمعات المحليَّة.

1 - Foucault: Security, p.46.

٥. أزمة التحالفات - قوة بلا شرعيَّة

تواجه الولايات المتحدة اليوم صعوبات متزايدة في الحفاظ على تحالفات استراتيجيَّة طويلة الأمـد قائمة على الثقة والمصالح المتبادلة. فقـد أصبحت عدد من هذه التحالفات مشروطة أو محلّ تشـكيك، كما يظهر في توتّر العلاقات مع الشركاء الأوروبيين داخل الناتو، وفي التباينات المتكررة مع حلفاء تقليديين في الشرق الأوسط وشرق آسيا.

إن ما يتآكل هنا ليس فقط النفوذ، بل الشرعيَّة التي كانت تبرر هذا النفوذ. فحين تتحول القوة إلى غاية بذاتها، وتُستخدم بشـكل انتقائي لا يراعي التوازنات الدوليَّة والمحليَّة، تتراجع القدرة عـلى بناء شراكات حقيقيَّة. لم يعد العالم، في ظل تحولات النظـام الدولي، يقبل بقيادة أحاديَّة تُقصي التعدديَّة ولا تؤمن بالتكافؤ في العلاقات الدوليَّة.

هذا التآكل في شرعيَّة القيادة يفتح المجال أمام قوى بديلة، ويقوّض مستقبل الهيمنة الأمريكيَّة من داخل بنيتها، لا بفعل خصومها فحسب، بل نتيجة تآكل الجاذبيَّة السياسيَّة والخُلُقيَّة لمشروعها العالمي.

٦. الهيمنة بالخداع الاستراتيجي - حين تُصنع القوة في لحظة الإنهاك

لا ينبغـي النظر إلى الهيمنـة الأمريكيَّة باعتبارهـا حصيلة تفوق خُلُقـي أو مشروع حضاري مكتمل، بل هي – في جانب كبير منها – نتاج مكر استراتيجيّ في التعامل مع السياقات الدوليَّة. لقد صعدت الولايات المتحدة إلى مركز النظام العالمي في أعقاب الحربين العالميتين، لا بسبب دورها الحاسم فقط، بل بسبب اختيارها التوقيت المناسب للتدخّل بعد أن أنهكت القوى الكبرى الأوروبيَّة في حروب استنزاف مدمِّرة.

في الحرب العالميَّة الثانية، على سـبيل المثال، تبنّت الولايات المتحدة سياسـة الحياد طيلة المراحل الأولى من الصراع، تاركة بريطانيا والاتحاد السوفيتي يخوضان معارك الاستنزاف ضد النازيَّة. وعندما بدا أن الكفة قد تميل، تدخلت عسكريًا عام ١٩٤١ بعد هجوم بيرل هاربور، ليس فقط لإنهاء الحرب، بل لإعادة تشـكيل النظام العالمي وفقًـا لشروطها (اتفاقيّات بريتون وودز، وإنشاء الأمم المتحدة، ومشروع مارشال...).

هــذا النموذج من الحضور الأمريكي – الذي يبدو منقذًا في الظاهر – يُخفي في جوهره عقلاً استراتيجيًّا بارعًا في استثمار الإنهاك العام لصالح بناء الهيمنة. إنه صعود لا يقوم فقط على الردع أو الشرعيَّة، بل على إتقان انتظار اللحظة المناسبة لتكريس التفوّق بأقل كلفة ممكنة.

وهذا ما يجعل استمراريَّة القوة الأمريكيَّة اليوم ليست مجرد بقايا لتفوق عسكري أو اقتصادي، بل امتدادًا لعقيدة استراتيجيَّة تعتمد الخداع الإيجابي، وتوظيف اللحظة الحرجة لتظهير صورتها باعتبارها ضرورة تاريخيَّة لا غنى عنها. لكن العالم، في زمن الوعي المتزايد والبدائل الصاعدة، بدأ يكشف هذا النمط، ويعيد مساءلة الدور الأمريكي خارج الأساطير المؤسسة.

خامسًا: من يصنع وَهْم الهيمنة؟

لا يتشــكّل وَهْم الهيمنة الأمريكيَّة في فراغ، بل يتأسّــس على منظومة معقّــدة من الآليّات الرمزيَّة والوسائط المعرفيَّة والخطابات المسيطرة، التي تتولّى إنتاجه، وترويجه، وترسيخه في الوعي الجماعي العالمي. ولا تقتصر هذه المنظومة على الداخل الأمريكي، بل تمتدّ لتشــمل نخبًا فكريَّة وسياســيَّة دوليَّة، ومؤسسات أُمميَّة، بل وحتى قطاعات من المثقفين والنخب المحليَّة في دول الجنوب، ممن يســاهمون – بقصد أو بدونه – في إعادة إنتاج صورة أمريكا بوصفها المركز الذي لا غنى عنه.

إن التســاؤل عن «من يصنع هذا الوَهْم؟» هو، في جوهره، تســاؤل عــن بنيَّة القوة الرمزيَّة في النظــام الدولي، وعن المصالح التي تُخدم من خلال تضخيم صورة الولايات المتحدة بوصفها قوّة لا بديل لها، حتى حين تتآكل فعاليتها الواقعيَّة.

١. آليات الإنتاج الرمزي - الإعلام والنظام المعرفي العالمي

تُعد وسائل الإعلام الغربيَّة، وعلى رأسها المؤسسات الكبرى مثلCNN وBBC وFox News وThe New York Times، من أبرز الفاعلين في تشكيل الصورة «الأسطوريَّة» للقوة الأمريكيَّة. فهذه الوســائل لا تكتفي بنقل المعلومات، بل تُعيد صياغة الواقع داخل أطر سرديَّة تُضفي على التدخلات الأمريكيَّة طابعًا عقلانيًّا، ضروريًّا، بل و«مخلِّصًا»، ما يُعزّز مركزيَّة واشــنطن بوصفها القوّة المُنقذة.

وفي هذا السياق، يرى (جان بودريار) أن الإعلام لا يعكس الواقع، بل «يُنتج واقعًا آخر» من خلال ما يسميه المحاكاة (simulacrum)؛ حيث تُضخَّم الرمزيَّة وتُحجب الحقيقة[1]. فصور مثل «الجيش الذي لا يُقهر» أو «الدولة الحامية للديمقراطيَّة» ليست سوى تمثيلات مُفبركة تُوظَّف في خدمة سياسات الهيمنة، وتُروَّج عبر تقنيات خطابيَّة تجعل من التشكيك فيها أمرًا بالغ الصعوبة.

ولا يقتصر هذا الإنتاج الرمزي على الإعلام فقط، بل تشارك فيه أيضًا المؤسسات الدوليَّة، سواء السياسيَّة منها كالأمم المتحدة – حين تُوظَّف بانتقائيَّة – أو المعرفيَّة باعتبارها مراكز الفكر الأمريكيَّة ومؤتمرات العلاقات الدوليَّة. وهي مؤسسات تُسهم، كما يُحلل (أنطونيو غرامشي- Antonio Gramsci)، في ترسيخ ما يُعرف بـ«الهيمنة الثقافيَّة» (cultural hegemony)، أي فرض رؤية معينة للعالم بوصفها طبيعيَّة، وعقلانيَّة، ووحيدة ممكنة، ما يُقيّد قدرة الشعوب على تخيل بدائل خارج إطار الهيمنة الأمريكيَّة[2].

٢. النخب التابعة - الترويج المحلي للوَهْم

لا ينجح وَهْم القوّة الأمريكيَّة دون وجود وسطاء محلّيين – من سياسيين، وإعلاميين، وأكاديميين – يتبنّون هذا الخطاب

ويُعيدون إنتاجه داخل السياقات الوطنيَّة، مُقدّمين أنفسهم بوصفهم وكلاء رمزيين للهيمنة. ففي العالم العربي، على سبيل المثال، تُلاحظ مشاركة فئات واسعة من النخب في تسويق صورة الولايات المتحدة كـ«الضامن الوحيد للأمن»، و«الشريك الطبيعي للتحديث»، و«الحامي من الفوضى».

وغالبًا ما تُكرّر هذه النخب الخطاب الأمريكيّ إما بدافع المصلحة المباشرة (كالحصول على التمويل، أو ضمان الشرعيَّة الدوليَّة، أو الحفاظ على النفوذ السياسي)، أو نتيجة التكوين الثقافي والمعرفي في مؤسسات تتبنى النموذج الغربي معيارًا للتقدم والحداثة. وهنا تتجلى،

1 - Baudrillard: Simulacra, p.11.

2 - Antonio Gramsci: Selections from the Prison, p.245.

كما يشـير (إدوارد سعيد)، إحدى أبرز آليات الاسـتعمار الرمزي؛ حيث تتحوّل النخب المحليَّة في المجتمعـات التابعة إلى «امتـدادات داخليَّة» للهيمنة، لا من خلال السـلاح، بل عبر اللغة والخطاب والنموذج الفكري[١].

٣. غياب البدائل المعرفيَّة في العالم العربي

تكمن خطورة وهم الهيمنة الأمريكيَّة في أنه يجد بيئة حاضنة في ظل غياب رؤية نقديَّة مستقلّة في العالم العربي. فضعف الإنتاج المعرفيّ المحليّ، وتهميش مراكز البحث المستقلّة، واستمرار التبعيَّـة الثقافيَّة للمركز الغـربي، كلّها عوامل تُعطّل إمكانيَّة بناء تصـوّرات بديلة للقوة، أو بلورة قراءات اسـتراتيجيَّة تنطلق مـن الخصوصيَّات التاريخيَّة والاجتماعيَّـة للمنطقة، لا من مصالح الخارج وأطره المفاهيميَّة.

يشير (ميشيل فوكو) إلى أن السلطة والمعرفة متلازمتان، وأنّ «من يملك إنتاج المعرفة، يملك القـدرة على تحديد ما يجب التفكير فيه وما يجـب تجاهله»[٢]. وفي غياب مدارس نقديَّة عربيَّة حقيقيَّـة تُعيد التفكير في مفاهيم مثل «الحماية»، و«الشرعيَّـة»، و«الردع»، يظل المجال مفتوحًا أمام هيمنة معرفيَّة تُغلّف السيطرة بقيم كونيَّة، ظاهرها إنساني وباطنها استعماريّ.

إن غياب البدائل لا يعني فقط ندرة الإنتاج، بل يشـير أيضًا إلى غياب الشـجاعة المعرفيَّة في مساءلة المُسلَّمات، وتفكيك الخطابات المسيطرة، والانخراط في مشروع تحرّر رمزيّ، وفكريّ، يوازي مشروع التحرّر السـياسي. فالمعركة الحقيقيَّـة لا تُخاض فقط على الأرض، بل أيضًا في الذهن؛ حيث تُصاغ الهُويَّات، وتُمنح الشرعيّات، وتُحدّد الخيارات[٣].

وفي هذا السـياق، نبّه بعض المفكّرين العـرب إلى خطورة تمركز المعرفـة الغربيَّة وهيمنتها

---

١ - إدوارد سعيد: الثقافة والامبرياليَّة، ص١٥٢.

2 - Michel Foucault, Power/Knowledge, p.131.

٣ - محمد المستاري: «معركة الذاكرة: كيف تطمس القضيَّة الفلسطينيَّة في وعي الأجيال الجديدة؟»، موقع مجلة الرافد.

الرمزيَّة على الوعي المحلي، كما فعل (عبد اللطيف كمال) في نقده للمركزيَّة الثقافيَّة الغربيَّة[1]، و(عبـد الوهاب المسـيري) في تحليله لبنية الرؤية الغربيَّة للعالم بوصفها نمطًا تفسـيريًّا يُقصي الخصوصيّات غير الغربيَّة، ويُكرّس التبعيَّة الرمزيَّة[2].

خاتمة

يكشـف هذا المقال، من خلال تحليل نقدي متعدّد الأبعاد، أنّ الهيمنة الأمريكيَّة ليست بنية صلبة كما تروّج لذلك سرديّات التفوّق والانفراد، بل مشروع هشّ يقوم على التناقضات البنيويَّة، والمصالح المتغيّرة، والتراكمات الرمزيَّة التي بدأت في التآكل. فالولايات المتحدة، التي رُسمت لعقـود بوصفها «الضامن للنظام العالمي»، لم تُنتج هذا الموقع نتيجة تفوق خُلُقيّ أو حضاريّ، بل غالبًا ما رسّخته من خلال مكر استراتيجي، تمثّل في استثمار لحظات الإنهاك الدولي – كما حدث في الحربين العالميّتين – وتكريس دورها باعتبارها منقذًا ظاهريًا عبر آليّات تضليل القوة.

وقد بيّن المقال، عبر رصد التجارب التاريخيَّة والتحالفات المعاصرة، أن وَهْم الحماية، الذي تروّج له واشـنطن، يقوم على خطاب رمـزي لا على التزام فعلي، وأن تحالفاتهـا غالبًا ما تكون مشروطة، وانتقائيَّة، وقابلة للانهيار بمجرّد تعارضها مع حسـابات الربح والخسـارة. إن ما بدا، لفـترة طويلة، باعتباره قوة مطلقة، هو في الواقع قـوة متآكلة، غير قادرة على إدارة تعدديَّة عالميَّة متحرّكة، ولا على فرض نموذجها دون مقاومة.

لقـد تبيّن أن هذه الهيمنة لم تتأسـس فقط على القوة الصلبة (الحـروب، الردع، العقوبات)، بل على قوة ناعمة تتجلى في الإعلام، والمؤسسـات الدوليَّـة، والنخب التابعة، والبنية المعرفيَّة العالميَّة. فكما أشـار (ميشـيل فوكو)، من يملك المعرفة يملك القدرة على تحديد ما يُفكَّر فيه، وهو ما يفسّر كيف تتحوّل الهيمنة من مجرد سـيطرة سياسـيَّة إلى اسـتعمار رمزي يعيد تشكيل الإدراك والوعي. وفي السياق العربي تحديدًا، يتغذّى هذا الوهم بغياب بدائل معرفيَّة، وتهميش

١ - عبد اللطيف كمال: «نقد المركزيَّة الثقافيَّة الغربيَّة»، ص٣٧.
٢ - عبد الوهاب المسيري: العالم من منظور غربي، ص٢١٣-٢٢٥.

الفكر النقدي المستقل، وهيمنة نخب محليَّة تُعيد إنتاج الخطاب الأمريكي، لا بدافع القناعة، بل بوصفه أداة لبقائها.

ومن هنا، لا يُعد نقد هذا النموذج موقفًا عدائيًا أو أيديولوجيًا، بل فعلاً تحرّريًّا فكريًّا يسعى إلى مساءلة الخطابات المهيمنة، وكشف آليّات السيطرة، واستعادة الفاعليَّة التاريخيَّة للشعوب والدول التي طالما وُضعت في موقع التبعيَّة والانتظار. فالحماية لا تُشترى من الخارج، بل تُبنى من الداخل عبر تراكم مؤسساتي ومعرفي طويل الأمد، يقوم على الثقة بالذات، وإرادة السيادة، والقدرة على إنتاج المعنى.

إن العالم المعاصر، بتصدّعاته الإمبراطوريَّة وصعود بدائله، يتيح فرصة نادرة للتحرّر من عقدة التفوّق الأمريكيّ، والانخراط في مراجعة عميقة لمفاهيم مثل «القوة»، و«الشرعيَّة»، و«التحالف»، و«الحماية»، ضمن رؤية استراتيجيَّة جديدة تتجاوز الخيارات الثنائيَّة بين التبعيَّة والانكفاء، وتفتح المجال أمام مشروع حضاري مستقل يقوم على الندّيَّة، والاستقلال، والتكامل.

نحو مشروع بديل: تحرّر الوعي الاستراتيجيّ

يتطلب تجاوز وهم الهيمنة الأمريكيَّة بناء وعي استراتيجي نقدي على عدة مستويات، لكن قبل رسم ملامح هذا الوعي، لا بد من التوقف عند نقطة ضروريَّة:

١. نقد الهيمنة لا يعني تمجيد البدائل

إن تفكيك الخطابات المؤسسة للهيمنة الأمريكيَّة لا ينبغي أن يُفهم باعتباره إعجابًا أو قبولاً آليًا بالبدائل الجيوسياسيَّة المطروحة، سواء تمثّلت في الصين، أم روسيا، أم غيرهما من القوى الصاعدة. فرغم موقعها الاعتراضي في النظام الدولي، فإن هذه القوى ليست بالضرورة نماذج مثاليَّة للعدالة أو التحرر أو الشفافيَّة، بل كثير من سياساتها يستحق مساءلة نقديَّة مستقلة.

إن المشروع البديل لا يقوم على مبدأ «عدو عدوي صديقي»، بل على تفكير مستقل ينطلق من الذاتيَّة المعرفيَّة والسياديَّة، ويتحرّر من منطق المحاور والتبعيَّة لأي قوة. فالرهان ليس على استبدال مركز مهيمن بآخر، بل على تفكيك المركزيَّة ذاتها، وبناء عالم متعدد الأقطاب، يتيح للأطراف أن تكون فاعلة لا مجرد تابعة.

٢. خلاصات استراتيجيَّة

في هذا الإطار، لا يصبح المشروع البديل مجرد موقف ضد الهيمنة، بل رؤية بنّاءة تنطلق من الذات وتؤسس لتحول حقيقي، مرتكزة على المبادئ الآتية:

أ. التحرر المعرفي: عبر تأسيس مدارس فكريَّة نقديَّة مستقلة تُعيد إنتاج المفاهيم من داخل السياقات المحليَّة، بدل إعادة استهلاك النماذج الغربيَّة الجاهزة.

ب. استعادة القرار السيادي: من خلال إعادة تعريف مفهوم الأمن، والتحالف، والمصلحة، بما يتلاءم مع الخصوصيات الوطنيَّة والإقليميَّة، لا مع الإملاءات الخارجيَّة.

ج. بناء القوة التراكميَّة: لا من خلال التسلح وحده، بل عبر مأسسة الإرادة الجماعيَّة، وتوطين التكنولوجيا، وتعزيز التكامل بين الفاعلين المحليين.

د. فك الارتباط الرمزي: مع الخطابات التي تكرّس التفوق الأمريكي بصفته قدرًا تاريخيًّا أو مرجعيَّة نهائيَّة، واستبدالها بسرديات تاريخيَّة نقديَّة تُنصف التعدديَّة وتُعيد الاعتبار للذات.

ه. تحقيق النديَّة العالميَّة: عبر الانخراط في شبكات بديلة، وتوسيع العلاقات مع القوى الصاعدة، وبناء تحالفات تقوم على المصالح المشتركة والاحترام المتبادل.

إنّ تحرّر الوعي الاستراتيجي لا يعني الانغلاق أو الانعزال، بل الارتقاء من موقع التلقي إلى موقع الفعل، ومن موقع التبعيَّة إلى موقع النديَّة، ومن منطق «الاحتماء بالقوة» إلى منطق «بناء القدرة». فالمستقبل لا يُنتظر من الآخر، بل يُصاغ بالإرادة والمعرفة والعمل الجماعي.

المصادر والمراجع

باللغة العربيَّة

- بيير بورديو: التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، ترجمة: درويش الحلوجي، دمشق، دار كنعان للدراسات والنشر، لا ط، ٢٠٠٤.
- نعوم تشومسكي: الربح على حساب الشعوب: الليبراليَّة الجديدة والنظام الكوكبي، ترجمة: أسامة إسبر، دمشق، دار بدايات للطباعة والنشر، لا ط، ٢٠٠٧.
- إدوارد سعيد: الثقافة والامبرياليَّة، ترجمة: كمال أبو ديب، بيروت، دار الآداب للنشر والتوزيع، ط٤، ٢٠١٤.
- إدوارد سعيد: السلطة والسياسة والثقافة، ترجمة: نائلة قلقيلي حجازي، بيروت، دار الآداب للنشر والتوزيع، ط٤، ٢٠٠٨.
- ميشيل فوكو: المعرفة والسلطة، ترجمة: عبد العزيز العيادي، بيروت، المؤسسة الجامعيَّة للدراسات والنشر والتوزيع، لا ط، ١٩٩٤.
- عبد اللطيف كمال: «نقد المركزيَّة الثقافيَّة الغربيَّة»، مجلّة العربي، العدد ٤٣٩، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٥.
- محمد المستاري: «معركة الذاكرة: كيف تطمس القضيَّة الفلسطينيَّة في وعي الأجيال الجديدة؟»، مجلّة الرافد، يونيو ٢٠٢٥.
- عبد الوهاب المسيري: العالم من منظور غربي، كتاب الهلال، عدد ٦٠٢، القاهرة، دار الهلال، لا ط، ٢٠٠١.

باللغات الأجنبيَّة

- Jean Baudrillard: Simulacra and Simulation. Translated by Sheila Faria Glaser. Ann Arbor: University of Michigan Press, 1994. Originally published 1981.

- Noam Chomsky: Hegemony or Survival: America's Quest for Global Dominance. New York: Metropolitan Books, 2003.
- Congressional Budget Office: The Budget and Economic Outlook: Fiscal Years 2025 to 2035. Publication No. 60870. Washington, DC: CBO, January 17, 2025. https://cutt.us/rXeHo
- Michel Foucault: Discipline and Punish: The Birth of the Prison. 2nd ed. Translated by Alan Sheridan. New York: Vintage Books, 1995. Originally published 1977.
- Michel Foucault: Security, Territory, Population: Lectures at the Collège de France 1977–1978. New York: Picador, 2007.
- Antonio Gramsci: Selections from the Prison Notebooks. Edited and translated by Quintin Hoare and Geoffrey Nowell Smith. New York: International Publishers, 1971.
- SIPRI (Stockholm International Peace Research Institute): World Military Expenditure Grows to $2.44 Trillion in 2023, with the US Accounting for 37.5%. 2024. https://cutt.us/wHO2C
- U.S. Census Bureau. U.S. International Trade in Goods and Services: Annual Report 2023. February 2024. https://cutt.us/Q2fFm
- U.S. Department of the Treasury. Monthly Statement of the Public Debt of the United States. March 2025. https://cutt.us/ojJc8
- David Vine: The United States of War: A Global History of America's Endless Conflicts, from Columbus to the Islamic State. Berkeley: University of California Press, 2020.
- Immanuel Wallerstein: The Modern World-System I: Capitalist Agriculture and

the Origins of the European World-Economy in the Sixteenth Century. New York: Academic Press, 1974.

Mind Domination: Media, Psychological War

■ Mrs. Lina al-Saqer[1]

Abstract

The book deals with the impact of psychological and media war on societies, highlighting how media and disinformation can be strategically employed to influence collective thought and behavior within political and military contexts. It explores the concept of "Mind Domination" as a central tool for shaping individual perception, where manipulated information is used to persuade people into adopting specific ideologies and viewpoints through various media platforms. The book sheds light on the role of psychological warfare in contemporary conflicts and how media channels can shift public opinion through information distortion. It delves into the use of coercive persuasion by ruling regimes, which rely on media apparatuses to guide and control public behavior, outlining practical methods by which facts can be intentionally distorted.

Moreover, the book addresses the growing role of the internet and social media in disseminating these narratives, and their powerful influence on shaping individual beliefs. It also explores brainwashing techniques, the function of military propaganda, and the strategic use of militarized language to legitimize warfare and advance political agendas.

In its conclusion, the book emphasizes the critical importance of media literacy, to unmask manipulation and safeguard collective consciousness from engineered shifts in public perception.

Keywords: Psychological War, Media and Disinformation, Mind Domination, Coercive Persuasion, Brainwashing, Media Wars, Information Manipulation, Social Media.

1 - Syrian translator.

احتلال العقل: الإعلام والحرب النفسيَّة[1]

■ قراءة: لينا السقر[2]

ملخّص

يتنـاول الكتاب تأثـير الحروب النفسـيَّة والإعلاميَّة على المجتمعـات، موضِّحًا كيف يمكن استغلال الإعلام، والمعلومات المضلِّلة، لتوجيه الأفكار والسلوكيَّات الجماعيَّة في سياقات سياسيَّة وعسكريَّة. يناقش مفهوم «احتلال العقل» باعتباره أداةً رئيسةً في التأثير على الأفـراد؛ حيث يجري التلاعب بالمعلومات، لإقنـاع الناس بآراء وأيديولوجيّات معيّنة عبر وسائل إعلام متنوّعة. يشير الكتاب إلى كيفيَّة تأثير الحرب النفسيَّة في الحروب المعاصرة، وكيف يمكن أن تسـاهم وسـائل الإعلام في تغيير مواقف الرأي العام من خلال التلاعب المعلوماتي. يُفصّل الكتاب في اسـتخدام «الإقناع القسريّ» عـبر الأنظمة الحاكمة، التي تعتمد على الإعلام لتوجيه سـلوك الشـعب، كما يعرض طرقًا عمليَّة لتضليل الحقائق عبر أسـاليب متنوّعة. ويتطرّق الكتاب -أيضًا- إلى دور الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعيّ في نشر هذه الأفكار والآراء، وأثرها الكبير في التأثير على قناعات الأفراد. مضافًا إلى ذلك، يناقش الكتاب تقنيّات «غسـل الدماغ»، وتأثير الإعلام العسكري، واستخدام مصطلحات عسـكريَّة لتبرير الحرب، وتحقيق أهداف سياسـيَّة. وفي النهاية، يدعو الكتاب إلى أهمّيَّة الوعي الإعلاميّ، لكشف التلاعب الذي يؤدّي إلى تغييرات في الفكر الجماعيّ.

الكلمات المفتاحية: الحـرب النفسـيَّة، الإعلام والتضليـل، احتلال العقل، الإقناع القسريّ، غسـل الدماغ، الحروب الإعلاميَّة، التلاعب بالمعلومات، وسائل التواصل الاجتماعيّ.

١ - جمع وترجمة وتقديم : بثينة الناصري.
١ - مترجمة، من سوريا.

بطاقة الكتاب

عنوان الكتاب: احتلال العقل، الإعلام والحرب النفسيَّة.

مؤلف الكتاب: مجموعة كتاب وباحثين.

دارالنشر: دار الكتب المصريَّة.

سنة النشر: عام ٢٠١٧.

عدد الصفحات: ٢١٦.

اللغة الأصليَّة للكتاب: اللغة الانكليزيَّة.

الكتاب يضم ترجمات للغة العربيَّة من كتب مختلفة.

مقدِّمة

يتحدّث الكتاب عن موضوع الحرب النفسيَّة التي تستخدمها الدول والجماعات، وكيف يجري التأثير على المجتمعات بواسطة الإعلام، والأكاذيب، والتضليل، مبيّنًا أنّ هذه الأساليب تؤدّي إلى تغييرات في الفكر والسلوك العام، وتستهدف إقناع الأفراد بالآراء والسياسات المحدّدة، بواسطة وسائل إعلاميَّة متنوّعة مثل الصحافة، والتلفزيون، والإنترنت. كما يتطرّق إلى «احتلال العقل» باعتباره أداةً رئيسةً في هذه الحروب النفسيَّة؛ حيث يجري التأثير على عقول الأفراد عبر تقنيّات معيّنة، كالتلاعب بالمعلومات والتضليل. كما يعرض الكتاب أمثلة من الواقع، مثل تأثير الإعلام على الحروب والصراعات في الدول، مثل العراق. ويُظهر كيف يمكن استخدام الحرب النفسيَّة في تغيير اتجاهات الرأي العام، من خلال التلاعب بالمعلومات والأفكار.

بالتوازي، يوضّح -أيضًا- استخدام الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعيّ باعتبارها أدوات رئيسةً، لنشر هذه الأفكار والمعلومات، من خلال الإشارة إلى أنّ هذه الطرق أصبحت فعّالة جدًّا في الوصول إلى الأفراد، والتأثير على قناعاتهم.

الفصل الأول: السيطرة على العقل

يتحدّث هذا الفصل عن الإقناع القسريّ، وتحديدًا في سياق تأثير وسائل الإعلام والأنظمة الحاكمة على عقول الشعوب. يتضمّن الأساليب النفسيَّة والعقليَّة التي تستخدمها الأنظمة لتوجيه سلوك الناس. ويناقش الأساليب التي يجري بها استخدام الإقناع القسريّ لتوجيه الشعوب والسيطرة على أفكارهم وسلوكهم، ويتطرّق إلى كيفيَّة توظيف وسائل الإعلام المختلفة والأيديولوجيّات المتَّبعة في الأنظمة القمعيَّة، لإقناع الناس بالواقع الذي تفرضه، دون أن يتمكَّنوا من التفكير بحُريَّة.

تُستخدم تقنيَّات نفسيَّة للتأثير على الأفراد، وتوجيههم نحو معتقدات وسلوكيّات محدّدة، مثل استخدام الأيديولوجيا والتحكّم في المعلومات التي تصل إلى الجمهور. يُذكر أنّ هذه الأساليب تتضمّن استخدام الكذب، والمعلومات المُنتقاة بعناية، والممارسات التي تتلاعب بالعقول.

تجدر الإشارة هنا أيضًا، إلى أهميَّة التحكّم في الواقع الذي يعيشه الفرد، وتحقيق التأثير المطلوب على مستوى شعور الأفراد بالأمان، والخضوع للطاعة، والخوف من العقوبات، سواء أكانت اجتماعيَّة أو نفسيَّة أو مهنيَّة. ويجري استغلال هذه الأدوات لترسيخ السيطرة، والتحكّم بالجماعات المختلفة.

ومن ناحية ثانية، يسلّط الضوء على التأثير العميق للإقناع القسريّ، باستخدام وسائل الإعلام والنظام السياسيّ والاجتماعيّ من أجل تحقيق الأهداف الخاصّة بالسلطة. وبالتالي، خلق حالة من التبعيَّة الذهنيَّة، والموافقة على الظروف المفروضة.

الفصل الثاني: التحكُّم بالعقل، وغسل الدماغ

إنّ التحكُّم بالعقل هو قدرة التأثير على تفكير أو سلوك شخص ما، من خلال تقنيّات مختلفة،

مثـل التنويم المغناطيسي، أو التحفيز العصبيّ، أو الإعلانات. يُسـتخدم هذا التحكّم لأغراض متنوّعة، منها: تحسـين سـلوك الفرد، أو التأثـير في قراراته، وأحيانًا لتحقيق أهداف سياسـيَّة أو تجاريَّة. تشمل هذه العمليَّات التأثير على مشاعر الأشخاص، وقراراتهم عن طريق أساليب غير مباشرة، مثل التأثير على هُويَّتهم، أو عبر وسـائل الإعلام. وقد يتضمَّن التحكّم بالعقل تقنيَّات، مثل الإعلانات المُحفِّزة، أو استخدام إشعاعات كهرومغناطيسيَّة.

رغم أنّ بعضهم ينظر إلى التحكّم بالعقل باعتباره أداةً لزيادة الوعي، أو التأثير الإيجابيّ، وهناك من يراه أداةً للتلاعب، خاصَّة في مجالات مثل السياسـة أو الجريمة. في السـياقات العسـكريَّة أو الحكوميَّة. وقد يُسـتخدم التحكّم بالعقل لأغراض التجسّـس أو التأثير في الأفراد عن طريق تقنيّات، متقدّمة مثل الموجات الكهرومغناطيسيَّة أو وسائل أخرى.

أما في الأدب والفن، يُعرض التحكّم بالعقل باعتباره موضوعًا شائعًا في الخيال العلميّ؛ حيث يجري تصوّر تقنيّات قادرة على التأثير على العقل البشريّ في المستقبل. مع ذلك، يبقى التلاعب بالعقل موضوعًا حسَّاسًا، يثير القلق خُلُقيًّا وعلميًّا في المجتمعات.

الفصـل الثالث: دليلك إلى التضليل- خمسـة وعـشرون طريقة لإخفاء الحقائق

هناك مجموعة من الأساليب والطرق التي يمكن استخدامها في التعامل مع القضايا الحسَّاسة، أو الاتهامـات الموجَّهة للأفراد أو الجهات. تركّز على كيفيَّة تجنّب المناقشـات، أو التورّط في مواضيع قد تكون مزعجة أو مؤذية، خاصَّة إذا كانت المعلومات غير دقيقة أو مبنيَّة على شائعات.

هذه بعض الأساليب التي أشير إليها:

١. تجنّـب التحدّث عن القضايا الحسَّاسـة أو نقاشـها، خاصَّـة إذا كانت تحتوي على معلومات غير مؤكَّدة.
٢. عدم الانخراط في الجدال في القضايا التي قد تضرّ بسمعة الأشخاص.
٣. تجنّب نقاش القضايا المتعلّقة بالكرامة.
٤. إشاعة الشائعات، أو تقديم اتّهامات مبنيَّة على فرضيّات غير صحيحة.

٥. استخدام السُّخرية أو الهجوم، لتشويه سمعة الآخرين.
٦. التأكيد على عدم صحَّة الادِّعاءات، بالاعتماد على إثباتات غير مؤكَّدة.
٧. التهجُّم على الشخص المُتَّهم، وإظهاره بصورة غير لائقة.
٨. استخدام التعتيم على القضيَّة الحقيقيَّة، بإشغال الجمهور بنقاط فرعيَّة.
٩. الانحراف عن الموضوع الأصليّ بالتركيز على القضايا الثانويَّة.
١٠. إثارة الشكوك بين الأفراد، لخلق حالة من الارتباك والتشويش.
١١. تشويه صورة الموضوع أو الشخص المتَّهم، لجعل القضايا تبدو أقلّ أهمّيَّة.
١٢. تقديم تفسيرات مُبهمة وغير دقيقة، لتغطية الفشل أو الأخطاء.
١٣. إشغال الجمهور بإعلام زائف، وتقديم مواقف مغلوطة أو مشوَّهة.
١٤. التلاعب بالمعلومات، وتهويل قضايا غير جوهريَّة، لتشتيت الانتباه.
١٥. اختلاق اتهامات لا أساس لها من الصحَّة، لتقليل مصداقيَّة الشخص المَعنيّ.

بالمجمل، الهدف من هذه الطرق هو التحكُّم بالرأي العام، وإدارة المناقشات بطريقة تشوّه الحقيقة أو تضلّل الآخرين.

الفصل الرابع: لغة المارينز- كلمات قديمة بمعان جديدة

بقلم: توم إنجلهارت[1]

يسلِّط (رونالد إنجلهارت- Ronald Inglehart) الضوء على كيفيَّة تصوير الحروب الأمريكيَّة، خاصّة في الإعلام، ويستعرض بعض المصطلحات والتعريفات المرتبطة بها، مثل "النصر"، و"الهزيمة"، و"الانسحاب". كما يحلِّل كيفيَّة استخدام الإعلام الأمريكيّ هذه المصطلحات بحذر، لتجنّب السلبيَّة في خطاب الحرب، مقدّمًا أمثلة من التاريخ العسكريّ الأمريكيّ.

يتطرّق -أيضًا- إلى مفهوم "الحروب السريَّة" والعمليات العسكريَّة التي تجري في الخفاء، مع

١ - محرر موقع: Tomdispatch.com، مؤسّس مشارك في مشروع الإمبراطوريَّة الأمريكيَّة، ومؤلّف كتاب «الحرب على الطريقة الأمريكيَّة: كيف أصبحت حروب بوش حروب أوباما».

الإشارة إلى الحروب في مناطق، مثل العراق وأفغانستان، وكيفيَّة تأثير هذه الحروب على السياسات الأمريكيَّة، وعلى الرأي العام، مضافًا إلى تبيين كيفيَّة تغيّر اســتراتيجيَّات الحروب الأمريكيَّة مع مرور الوقت، واستخدام مصطلحات مثل "النصر" و"الهزيمة" بشكل مختلف، حسب السياق. ومن ناحيــة ثانية، يتناول (إنجلهارت) التحدِّيات التي تواجه واشــنطن في التعامل مع الحروب المستمرّة والانسحاب من مناطق النزاع، ومدى تأثير ذلك على الجيل الأمريكيّ الحالي، مضافًا إلى الحديث عن الضغوط الماليَّة والعسكريَّة الناتجة عن الاستمرار في هذه الحروب.

الفصل الخامس: حربهم النفسيَّة- (الزرقاويّ) والحرب الأهليَّة

بقلم: مايك ويتني[1]

يحلّل (مايك ويتني-Mike Whitney) بطريقة معقَّدة أســاليب الحرب النفسيَّة، والإعلاميَّة، والاستخباراتيَّة المُستخدمة أثناء الاحتلال الأمريكيّ للعراق. ويركّز على استخدام استراتيجيَّات إعلاميَّة وسياســيَّة، لإضعاف المقاومة العراقيَّــة، والتأثير على الرأي العام، مع التركيز على كيفيَّة اســتخدام العمليَّات النفســيَّة والإعلام، باعتبارهما أداةً لتوجيه الشــعب العراقيّ، سواء لدعمه للاحتلال أم لتشويش المقاومة وتشويهها.

تتضمن بعض النقاط الرئيسة:

١. الحرب النفسيَّة والإعلاميَّة: استخدمت الولايات المتحدة وسائل الإعلام بشكل متقن، للتأثير على الشــعب العراقيّ والرأي العام العالميّ، خاصَّةً من خلال التقارير الإعلاميَّة والرســائل الموجَّهة، التي تهدف إلى التأثير على المقاومة العراقيَّة وخلق صورة معيَّنة عن الأحداث.

٢. الاستراتيجيَّة الأمريكيَّة: كان الهدف من بعض العمليَّات هو إضعاف عزيمة الشعب العراقيّ والمقاومة المُســلَّحة من خــلال تضخيم الفوضى والعنــف، والتأكيد على التفجيرات والعمليَّات العنفيَّة التي نفَّذها مُسلَّحون عراقيُّون، بغرض تبرير الاحتلال وتعزيز الهيمنة الأمريكيَّة.

---

١ - كاتب امريكي، كتب بإنصاف عن حرب العراق في عدد من المواقع الانترنت

٣. التعاون مع الميليشيات: يذكر أنّ بعض الميليشيات قد تكون استُخدِمت لأغراض نفسيَّة وإعلاميَّة، ما يساعد في تحفيز مشاعر العنف والفوضى في المجتمع العراقيّ، ما يسهم في جعل الاحتلال أكثر مَقبوليَّة.

٤. الاستخبارات والمخابرات: يتناول الدور الذي لعبته الاستخبارات الأمريكيَّة والبريطانيَّة في عمليات تفجير وتفخيخ، واستخدام أدوات أمنيَّة متقدِّمة، مثل الأجهزة الاستخباراتيَّة، لتوجيه العمليَّات العسكريَّة والسياسيَّة.

الفصل السادس: خبير الحرب النفسيَّة- لا تصدِّقوا كل ما تنشره الصحف!

بقلم: سام جاردنز[1]

يظهر (سام جاردنز-Sam Gardens) مفاهيم مرتبطة بالحروب النفسيَّة والإعلام العسكريّ خلال الحروب، ويركّز على أحد المواضيع المُهمَّة، وهو اعتقال "صدَّام حسين". كما يناقش كيفيَّة استخدام الحرب النفسيَّة في السياقات العسكريَّة من خلال الإعلام، خصوصًا في العراق، وأثناء العمليَّات العسكريَّة الأمريكيَّة.

من ناحية ثانية، يتطرَّق إلى تفاصيل استخدام الإعلام العسكريّ في إقناع الجمهور في إيصال رسائل محدَّدة، واستخدام المعلومات المأخوذة من المعتقلين، مثل "صدَّام حسين"، لتحليل السياسات العسكريَّة وتوجيهها، ويستعرض كيف استخدمت الولايات المتحدة وسائل الإعلام لزيادة الضغوط على المقاومة العراقيَّة، عبر نشر تقارير استخباراتيَّة، بهدف زرع الانقسام في صفوف المقاومة.

يُظهر أيضًا، أنَّ الإعلام في هذه الحروب كان له دور كبير في التأثير النفسي على الجمهور والمقاومة؛ حيث كانت الأخبار تُستخدم لخلق حالة من عدم اليقين والإرباك، وأنّ كثيرًا من التصريحات كانت بهدف تضليل العدوّ، أو التحفيز على تقديم معلومات معيّنة. إنَّ الحرب النفسيَّة جزء لا يتجزأ من الاستراتيجيَّة العسكريَّة الشاملة.

---

١ - كولونيل متقاعد في القوة الجويَّة

الفصل السابع: حرب الكلمات

بقلم: تيري جونز[1]

يتناول (تيري جونز-Terry Jones) فترة الحرب العالميَّة الثانية؛ حيث كانت الولايات المتحدة وحلفاؤها يتعاملون مع الألمان، ولكن النقاش ينتقل إلى فترة لاحقة، تحديدًا في الصراعات التي حدثت في العراق بعد الحرب. كما يبرز تأثير العمليَّات العسكريَّة الأمريكيَّة في العراق، بما في ذلك الصراع في الفلوجة؛ حيث كان الأمريكيّون يعانون من مشاكل كبيرة في التعامل مع المليشيات العراقيَّة. ومن جهة أخرى، يوضّح كيف كان العراقيّون يعانون من الهجمات المستمرَّة، ما أدّى إلى مقتل عدد منهم، وتشويه حياتهم اليوميَّة. ويشير -أيضًا- إلى محاولات للتفاوض من أجل إنهاء القتال، وكذلك التصعيد المستمرّ بسبب صعوبة إيجاد حلول سلميَّة، ما جعل الوضع أكثر تعقيدًا. من خـلال هذه الأحداث، يُظهر معاناة المدنيّين العراقيّين جرَّاء الهجمات العسـكريَّة، وكذلك التحدِّيات التي تواجه القوّات الأمريكيَّة في التعامل مع هذه الأوضاع المُعقَّدة. باختصار، يتناول مواضيع الحرب، والتفاوض، ومعاناة المدنيين في سياق النزاع الأمريكيّ في العراق بعد الحرب العالميَّة الثانية.

الفصل الثامن: خصخصة الحقيقة- حرب (بوش) على الإعلام

بقلم: (مايك وتني - Michael Whitney)

في عالمنا المعاصر، أصبحت الحقيقة ضحيَّة للتلاعب الإعلاميّ والسياسات الدعائيَّة؛ حيث يُستخدم الإعلام، وخاصّة في الولايات المتحدة، باعتباره أداةً لتشكيل وعي الجماهير، وتوجيههم بعيدًا عن الواقع. وبدلاً من نقل الحقائق، تُستخدم مصطلحات مثل «الحرب على الإرهاب» و«الوقاية»، لتبرير الحروب والتدخُّلات العسكريَّة، كما حدث في العراق، وذلك بهدف دعم مصالح النخب السياسـيَّة والاقتصاديَّة. يعمل الإعلام الرسـميّ على إسـكات

---

١ - رجل متعدد المواهب، ممثل ومخرج ومؤلف ومفدم برامج، كاتب في كبرى الصحف البريطانيَّة، كاتب العديد من المقالات ضد الحرب على العراق مجموعة بكتاب: "حرب تيري جونز ضد الحرب على الإرهاب"

الأصوات المعارضة، والترويج لروايات كاذبة، بينما يُقصى الصحفيّون المستقلّون، وتُشوَّه تقاريرهم. في هذا السياق، يفقد المواطنون ثقتهم بوسائل الإعلام، ويُحرَمون من حقِّهم في المعرفة والاختيار. ورغم أنَّ الإنترنت شكّل مساحة مفتوحة للتعبير عن الحقيقة وكشفها، لكنّه يواجه، هو الآخر، محاولات للهيمنة والرقابة من قِبَل الحكومات. إنّ خصخصة المعلومات، وتضليل الجماهير، يُشبه خصخصة الثروات، وهو ما يُحوّل المعركة من مجرّد صراع إعلاميّ إلى معركة من أجل الوعي والحُريَّة. لذا، فإنّ الدفاع عن الحقيقة اليوم ليس ترفًا، بل ضرورة مُلحَّة لمواجهة الاستبداد الإعلاميّ، واستعادة دور الصحافة في خدمة المجتمع لا السلطة.

الفصل التاسع: سياسة التزييف الإعلاميّ

بقلم: (تيد رال-Ted Rall)

يُبرز هذا الفصل كيف تستخدم وسائل الإعلام، لا سيَّما في السياق الأمريكيّ، اللغة والمصطلحات بشكلٍ موجّه، للتأثير في الرأي العام، والتلاعب بالوعي الجماهيريّ. تُستخدم مصطلحات مثل «متمرّد» أو «متطرّف» بشكل انتقائيّ، لتوصيف من يعارض السياسات أو الاحتلال، في حين يُمنح الموالون تسميات شرعيَّة، مثل «متعاون» أو «معتدل». تسهم هذه التلاعبات اللفظيَّة في بناء سرديَّة تخدم السلطة وتبرر أفعالها، وتُضعف أيّ محاولة لمساءلة الواقع أو تفكيكه. لا يكتفي الإعلام بنقل الأحداث، بل يشارك في صناعة الانطباعات، وغالبًا ما يُستخدم لتلميع شخصيَّات سياسيَّة مُعيَّنة، أو تشويه خصومها، من خلال انتقاء الكلمات والصيغ. كذلك، تُطمس السياقات الحقيقيَّة للنزاعات، وتُحوّل مقاومة الاحتلال إلى أعمال خارجة عن الشرعيَّة، بينما تُمنح ألقاب رسميَّة لمن يخدمون مصالح الاحتلال أو الأنظمة الداعمة له. وهذا النمط من التصنيف الإعلاميّ، يهدف في جوهره إلى تسطيح النقاش، ومنع الجماهير من التفكير النقديّ، وإعادة تشكيل الواقع لصالح النخبة المُسيطِرة.

الفصل العاشر: قتل سمك الرنجة المدخن

بقلم: (بريان كلوغلي-Brian Cloughley)

تُزيّف الحقائق وتُختَلق الأدلّة، لتبرير الحرب على العراق. يستعرض (كلوغلي) دور شخصيَّات سياسيَّة بارزة مثل (جورج بوش-George W. Bush) و(توني بلير-Tony Blair)، الذين روَّجوا لمزاعم امتلاك العراق أسلحة دمار شامل دون تقديم أدلّة حقيقيَّة. وقد استُخدمت تقارير استخباراتيَّة مضلِّلة، ومصطلحات مبهمة، مثل "شبكة مختبرات سرّيَّة" و"أسلحة بيولوجيَّة متنقلة"، لخلق حالة من الخوف، تدعم التدخل العسكري. ومع مرور الوقت، اتَّضح زيف تلك الادّعاءات، لكنّ المسؤولين استمرّوا بتبرير الحرب بدوافع خُلُقيَّة وحقوقيَّة. ويشير (كلوغلي) إلى أنّ كتابة التاريخ ليست مجرّد سرد للوقائع، بل معركة على الوعي؛ إذ يحاول "غاسلو الأدمغة" رسم نسخة مزيّفة ممَّا حدث، مستخدمين الإعلام والخطابات السياسيَّة لتلميع الكذب وتبرير الاحتلال. وخلاصة القول، إنّ التاريخ الحقيقيّ يتعرّض للتحريف المتعمّد من قِبَل من خاضوا تلك الحرب، في محاولة لتجميل قراراتهم الفاشلة وتضليل الأجيال القادمة.

الفصل الحادي عشر: دبَّابات الإعلام- عشرة حروب وعشر أكاذيب إعلاميَّة!

بقلم: ميشيل كولون

يستعرض (ميشيل كولون-Michel Collon) سلسلة من الحروب التي خاضتها الولايات المتحدة، ويبيّن أنّ كل واحدة منها سبقتها حملة دعائيَّة كاذبة لتبرير التدخّل العسكريّ، بدءًا من فيتنام إلى العراق وأفغانستان، وصولاً إلى فنزويلا والإكوادور. في كلّ حالة، جرى ترويج لأكاذيب، مثل "الدفاع عن الديمقراطيَّة"، و"مكافحة الإرهاب"، أو "حماية المدنيين"، بينما كانت الأهداف الحقيقيَّة هي السيطرة الجيوسياسيَّة، ونهب الموارد الطبيعيَّة، وخدمة مصالح الشركات الكبرى. لعب الإعلام دورًا مركزيًّا في تضليل الرأي العام، وخلق سرديّات زائفة، تمكّن صناع القرار من شنّ الحروب دون مساءلة. وفي النهاية، يدعو (كولون) للتأمّل في أنّ التاريخ يُكتب أحيانًا بأقلام الكذب، وأنّ كشف هذه الأكاذيب ضرورة لفهم الحاضر ومقاومة التلاعب بالوعي.

الفصل الثاني عشر: دليل القارئ الذكيّ إلى كشف التضليل الغبيّ

بقلم: ليس بلاو

ينتقد (ليس بلاو-Les Blough) وسائل الإعلام الأمريكيَّة والبريطانيَّة، بسبب تغطيتها المنحازة للحـرب على العراق واحتلاله، مُتهمًّا إيّاها بالتواطؤ مع الحكومات في تبرير الحرب، وتزييف الحقائق. يشير التحليل إلى أنّ الإعلام تجاهل معاناة المدنيّين العراقيّين، وتبنّى روايات السلطة، واصفًـا المقاومـين بالإرهابيّين، في حين قدّم القـوات الأمريكيَّة بصفتهـم مُنقذين. كما يظهر كيف تجنّبت المؤسّسـات الإعلاميَّـة مواجهة مسـؤوليّتها الخُلُقيَّة، وتسـترّت على الأكاذيب التي سـبقت الحرب، ما ساهم في إدامة الاحتلال والتدخّلات الخارجيَّة في دول مستقلَّة، مثل العراق وأفغانستان وفلسطين وغيرها. يدعو إلى وقف القتل ومساءلة الإعلام عن دوره في تبرير الحروب.

الفصل الثالث عشر: دبلوماسيَّة المحافظين الجُدد، اكْذِبْ أوَّلًا وصحِّح بعد ذلك

بقلم: روبرت شير

يعرض (روبرت شير-Robert Sher) بشكل ناقد تبريرات الولايات المتَّحدة لغزو العراق، وخاصّة الادّعاءات بامتلاك العراق لأسلحة دمار شامل، والتي تبيَّن -لاحقًا- أنّها غير دقيقة. تشير التصريحات إلى أنَّ شخصيَّات، مثل (بول وولفويتز-Paul Wolfowitz)، لعبت دورًا محوريًّا في تسـويق الحرب للجمهـور الأمريكيّ والعالميّ، رغم غياب أدلَّة اسـتخباراتيَّة كافية.

كـما يُظهر كيف جرى التلاعب بالمعلومات من أجل تبرير التدخّل العسـكريّ، ويدعو إلى مراجعة سياسات ما بعد الحرب، خاصّة في ظلّ ارتفاع التكاليف البشريَّة والماليَّة. وفي النهاية، يبرز تزايد وعي الرأي العام الأمريكيّ بهذه الحقائق، ورفضه للنهج الذي اتُّبع في شـنّ الحرب باسم "حماية الأمن القوميّ".

الفصل الرابع عشر: احْذَروا الإعلام المضلِّل- قصص من التضليل البريطانيّ والأمريكيّ!

بقلم: (ديفيد كروتش-David Crouch)

في الفترة الأخيرة، كُشف النقاب عن تلاعب السلطات البريطانيَّة والإعلام بحقائق عمليَّة «إنقاذ» جنديّ بريطاني في العراق عام ٢٠٠٥، والتي روّجت باعتباره عملاً بطوليًّا استثنائيًّا، ليتبيّن -لاحقًا- أنّها ملفَّقة بشكل كبير. أظهرت التحقيقات أنّ العمليَّة كانت جزءًا من حملة دعائيَّة مُنظَّمة من قبل الاستخبارات البريطانيَّة والأمريكيَّة، تهدف إلى كسب الدعم الشعبيّ للتدخّلات العسكريَّة، خاصّة في العراق، عبر وسائل إعلام محليَّة ودوليَّة. تشير التقارير إلى استغلال الإعلام لتبرير الحرب على الإرهاب، عبر تضخيم أو اختلاق أحداث، ما يثير تساؤلات خطيرة عن نزاهة التغطية الصحفيَّة، ودور أجهزة الاستخبارات في تشكيل الرأي العام.

الفصل الخامس عشر: أساليب التضليل

بقلم: (دنيس هانز-Denise Hans)

أظهر تحليل شامل لخطاب الإدارة الأمريكيَّة، قبل وأثناء حرب العراق، كيف استُخدمت الأكاذيب والتلاعب الإعلاميّ لتبرير الغزو. من خلال تحويل الادّعاءات إلى «حقائق» غير مدعومة، وتضخيم مصادر مشكوك فيها، مثل شهادات منشقِّين، وتقديم معلومات غير دقيقة أو منقوصة عن أسلحة دمار شامل، فجرى تضليل الرأي العام. كما استَخدمت الإدارة أدوات مثل الإسقاط، وتكرار الأخبار القديمة كأنّها حديثة، والتخويف المفرط، والكلام الفضفاض، والكذب الجماعيّ، لتصوير العراق باعتباره تهديدًا وشيكًا، رغم غياب الأدلَّة الحقيقيَّة. حتى عندما توفَّرت تقارير استخباراتيَّة تنفي امتلاك العراق لأسلحة نوويَّة أو كيميائيَّة؛ حيث جرى تجاهلها أو إخفاؤها عن الشعب. وخلاصة القول، بُنيت الحرب على سلسلة من أكاذيب ممنهجة، وهو ما يستدعي وعيًا إعلاميًّا دائمًا، لمساءلة الخطاب السياسيّ، وكشف تلاعبه.

الفصل السادس عشر: كيف تكشف الخبر الحقيقي من الكاذب؟

بقلم: (جريجوري ساينيسكي-Gregory Saynitsky)

لـكي نميّز الخبر الحقيقيّ من الخبر المصنوع للتأثير، يجب أنْ ننتبه إلى اللّغة المسـتخدمة، فالأخبار الملفَّقة تميل إلى الغموض، والمبالغة، واستخدام عبارات غير دقيقة، مثل «كما يبدو» أو «مصادر مطَّلِعة» دون ذكر أسـماء أو تفاصيل. كما أنّ غياب المعلومات الرئيسة، مثل الزمان، والمكان، والأشخاص المعنيّين، مؤشّر واضح على التلاعب ويُبالغ الخبر المصنوع -غالبًا- في تصوير الخطر أو الحدث، بهدف إثارة الخوف أو تحريك الرأي العام، دون تقديم أدلّة حقيقيَّة أو شهود موثَّقين. فيجب التوقّف عند علامات، مثل التناقض بين العنوان ومحتوى الخبر، وغياب الصـور أو الفيديو، وتكرار الجمـل المضلِّلة. لذلك، لا يكفي قراءة الخـبر، بل يجب تحليله، ومقارنتـه بمصادر أخرى موثوقة، والسـؤال دائمًا: هل هذا الخبر يهـدف لإخباري... أم للتأثير عليَّ؟

الفصل السابع عشر: كيف تبيع الحرب إعلاميًّا؟

بقلم: جيفري سانت كلير

يوضّح (جيفري سانت كلير-Jeffrey St. Clair) كيف تحوَّلت الحرب الإعلاميَّة ضدّ العراق إلى نموذج حديث للحرب النفسـيَّة والدعائيَّة؛ حيث اسـتخدمت القوى الغربيَّة، وبالأخصّ الولايات المتحدة، أسـاليب معقَّدة في العلاقـات العامّة والبروباغندا، لتشـكيل الرأي العام العالميّ والمحليّ. يشمل هذا تحريف الحقائق، واستخدام الأكاذيب، وخلق قصص ملفَّقة، لتبرير الحرب وتجنيد الدعم لها، مع اسـتغلال وسـائل الإعلام والدبلوماسـيَّة العامّة بطريقة ممنهجة، لجعل الحرب مقبولة ومبرَّرة. كما أشار إلى دور شركات العلاقات العامَّة المتخصِّصة في إدارة هذه الحملات الإعلاميَّة وكيف أصبحت جزءًا من آلة الحرب النفسيَّة التي تهدف إلى تدمير صورة الخصم، وإضعاف مقاومته من خلال السـيطرة عـلى المعلومات وتوجيه الرأي العام.

الفصل الثامن عشر: الكلمات الممنوعة والكلمات المسموح بها في حربهم على الإسلام

من: وكالة Associated Press

هناك تقرير صادر عن وزارة الخارجيَّة الأمريكيَّة (بالتعاون مع مجموعة "مسلمين أمريكيين") يوجِّه العاملين في الحقل الدبلوماسيّ والإعلاميّ إلى كيفيَّة التعامل مع مصطلحات مرتبطة بالإرهاب والإسلام، وذلك بهدف تحسين صورة الولايات المتحدة في المجتمعات الإسلاميَّة، وتفادي إعطاء شرعيَّة ضمنيَّة للجماعات الإرهابيَّة.

تُعدّ هذه الوثيقة دليلاً داخليًّا يوجّه العاملين في المجالات الدبلوماسيَّة والإعلاميَّة إلى استخدام خطاب أكثر دقَّة وحساسيَّة عند الحديث عن الإرهاب، خاصّةً عند مخاطبة المجتمعات الإسلاميَّة. وتحذّر أيضًا من استخدام مصطلحات مثل "جهاديّ"، و"مجاهد"، و"الفاشيَّة الإسلامويَّة"؛ لما تحمله من دلالات دينيَّة أو بطوليَّة، قد تُكسب الجماعات الإرهابيَّة شرعيَّة غير مستحقَّة، أو تُسيء إلى الإسلام والمسلمين بشكل عام. وبدلاً من ذلك، توصي باستخدام مصطلحات مثل "متطرِّف عنيف"، أو "تكفيريّ"، والتركيز على وصف الإرهابيين باعتبارهم خارجين عن القانون، دون ربطهم بالدين الإسلاميّ. كما تنصح الوثيقة بعدم تكرار الخطاب الذي يستخدمه الإرهابيّون لوصف أنفسهم، لتجنّب تعزيز صورتهم أو أهدافهم، مشدّدةً على أهميَّة تعزيز المصداقيَّة في الخطاب الرسميّ، والتفريق الواضح بين الإسلام والإرهاب، بما يسهم في تحسين صورة الولايات المتحدة وعلاقاتها مع العالم الإسلاميّ.

الفصل التاسع عشر: وقائع الحرب الإعلاميَّة على العراق

تكشف وثيقة أمريكيَّة مسرَّبة عن خطَّة دعائيَّة استراتيجيَّة، أعدّها البنتاغون تحت اسم «فريق الردّ الإعلاميّ السريع»، بهدف التأثير على الرأي العام العراقيّ، قُبَيل الغزو الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣ وأثناءه وبعده. تضمّنت الخطَّة تأسيس شبكات إعلاميَّة عراقيَّة موالية، مثل «راديو وتلفزيون عراق حُرّ»، يديرها إعلاميّون عراقيّون وأجانب، موالون للسياسات الأمريكيَّة والبريطانيَّة، وذلك لتشكيل خطاب إعلاميّ يُظهر الغزو الأمريكيّ على أنّه حملة تحرير، ويعزّز من شرعيَّة الحكومة

العراقيَّة الجديدة. كما تضمّنت الخطَّة إنشـاء برامج إذاعيَّة وتلفزيونيَّة ومحتوى صحفي موجَّه، يروّج لأفكار مثل، الديمقراطيَّة، والاستقرار، والعدال. وركَّزت الاستراتيجيَّة -أيضًا- على تطويع الإعلام العراقيّ ونقل رسـائل الحكومة الأمريكيَّة بطرق تبدو محلّيَّة، بهدف كسـب ثقة الشعب العراقيّ، والتحكّم بالسرد الإعلاميّ في ظلّ الاحتلال.

الفصل العشرون: الجدول الزمني للحرب الإعلاميَّة على العراق

بعد الغزو الأمريـكي للعراق في ٢٠٠٣، أطلقت الحكومة الأمريكيَّة برامج إعلاميَّة ونفسـيَّة ضمن «الحرب النفسـيَّة»، للتأثير على الـرأي العام العراقي؛ حيث جـرى تكليف شركة SAIC بتنفيذ مشروع إعلاميّ ضخم تحت اسم "إعلام حُرّ للعراق"، بهدف تغيير وعي المجتمع العراقيّ بعد الاحتلال. تضمَّن هذا المشروع إنشاء مراكز إعلاميَّة وهميَّة، لتوظيف المعارضين العراقيّين في الدعاية، وجرى تنفيذه تحت إشراف قيادات عسـكريَّة أمريكيَّة. لكن شبكة الإعلام العراقيَّة، التي أُنشئت بعد الغزو، واجهت مشـاكل في التمويل والإدارة، وأصبحت موجَّهة من قبل وزارة الدفاع الأمريكيَّة. كما كانت هناك اعتراضات من بعض الدول العربيَّة على برامجها، ما أدى إلى تراجـع الثقة فيها. وفي الفترة بين ٢٠٠٤ و٢٠٠٥، تولَّت شركات إعلاميَّة أمريكيَّة، مثل "سـاي جن" (Sai, G N) و"لينكولن جروب" (Lincoln Group) إدارة الإعلام العراقيّ، لتشويه صورة المقاومة وتبرير الاحتلال. أثناء هذه الفترة، تعرَّض الصحفيّون العراقيّون للتهديد والموت أثناء تغطيتهم للأحداث، ما يعكس الأوضاع الخطرة التي عملوا فيها. كما وثَّقت التقارير الدوليَّة هذه العمليَّات النفسـيَّة والإعلاميَّة، التي كانت جزءًا من الاستراتيجيَّة الأمريكيَّة للتأثير على الإعلام العراقيّ والعالميّ.

خاتمة

تكمن أهمّيَّة هذا الكتاب في أنّه كُتب بأقلام أمريكيَّة شاهدة على كذب السرديَّة الرسميَّة للإدارة الأمريكيَّـة في حروبها على منطقتنا، وبالأخـصّ في غزوها للعراق عام ٢٠٠٣م، وما روَّجته من

أكاذيب استخباراتيَّة عن امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل، وما إلى ذلك. ولكن يُؤخَذ على هذا الكتاب عدم تعرّضه لكذبة أُخرى من أكاذيب السرديَّة الأمريكيَّة، خاصَّة فيما يتعلَّق بالنظام البعثيّ البائد؛ حيث لم يبرز أحدٌ من الكُتَّاب عن دور الأمريكيّ في دعم النظام البعثيّ وتمويله وتقويته وتسليحه، والذي غزا العراق من أجل إسقاطه، خاصَّة في حربه المفروضة على الجمهوريَّة الإسلاميَّة الإيرانيَّة. وعندما انتهى دور النظام البعثي البائد عند الإدارة الأمريكيَّة، جرى إسقاطه، كما حصل -وما زال- مع كلّ الأنظمة المسلَّطة على شعوبها، والتي تدعمها الولايات المتحدة الأمريكيَّة.

Mind Domination: Media, Psychological War

■ Mrs. Lina al-Saqer[1]

Abstract

The book deals with the impact of psychological and media war on societies, highlighting how media and disinformation can be strategically employed to influence collective thought and behavior within political and military contexts. It explores the concept of "Mind Domination" as a central tool for shaping individual perception, where manipulated information is used to persuade people into adopting specific ideologies and viewpoints through various media platforms. The book sheds light on the role of psychological warfare in contemporary conflicts and how media channels can shift public opinion through information distortion. It delves into the use of coercive persuasion by ruling regimes, which rely on media apparatuses to guide and control public behavior, outlining practical methods by which facts can be intentionally distorted.

Moreover, the book addresses the growing role of the internet and social media in disseminating these narratives, and their powerful influence on shaping individual beliefs. It also explores brainwashing techniques, the function of military propaganda, and the strategic use of militarized language to legitimize warfare and advance political agendas.

In its conclusion, the book emphasizes the critical importance of media literacy, to unmask manipulation and safeguard collective consciousness from engineered shifts in public perception.

Keywords: Psychological War, Media and Disinformation, Mind Domination, Coercive Persuasion, Brainwashing, Media Wars, Information Manipulation, Social Media.

1 - Syrian translator.

End of Hegemonic Illusion

Rethinking of American Power, Its Structural Limits

■ Dr. Mohammad al-Mustari[1]

Abstract

This article offers a critical reading of the discourse of American hegemony as it has become entrenched in international consciousness, highlighting the erosion of this discourse in light of profound geopolitical transformations that have revealed the limits of American power and its structural contradictions. The analysis proceeds from the premise that this hegemony was not built on moral or civilizational superiority, but rather on strategic cunning and the exploitation of moments of international exhaustion, as in World War II. The article relies on the tools of symbolic critical analysis, drawing on the works of Foucault, Edward Said, Baudrillard, and Gramsci, to understand the role of the media, elites, and the global cognitive system in producing and promoting the illusion of hegemony. It also reviews major structural failures in Vietnam and Afghanistan, and the crises of sanctions and alliances.

The article concludes with a call for the liberation of strategic awareness and the establishment of an alternative cognitive and sovereign project that transcends dependency and establishes more equal and balanced international relations.

Keywords:

American Hegemony, Strategic Deception, Media, Knowledge and Power, Subordinate Elites, Critique of Power.

1 - Doctoral researcher in Sociology, Faculty of Humanities and Social Sciences, Ibn Tofail University - Kenitra, Morocco

Qur'anic Perspective of Consciousness: Reason, Revelation, Faithful State

■ Assist. Dr. Sajjad Hadi al-Anbaki[1]

Abstract

This research aims at explore the conceptual framework of consciousness formation from the perspective of the Qur'an. It examines the interrelated foundations of reason, revelation, and the faith-based state, proposing a deeper understanding of consciousness, one that transcends superficial interpretations and instead envisions it as a profound cognitive state that liberates the individual from blind imitation and dependency. The research investigates the dynamic relationship between reason, as a tool for reflection and analysis, and revelation, as a source of guidance and knowledge. It asks whether these two foundations diverge or intersect, and to what extent they are in harmony and epistemological complementarity, with revelation ensuring the integrity and direction of reason. Furthermore, the research highlights the pivotal role of the faithful state as a civilizational system grounded in justice and human rights. It explores how just governance within such a state serves as a fundamental safeguard for consciousness, protecting it from manipulation and distortion often perpetuated by modern systems of Western control.

Finally, the study offers a critical comparison between the Qur'anic vision of the formation and preservation of consciousness and contemporary methodologies, which frequently rely on propaganda and media-driven techniques that construct a false or manipulated consciousness.

Keywords: Qur'anic Perspective, Shaping Consciousness, Reason, Revelation, Faithful State.

1 - Lecturer at Kufa University - College of Jurisprudence.

Mind Consciousness Wars: Western Think Tanks, Strategic Tools of Hegemony

■ Mr. Mohammad Baqir Karki[1]

Abstract

This research analytically examines the role of Western think tanks in the structure of contemporary hegemony, highlighting how they have transitioned from academic research institutions to strategic tools for producing directed knowledge and formulating narratives that influence international politics. It demonstrates that these centers operate within a complex network where politics, economics, media, and finance intersect, giving them an effective ability to redefine problems and formulate solutions that serve the interests of dominant powers. It also focuses on how they employ concepts such as "failed state" and "moderate Islam" in sensitive regional contexts, such as Iraq, Lebanon, Syria, and Iran, making them partners in producing legitimacy for interventionist policies.

The research reviews models of prominent institutions such as RAND, Brookings, and WINEP, revealing the nature of their structural bias, their role in rotating elites, and their influence on media discourse.

It draws on internal Western critical readings (Chomsky, Foucault) to highlight the dimensions of these centers' cognitive complicity with power.

The research concludes the necessity of building local cognitive alternatives capable of resisting soft cognitive colonialism and formulating narratives that reflect societies' priorities and autonomy.

Keywords:

Think Tanks, Soft Hegemony, Cognitive Warfare, Strategic Narratives, Conditional Financing, Decision-Making, Cognitive Resistance.

1 -Researcher in philosophy and political communication (Lebanon).

Manufacturing Truth: between Media Elites, Think Tanks

■ Mrs. Soukaina Hasan[1]

Abstract

Nowadays, truth is no longer an objective entity; rather, it is the product of a process carried out by a network of institutions, most notably research centers and media elites. This research paper aimed at distinguish between controlled knowledge and free knowledge, and to analyze the "complementary" relationship between these institutions, to formulate the "official truth" and establish it as an indisputable reality through the use of the language of science and numbers, and with the help of persuasion strategies and tools.

Hence, it has become difficult to talk about the neutrality and objectivity of the media, which determines what should be published and what should be ignored, and even how it should be published, according to mechanisms of deletion, amplification, marginalization, and selection, in the context of achieving the greatest possible conquest of minds and ideas.

Government interests required controlling media elites and creating complete harmony between their goals and the outcomes provided by the media, even if this meant resorting to distorting facts. During the aggression on Gaza, the false "official truth" clearly emerged through close cooperation between governments, Western and Arab media elites, and research centers affiliated with the interests of dominant states.

In conclusion, the research sought to present a practical model, and there are many examples in this context, not only at the political level, but also at the economic, cultural, and social levels.

Keywords:

Media Elites, Think Tanks, Official Truth, Tools of Persuasion, Controlled Knowledge, Free Knowledge, Shaping Consciousness.

1 -Researcher and teacher at Al-Mustafa (PBUH) International University - Sayyida Zahra (PBUH) Seminary - Lebanon.

Emotions Psychological Construction: Media Rule in Shaping Love, Fear, Hostility

■ Prof. Ahmad Radwan Nasrallah[1]

Abstract

This research examines the concept of "Emotions Psychological Construction" and the role of the media in shaping feelings of love, fear, anxiety, and hostility among the masses. It aims to analyze the theoretical and psychological structures associated with emotions, clarifying the foundations and rules upon which strategies for shaping emotions are built within a general framework, particularly since the emotions psychological construction is not limited to arousing temporary emotions, but rather contributes to reshaping the psychological structure of individuals and entire social systems. It also explores how media shapes collective emotions and steers public opinion and behavior in specific directions. It examines the impact of this process on both individuals and society, using real-life examples from the Arab world, especially from regions experiencing conflict and political tension, such as Lebanon and occupied Palestine. The research concludes how emotional media discourse is used to influence political paths and public response during crises. It concludes also by stressing the importance of developing critical awareness toward emotional messaging in the media, as its long-term psychological and social effects often outlast the media moment itself. This calls for critical consciousness of media content and the study of emotional discourse as an authoritarian tool no less dangerous than political and economic tools.

Keywords:

Psychological Construction, Collective Emotions, Emotional Media, Emotional Framing, Hate Speech, Public Opinion.

1 -University professor, writer and researcher in the field of educational, psychological and social sciences (Lebanon).

Reshaping World: Media as Tool of Western Cultural Hegemony

■ Ms. Zakiya Qoronful[1]

Abstract

This research aims at examining how the media has become a tool for reproducing the meaning upon which human life is based, and how the world is shaped according to the dominant Western vision. This is not only at the level of news or entertainment approaches, but also through the production of an integrated civilizational model that serves hegemony and colonialism, based on individualism, consumerism, and neoliberal philosophy. The research begins by analyzing the media as a soft power that consolidates cultural hegemony and opens the way for other forms of political and economic control. The research examines the roles of cinema and television as classic tools that contributed to the dissemination of colonial imagination and the dissemination of Western lifestyles. The research then focuses on digital media as a new phase in the shaping of collective consciousness, where algorithms control the formulation of public opinion and direct behavior. It discusses the psychological and social consequences and repercussions of this hegemony, from the perpetuation of consumerism to the erosion of collective identity and the rise of the "one-dimensional man."

In contrast, the research proposes strategies for resistance and media liberation through the recovery of local narratives and the building of alternative cultural alliances, emphasizing that media cannot be neutral, but rather a reflection of the intellectual structure it carries

Keywords:

dia, Cultural Hegemony, Globalization, Individualism, Neoliberalism, Soft Power, Symbolic Control, Colonial Imagination, Algorithms, Shaping Collective Consciousness, One-Dimensional Man, Collective Identity.

1 -Syrian writer, Master's degree in Educational Administration and Development, Saint Joseph University, Lebanon.

Language as Colonial Tool: How Language Shapes, Subjugates Consciousness of Nations

Dr. Ahmad Ibish[1]

Abstract

Language was not merely a neutral medium of communication within the colonial project. Rather, it functioned as a powerful instrument for subjugating populations and dismantling their cultural identities.

By imposing the colonizer's language as the official medium in administration, education, and the judiciary, a deliberate epistemic rupture was created between colonized societies and their cultural heritage. Mastery of the colonizer's language became a prerequisite for access to prestigious social and economic positions. This linguistic policy was not only aimed at facilitating colonial governance, but also at cultivating local elite fluent in the colonizer's tongue, elite socially and culturally distanced from the so-called "natives." The result was a deepening of class divisions and a weakening of social cohesion within colonized societies.

In contrast, many national liberation movements turned to the revival of indigenous languages as a form of resistance. This was evident, for example, in Algeria, where Arabic education was intensified during the war of independence, or in India, where the Hindi movement emerged as a response to English dominance. In this way, language itself became a central battleground in the struggle for liberation, a site of contestation between cultural survival and colonial domination. As the Algerian thinker Malek Bennabi said: "Colonialism does not merely seize land, it seizes consciousness through language[2].

Keywords: Language, Colonialism, Liberation, Cultural Identity, Hegemony.

1 - Syrian academic researcher, PhD in History and a Master in Philology, Department of Textual Criticism. This research was written using the references of the Akdeniz University Library in Antalya, Turkey. I thank all the staff at the aforementioned library for their cooperation and kind treatment.

2 - Malek Bennabi: Conditions of the Renaissance, pp. 73-75.

clarity to the nation, guides it to insight, and leads it along His straight path. Praise be to Allah, first and last.

Sources, References:

- Edward Said, Orientalism, translated by Kamal Abu Deeb, Arab Research Foundation, Beirut, 2nd edition, 1991.
- Noam Chomsky, Media Control, translated by Talaat Al-Shayeb, Sawaf Publishing House, Cairo, 1st edition, 2006.
- Shanahan, Murray. The Technological Singularity, MIT Press, Cambridge, 2015.
- Paulo Freire, Pedagogy of the Oppressed, Continuum, New York, 2005.
- Shoshana Zuboff, The Age of Surveillance Capitalism, Public Affairs, New York, 2019.
- Timothy Snyder, On Tyranny: Twenty Lessons from the Twentieth Century, Tim Duggan Books, New York, 2017.
- Neil Postman, Amusing Ourselves to Death, Penguin, London, 1985.
- Theodor Adorno, Minima Moralia, Verso Books, London, 2005.

reinforce. The Western model is often presented as synonymous with reason, progress, and modernity, and dissent is only tolerated at the margins. The Qur'an, however, empowers the individual to take responsibility: to reflect, to reason, to discern, not to surrender to groupthink.

6. Revelation as Alternative Source of Knowledge

In a world dominated by algorithm-driven content, commercial interests, and political manipulation, the Qur'an offers a radically different source of knowledge: divine revelation. Revelation is not shaped by market forces or ideological agendas, it is a liberating force that dismantles false metrics and dominant myths.

Returning to revelation means reclaiming a legacy of resistance, an intellectual and spiritual project that challenges imposed meanings and false authorities. Revelation revives, enlightens, and empowers. Indeed, the battle over consciousness is the foundational battle. Whoever loses their consciousness, loses their freedom, their faith, and their humanity.

In such a time, victory in the external world is only possible if we first win the battle within: in our hearts and minds, not by erasing the Other, but by reviving a conscious self that sees clearly, questions deeply, and resists courageously.

This is the central message of this issue of "Oumam" magazine: to return to the question of consciousness, to interrogate reality, expose its mechanisms, and rebuild our vision from its original source: revelation, prophecy, and insight. This issue includes eight research papers:

In the "Focus" section, Dr. Ahmad Ibish opens with " Language as Colonial Tool: How Language Shapes, Subjugates Consciousness of Nations". The second research is for Mrs. Zakiya Qrnful, it is "Reshaping World, Media as Tool of Western Cultural Hegemony."

Prof. Ahmad Nasrallah also explores "Emotions Psychological Construction: Media Rule in Shaping Love, Fear, Hostility" the fourth research was written by Mrs. Sakina Hassan, under the title: " Manufacturing Truth: between Think Tanks, Media Elites." While, Mr. Baqir Karki analyzes the research "Mind Consciousness Wars: Western Think Tanks, Strategic Tools of Hegemony"

In the "Foundations" section, Assist. Dr. Sajjad al-Anbaki addresses " Qur'anic Perspective of Consciousness: Reason, Revelation, Faithful State."

In "Studies and Research", Dr. Mohammad al-Mustari discusses "End of Hegemonic Illusion: Rethinking of American Power, Its Structural Limits."

Finally, Mrs. Lina al-Saqer reviews the book "Mind Domination."

We present this issue in extraordinary times, praying that Allah restores

3. Qur'anic consciousness Resists Temptation, Not Surrender to It

One of the most significant Qur'anic concepts related to the struggles of consciousness is the concept of sedition [fitnah]. Among its primary manifestations are the obfuscation of truth, the seduction of the heart, and the distortion of reality. Accordingly, the Qur'an presents fitnah as a weapon employed by the arrogant and the people of falsehood. Allah, Almighty, says: {They were about to tempt you away from that which We revealed to you} [Al-Isra, verse: 73].

At its core, fitnah (sedition) is a distortion of insight, a manipulation of standards, and an inversion of realities. It requires not passive contemplation of appearances, but an alert consciousness and a resistant stance.

Therefore, the believer's task is not to adapt to this fitnah, but to expose it, transcend it, and disentangle it from the truth. Qur'anic consciousness is an active force, it generates a path and aligns itself with the truth, even when the majority appears to oppose it.

4. Qur'anic Criteria for Discernment: Not Be Deceived by Appearances

The Qur'an teaches us not to be deceived by appearances, by dominant narratives, or even by the false signs of power, success, or modernity. Allah, Almighty, says: {So let not their wealth or their children impress you} [Al-Tawbah, verse: 55], and: {Even if they see every sign, they will not believe in it} [Al-Anʿām, verse: 73].

This means that the standard of Qur'anic consciousness lies in a luminous receptivity grounded in sincerity and Allah-consciousness [taqwa]. Truth is not to be recognized by the force of media, nor by the number of followers, but by its intrinsic nature, and by its alignment with revelation, justice, and innate human disposition.

Accordingly, the believer is required to preserve a kind of epistemic estrangement in times of sedition, rather than assimilating into the logic of the world and reproducing its narratives.

5. Undermining False Collective Logic

The Qur'an strongly challenges blind conformity and uncritical acceptance of inherited or popular ideas. It critiques what we might call today "herd thinking," where ideas are followed merely because they are widespread.

The verse says: {we found our fathers upon a religion, and we are in their footsteps rightly guided.} [Al-Zukhruf, verse: 22].

This kind of reasoning, justifying belief by tradition or social consensus, is exactly what today's dominant institutions, media, and educational systems

Fourth: Qur'anic Consciousness, Act of Resistance

1. From consciousness to Insight

Although the word consciousness does not explicitly appear in the Qur'an, its meanings and dimensions are deeply embedded in numerous Qur'anic terms that describe human engagement with truth: reasoning, reflecting, contemplating, knowing, understanding, seeing, and remembering. These are not mere intellectual acts, they represent existential stances toward truth and falsehood, revelation and desire, Allah and the world.

The Qur'an places consciousness at the heart of the struggle between guidance and misguidance. Qur'anic consciousness is not simply the recognition of reality as it is, but the discernment of what ought to be. It is not just sight, it is penetrating insight.

As the Qur'an states: {There has come to you enlightenment from your Lord. So whoever will see does so for the benefit of his soul, and whoever is blind does harm against it.} [Al-An'am, verse: 104].

Here, enlightenment is portrayed as a divine light that guides, reveals, and rescues from blindness.

2. Falsehood Not Defeated by Reason Alone, but by Certain Knowledge

The Qur'an makes it clear that truth cannot be accessed through unaided rational reflection alone; it requires revelation. The great announcement [al-naba' al-'azim] is not merely information, it is the key to discerning meaning and avoiding intellectual confusion. As Allah, Almighty, says: {About what are they asking one another? About the great announcement, over which they are in disagreement.} [Al-Naba, verses: 1-2-3].

In a world of 'difference,' salvation is found neither in relativism nor in neutrality, but in returning to the certain knowledge, that is, to revelation as a definitive source of truth and meaning.

In this light, ignorance in the Qur'an is not merely the absence of information, but the absence, or rejection, of revelation, or the surrender to desires and speculation.

This meaning is clarified in the words of Allah, Almighty: {And if you obey most of those upon the earth, they will mislead you from the way of Allah. They follow not except assumption, and they are not but falsifying.} [Al-An'am, verse: 116].

The verse is a clear condemnation of the dominance of false narratives when they prevail, and a warning against yielding to what appears to be public opinion, as it may be founded upon conjecture and speculation, rather than insight and truth.

the project of controlling consciousness. Elites who possess the tools of analysis, insight, and influence, yet choose silence in the face of massacres, domination, and submission, fulfill their role in maintaining the existing order by refusing to expose it.

This silent complicity is captured by Theodor Adorno, who described the intellectual as someone who knows the world is heading toward catastrophe, yet prefers to analyze its causes from afar rather than resist it.

Such elites are not neutral; they reproduce the status quo either by ignoring it or reducing it to an "incidental occurrence" in analytical records.

6. Justifying Surrender

Among the most dangerous roles of elites in wars over consciousness is their ability to program societies to accept surrender as wisdom, retreat as realism, and submission as consciousness. In this model, the enemy is not portrayed as brutal, but simply as "realistically stronger," and therefore "unbeatable", hence, "it is rational to adapt." This discourse robs people of the will to resist even before the battle begins.

And instead of using the language of direct humiliation, it is reproduced through glamorous terms: political realism, pragmatism, damage control, and loss management.

Colonialism is not defeated first on the battlefield, it is defeated when its internal logic is rejected, and its presence is no longer justified.

7. Resistant Intellectual, Need for Alternative Model

In light of all this, there is an urgent need to recover the model of the resistant intellectual, not as a loud or rhetorical figure, but as someone committed to their moral role in questioning power, exposing domination, deconstructing falsehoods, and remaining loyal to truth, even at personal cost.

Resistance begins with words, discourse analysis, and clarity of vision. It starts with producing a counter-narrative that does not borrow the concepts of the enemy or reproduce its language. This is the structural function of cultural discourse in times of distortion.

Today's wars over consciousness are waged openly, with the participation of elites who possess platforms and epistemic authority, but who have chosen to reproduce defeat rather than confront it. In many cases, the elite have become the bridge through which domination enters the minds of the people, gracefully.

Thus, reclaiming consciousness begins with deconstructing the role of the elite themselves.

mostly operate according to clear agendas that serve the geopolitical interests of dominant powers.

They do not produce knowledge for its own sake; rather, they engage in what can be called the management of meaning, reframing major issues within conceptual molds that allow the system to reproduce itself without resistance.

More concerning is that many Arab elites have begun to reproduce these frameworks uncritically, translating them into Arabic discourse that promotes openness, freedom, peace, and dialogue, while simultaneously undermining resistant consciousness, independent identity, and historical memory.

3. From Philosophizing to Entertainment

With the rise of satellite and digital media, the relationship between intellectuals and the public has changed. The intellectual is no longer someone who writes for a niche, engaged audience, but rather becomes a "celebrity" who appears on screens and platforms, measured not by the quality of ideas but by the number of views. Thus emerged the model of the television intellectual, expected to comment on everything, from economics to art, in a simplified, fast-paced language that pleases everyone and offends no one.

When the screen becomes the main platform for thought, ideas are reduced to images, concepts to slogans, and debate to spectacle.[1]

This kind of intellectual distracts minds, trivializes thought, and aligns with the system, his core function being to engineer consent.

4. Rationality as Domination Tool

Another form of intellectual dominance is embodied in the technocrat, an intellectual who presents themselves as a neutral expert, evaluating policies through "scientific" indicators and metrics. In reality, however, they perform a subtle ideological role: repackaging unjust policies in the language of numbers and logic.

Here lies the danger of so-called "scientific neutrality": it strips issues of their moral and ethical dimensions, recasting them as technical rather than political matters. Thus, repression becomes a "security measure," exploitation an "economic policy," and normalization a "strategic choice."

5. Producing Hegemony through Silence

Not all complicity comes through action, silence itself, can be part of

1 - See: Neil Postman: Amusing Ourselves to Death, p. 16

7. From Media Critique to Methodological Deconstruction

Resisting this war demands more than exposing falsehoods or bias. It requires dismantling the very framework through which reality is constructed. It is not enough to challenge specific narratives; we must interrogate the logic of narrative making itself: Who owns the platform? Who selects the topics? Who decides what is important and what is marginal?

Genuine consciousness begins by deconstructing the architecture of epistemic and media power, not by debating within its terms, but by questioning its foundations.

Seen in this light, the situation becomes starkly clear: we are not merely dealing with a distorted reality, but a fabricated one, where wars are fought within minds, and the world is reconstructed to serve the powerful. This reality often is co-produced, whether knowingly or silently, by segments of the intellectual elite complicit in building or maintaining the illusion.

Third: Functional Intellectual, Manufacturing of Consent

1. Transformations in the Intellectual's Role

In traditional models, the intellectual was expected to serve as the voice of collective conscience, a guardian of consciousness, and a critic of dominant systems. From Socrates to Gramsci, and from al-Kawakibi to Edward Said, the intellectual was often seen as a symbol of questioning, and sometimes confrontation. However, in the neoliberal and post-neoliberal eras, a significant functional shift occurred: many intellectuals became part of the machinery that controls consciousness, rather than tools for unveiling it.

Gramsci spoke of "organic intellectuals," those who are organically linked to a specific social class and advocate for its interests. What we increasingly witness today, however, is the rise of a functional intellectual, not organically tied to any class, but rather working in service of the dominant hegemonic system, whether in academia, media, or research institutions.

Such intellectuals do not necessarily speak what they believe to be true, but rather what is expected of them, what ensures visibility, funding, and acceptance. In this way, intellectual positions become capital invested within the cultural field, not to resist power, but to reinforce it.

2. Think Tanks, Producing Ideas Rather Than Testing Them

One of the most significant institutions shaping globalized consciousness today is the think tank, which plays a critical role in crafting public policy, directing media discourse, and providing conceptual frameworks for political and media elites. Despite their claims to scientific neutrality, these institutions

Through films, series, novels, and news broadcasts, memory is reconstructed, values are instilled, and the lines between friend and foe are drawn. Narratives do not merely report events; they teach us how to understand them.

Major powers recognized the importance of narrative early on, establishing massive institutions to produce and export it. Hollywood, for example, has played a pivotal role in marketing the American model, romanticizing militarism, demonizing the other, and enforcing cultural hegemony. Orientalism, in this context, was not just a body of knowledge, it was a grand narrative that shaped how the West views the East.[1]

Every news item is a story. Every political analysis is a narrative. Every media presentation is an ideologically framed text. The real battle is over who tells the story, how it's told, and whose interests it serves.

5. Commodification of Consciousness: Between Advertising, Simulation

One of the defining features of this war is what can be called the commodification of consciousness, the transformation of ideas and attitudes into marketable products. Public personas become brands. Knowledge becomes lightweight "content" meant for rapid consumption.

Digital influencers, advertisements, and viral trends all contribute to reducing serious issues into fleeting social media phenomena, trendy today, forgotten tomorrow. In this way, consciousness loses its depth, its temporal grounding, and its critical edge, becoming little more than momentary reactions measured by likes and views.

6. Distortion of Symbols, Dismantling of Meaning

This war on consciousness often targets collective symbols, foundational values, and historical figures of resistance, either by distorting them or by hollowing them out. Religious figures are portrayed as regressive. Resistance leaders are reframed as extremists. Heroism is reduced to fame, and dignity is replaced by material success.

This symbolic dismantling occurs subtly, often through the reconfiguration of public perception. The symbol remains visible but stripped of meaning and inspirational power, without formal censorship. It is a soft assassination of meaning and memory.

One may lose a battle, but true defeat occurs when one adopts the enemy's narrative about that battle. That is how wars are ultimately lost, not on the battlefield, but in the mind.

---

1 - See: Edward Said: Orientalism, p. 34.

This requires a distinction between reality and "hyper reality", where fabricated "facts" become so persuasive that they effectively replace the real. Control over media, advertising, and social networks thus functions less by conveying information and more by teaching people how to interpret the world, how to feel about it, and what to believe. This is the essence of the war on consciousness.

2. Soft Deception: Manufacturing Doubt, Erosion of Truth

In the past, manipulation of truth involved direct lies or concealment. Today, however, modern techniques of control employ a more sophisticated strategy: creating an environment of chronic doubt. Contemporary tyrants no longer lie to convince, but to render everything questionable, until nothing remains credible and the authority becomes the sole source of truth.(1)

Modern media accomplishes this through information overload, a relentless stream of conflicting events, analyses, and images. This leads not to conventional misinformation, but to a state of cognitive fatigue where distinguishing fact from fiction becomes nearly impossible. It is not deception in the traditional sense, it is the exhaustion of truth and the drowning of the intellect.

3. Politicization of Language, Shaping of Perception

Language plays a central role in the construction of perception and serves as a key instrument in consciousness control. Words are not neutral; they frame understanding and shape attitudes. This is the domain of framing strategies in discourse analysis. For instance:

- Calling resistance to occupation "terrorism"
- Calling surrender "realism"
- Considering cultural colonialism "globalization"

These manipulations distort meaning, making the audience accept falsehoods as progress while rejecting truths because they are wrapped in alienating language.

In this context, terminology becomes a powerful weapon: occupation is labeled a "preemptive war," colonialism becomes a "humanitarian mission," exploitation is reframed as "development," and oppression is sold as "rights protection." Language itself becomes a site of ideological warfare.

4. Strategies of Narrative Domination

Narrative is among the most potent tools for shaping collective consciousness.

1 - See: Timothy Snyder: On Tyranny: Twenty Lessons from the Twentieth Century, P. 65

over another, they shape global consciousness without the need for police-like censorship. Control over the internet today is akin to control over airspace in military conflicts: whoever dominates it dominates everything beneath.

Shoshana Zuboff shows, in "The Age of Surveillance Capitalism", how technology companies go beyond data collection to actively reorient human behavior itself, ensuring consumer compliance and social stability within desired limits.[1]

6. Soft Control, Borderless Social Engineering

This new form of control relies on persuasion rather than coercion. When populations are convinced that the liberal model is the only viable horizon, that success means adopting Western values, and that liberation requires shedding religion and tradition, the battle is won without firing a shot. This is a war fought over "meaning" rather than geography–more dangerous than military occupation because it subjugates individuals from within rather than without.

One of the most insidious features of modern control is its ability to predefine the boundaries of debate while allowing limited argument within them, creating the illusion of freedom.

The shift from hard to soft control has moved conflict to a deeper, more perilous level: a struggle over consciousness itself. The contemporary individual may not feel conquered or controlled but often acts within a system designed to choose what they see, how they think, and how the world appears to them. This makes today's struggle one against hidden guidance and the symbolic occupation of the self, no less significant or harsh than any armed conflict.

This leads to a deeper question: how is this imposed reality produced, who owns it, and how do cultural, media, and educational tools collude to reproduce domination?

Second: Constructing Reality, Manufacturing Falsehood, How Minds Programmed?

1. From Reality to Representation: Turning Truth into Narrative

As previously discussed, one of the most insidious effects of modern battles over consciousness is that they do not merely direct thought, they reconstruct reality itself within the mind. What we perceive today is filtered through screens, platforms, search engines, and curated modes of presentation that deliver a "version" of the world. This is not about overt lies, but about shaping what people are allowed to see and believe to be true.

1 - See: Shoshana Zuboff: The Age of Surveillance Capitalism, p. 315.

insight itself. The dissemination of images, repetition of slogans, selection of vocabulary, and manufacturing of celebrity are all techniques aimed at the very architecture of human perception. They transform alienation into false consciousness, and domination into consent. The most effective surveillance is that which makes people believe they are free while they are fully subjected to hidden guidance.[1]

Media is no longer a mirror of the world but its producer. Those who control media not only tell people what happens, but also instruct them how to feel about it. In this sense, it does not "report" reality but constructs an alternative one, implanted in public consciousness and offered as absolute truth. Modern wars thus no longer require persuading the enemy by force but convincing the victim that surrender is a virtue.

4. Education as an Ideological Apparatus

Louis Althusser identified education as one of the key "Ideological State Apparatuses," arguing that schools do more than transmit knowledge–they reproduce the symbolic structures that sustain the dominant order. Schools today are less spaces for free thought than arenas for shaping obedience and belonging to the hegemonic system.

This analysis extends far beyond the West. Many countries have imported modern curricula and pedagogical concepts without critical examination. Graduates emerge already imbued with liberal "common sense": freedom as individualism, progress as Westernization, and justice as mere legal neutrality, values presented not as contestable ideas but as universal truths.

Paulo Freire warned against this "banking" model of education, where knowledge is deposited into students who are expected to reproduce it uncritically.[2] This process generates generations that reproduce the world as it is, rather than transform it.

5. Digital Space Policies

Digitization has radically altered the nature of control. It is no longer bound to territory or borders but plays out as a struggle for sovereignty in digital space. Global platforms like Google, Facebook, and X now govern the circulation of knowledge and information. What is troubling is that this power is exercised through mechanisms largely insulated from public accountability and democratic transparency.

When search engines suppress certain results or privilege one narrative

1 - See: Noam Chomsky, Media Control, p. 19.

2 - Paulo Freire: Pedagogy of the Oppressed, p. 72

First: Control's Instruments Transformations

1. From Hard Violence to Symbolic Domination

When Michel Foucault spoke of the shift from overt repression to internalized disciplinary control, he was describing a dynamic that has only deepened over time. The twentieth century witnessed a radical transformation in the mechanisms of control: no longer relying solely on armed force, power began to operate through symbolic means, reshaping social behavior and cognitive patterns, what could be called the "invisible occupation" of the mind.

Whereas "colonialism" in the nineteenth century referred to direct military conquest, in the contemporary world it is exercised through culture, media, symbolic representations, databases, and digital platforms. These tools reshape how people perceive themselves and the world, without deploying actual armies. Today's wars are fought more over images than bodies, a testament to the ascendancy of symbolic over material power in producing collective perceptions of reality, and even "reality" itself as a representation rather than an unmediated truth.

2. Soft Surveillance

Disciplinary control today is enacted through algorithmic matrices that track individuals in real time and redirect their behavior without their consciousness. This form of "soft surveillance" surpasses George Orwell's "Big Brother" model, evolving into something more complex and covert, programmed self-regulation.

Through artificial intelligence, machine learning, and recommendation algorithms, human behavior is reshaped by what is shown, hidden, or suggested, without the individual sensing any external guidance. Algorithms have become instruments of consciousness engineering rather than mere tools of display or classification. Murray Shanahan, in "Artificial Intelligence and the Future of Humanity", warns that intelligent machines do not merely execute tasks; they teach humans how to think, when to doubt, and what to choose.[1]

Thus, the modern individual lives within a surveillance network precisely designed to appear as freedom. Yet in reality, choices about what to buy, read, feel anger toward, or laugh at are pre-structured within what is now called the "attention economy."

3. Occupying Consciousness Rather than Land

Media has become a weapon more lethal than drones because it undermines

1 - See: Murray Shanahan: The Technological Singularity, p. 117.

First talk
Constructed Reality, Programming Minds

Editor in chief:
Dr. Mohammad Mahmoud Mortada

The world is undergoing a massive shift regarding the conflict, where minds have become the primary target of occupation, and the most important battlefield is now the realm of perception.

Victory is no longer measured by the occupation of land, but by the occupation of consciousness.

We are facing a new kind of war, one fought with concepts, images, terminology, and narratives. These are wars for control over consciousness, where shaping opinions, constructing reality, and influencing beliefs become part of a struggle more dangerous than traditional warfare. It is waged from within, quietly and subtly, leaving no physical wounds but instead creating individuals who are drained of their will, content with their oppression, and defending their oppressors.

The nature of control has shifted: instead of repression, there is persuasion; instead of direct domination, there is the creation of desire. Hegemony is no longer imposed through force, but is embedded in the soul through media, education, art, technology, and even religion when stripped of its true meaning and reinterpreted. In this context, the battle is now between an enlightened consciousness and a programmed one, between those who see the world with their own eyes and those who are told how to see it.

At the heart of this struggle, cultural elites play a crucial role. Those who were once meant to lead consciousness, in many cases, become the ones reproducing tools of control, using "rational" language, "modernist" discourse, or "objective" analysis, which quietly mask an acceptance of defeat and a normalization of tyranny.

Rooting

Qur'anic Perspective of Consciousness: Reason, Revelation, Faithful State 31 — Assist. Dr. Sajjad Hadi al-Anbaki

Studies and Research

End of Hegemonic Illusion 32 — Dr. Mohammad al-Mustari

Reading in a book

Mind Domination: Media, Psychological War 33 — Mrs. Lina al-Saqer

index

Constructed Reality, Programming Minds 13 — Dr. Mohammad Mahmoud Mortada

Focus

Language as Colonial Tool: How Language Shapes, Subjugates Consciousness of Nations 26 — Dr. Ahmad Ibish

Reshaping World: Media as Tool of Western Cultural Hegemony 27 — Ms. Zakiya Qoronful

Emotions Psychological Construction: Media Rule in Shaping Love, Fear, Hostility 28 — Prof. Ahmad Radwan Nasrallah

Manufacturing Truth: between Media Elites, Think Tanks 29 — Mrs. Soukaina Hasan

Mind Consciousness Wars: Western Think Tanks, Strategic Tools of Hegemony 30 — Mr. Mohammad Baqir Karki

At Upcoming issue

Crisis- Ridden Self, Dialectic of Modern Man

Magazine Message:

Confronting the intellectual challenges imposed by the West and others on our Arab and Islamic societies, through:

- Refuting these issues in a scientific and systematic academic manner, highlighting their consequences and shortcomings, and criticizing their origins and contexts.
- Revealing the political, economic and colonial backgrounds behind the attempt to dominate culturally on our societies.
- Providing scientific statistics from the inside of Western societies, which monitor the destructive consequences of these cultures on societies.
- Providing authentic and alternative visions on these issues from a universal humanitarian perspective, that is consistent with the requirements of human nature and the universal, metaphysical vision of humanity.

Oumam Magazine Copyright Pledge

I, the undersigned: .....

The author of the research titled: .....

.....

I pledge to transfer the copyright and distribution rights to (Oumam) Magazine and Baratha Center for Studies and Research.

Signature:

Date:

Intellectual Property Pledge

I, the undersigned: .....

The author of the research titled: .....

.....

I pledge that the research I have completed has not been published or submitted for publishing to another magazine, whether in Lebanon, Iraq, or any other country, and I wish to publish it in Oumam magazine.

Signature:

Date:

- Verses are documented in the text immediately, after the Quran text by mentioning the surah followed by a colon, then the verse number inside brackets, like this: [Al-Insan: 25].
- The Quran verses are inserted with vowels, according to the Quran diacritical marks, and are placed between two special brackets, like this: {In the name of Allah, the Most Gracious, the Most Merciful}.
- Note: If the sources mentioned above are electronic, the link will be included after the page number at the bottom.

- A list of sources and references shall be included at the end of the research, as mentioned above, and adding the rest of the related details: Publishing house, publishing country, publishing date, edition number.
- The author uses the font (Simplified Arabic), in size (14) in the text, and the same font in size (12) in the margin.
- In English, the author uses the font (Times New Roman), in size (14) in the text, and size (12) in the margin.
- The following should be written on the first page:
  - The research title in Arabic.
  - The author's name in Arabic (if Arab), with a footnote stating: his nationality, academic description, academic degree and certificate, and affiliation (university, college), or (research institution).
  - An abstract of the research in Arabic, provided that each abstract does not exceed (100) words.
  - Keywords, provided that they do not exceed (7) words.
  - The magazine will translate the abstracts into the languages it considers appropriate.

Oumam Magazine Authors' Guide

- The research must be new in its presentation, and no one has previously addressed the subject, using the same mechanism and reached the same results. It must be characterized by depth, analysis and criticism.
- The research must be free of linguistic and typographical mistakes, and punctuation marks must be taken into account when writing.
- The information, contained in the research, must be documented through accurate scientific sources and references.
- The author should ensure that the number of words in the research ranges between (4500) and (5500) words.
- "Plagiarism Check X" will be used to determine the extent of plagiarism.
- "Plagiarism Check X" will be used before the research is being presented for evaluation, and the research will be rejected if the plagiarism exceeds the internationally accepted rate (25%).
- Regarding the footnotes related to reference notes, the author will use "Chicago Modified Style", and insert footnotes at the bottom of the page via automatic insertion.
- Example of "Chicago Modified Style":
    - When documenting from a book: Author's name, book title, the part or volume, page number.
    - When documenting from a magazine: Name of the author of the research or article, the research title, name of the magazine, the issue, page number.
    - When documenting from a collective book: Name of the author with the phrase "and others", the book or research title, page number.
    - When documenting from thesis or dissertation: Name of the researcher, thesis or dissertation title, university or college, page number.

it within the specified period, he is committed to fulfill it according to the following determinants:

A. Determine the extent of scientific integrity of the research.

B. Determine the extent of conformity between the title and the content of the research.

C. Determine the extent of clarity of the research abstract.

D. Determine the extent of the research introduction clarification to the research idea.

E. Determine the extent to which the introduction of the research clarifies its idea.

F. Determine the extent of suitability and coherence of the subtitles.

G. Determine the extent of the scientific level of the research.

H. Determine the extent of the linguistic and literary level.

I. Determine the extent of the value of the sources and the accuracy of relying on them.

J. Determine the extent of the research importance and authenticity, in terms of mechanism and results.

K. Determine the extent of the research size.

L. Determine the extent of the research suitability for publishing.

M. Determine, accurately, the paragraphs that need to be modified by the researcher.

- The evaluator determines the reasons for rejection, if he decides that the research is not suitable for publishing.
- The evaluation process is conducted confidentially.
- If the first evaluator wants to discuss the research with the second evaluator, he must inform the editor-in-chief.
- The scientific evaluator's comments on the research are sent to the editor-in-chief to be sent to the researcher if any, so that the author can take them into consideration for approval of publishing, without the evaluator and the researcher knowing each other.
- The evaluators' comments and recommendations are relied upon in the decision to approve the publishing of the research or not.

Oumam Magazine Publishing Ethics

- The magazine's management is committed to keep the intellectual copyrights of the authors.
- The magazine's management is committed to keep the principle of non-discrimination on the basis of race or gender, and to the rules of scientific thinking and its methods, and its language in presenting ideas, trends and topics, and discussing or analyzing them.
- The magazine's management is committed not to disclose the names of the evaluators (reviewers) to the authors, and is also committed at the same time not to disclose the names of the authors to the evaluators. The names remain confidential at the editor-in-chief and managing editor only.
- Respecting the intellectual copyrights of translated research.
- The research must be consistent with the standards of scientific integrity and scientific research ethics.
- It is required that the research submitted for publishing in the magazine has not been previously published in another magazine or in a book, or extracted from a thesis or dissertation, and that it has not been submitted for publishing in another magazine at the same time.

Oumam Magazine Evaluators' Guide

- The scientific evaluator' main task is to read the research submitted for publishing, which is within his scientific specialization, with great care, and evaluate it according to a scientific and academic vision and perspective that is not subject to any personal opinions, then put his constructive and honest observations regarding the research sent to him.
- Before starting the evaluation process, the evaluator ensures whether the research sent to him is within his scientific specialization or not. If the research is within his scientific specialization, he should estimate that he has enough time to complete the evaluation process; since the evaluation process should not exceed fifteen days.
- After the evaluator agrees to fulfill the evaluation process, and completes

« Oumam For human and social studies » Magazine Publishing Terms

- Published research and studies do not necessarily express the opinion of the magazine.
- When the research is accepted, the author undertakes to transfer the ownership copyrights of the research to the magazine, and not to publish it in any other magazine, except after obtaining written approval from the magazine's management. The magazine has the right to publish the research in a collective book; and if the researcher wants to publish his research in any paper, or electronic publishing medium, he must obtain prior written approval from the magazine's management.
- The magazine is committed to inform the author of the approval to publish the research without modification, or according to specific modifications based on the comments of the evaluators, or apologizing for not publishing within a period not exceeding (30) days, except in the case of early writing (asking the author to write a sample to know his method), but the author is informed of that.
- If the research is rejected, the magazine has the right to inform the author of the reasons for rejection, or not to inform him of that.
- The arrangement of research (articles) within the magazine is subject to technical purposes, and has nothing to do with the status and fame of the author (researcher).
- The magazine management pays a financial reward for each research published in the magazine, and informs him - in advance- of its value, or how the calculation is done.
- Correspondence should be sent to the Editor-in-Chief: Dr. Mohammad Mortada at the following addresses:
- Phone number: 009613821638 Email: oumam.magazine@gmail.com

Scientific Board:

- Prof. Hafez Abdel Rahim: (Political and Economic Sociology – University of Gabes - Tunisia).
- Prof. Hasan Bashir: (Sociology of International and Cultural Communication – Imam Al-Sadiq University – Iran).
- Prof. Ben Sharqi Ben Meziane: (Philosophy – University of Oran (2) – Algeria).
- Prof. Haider Hassan Al-Yaqoubi: (Educational Psychology – University of Kufa – Iraq).
- Prof. Khanjar Hamieh. (Contemporary Western Philosophy - Lebanese University - Lebanon).
- Prof. Talib Imran: (Differential implications and astronomy – Damascus University – Syria).
- Prof. Aqeel Sadiq: (Philosophy – University of Basra – Iraq).
- Prof. Mohsen Saleh. (Philosophy – Lebanese University – Lebanon).
- Prof. Mohammad Shaalan Al-Tayyar: (Archeology – Damascus University – Syria).
- Prof. Muammar Al-Hawarneh. (Psychology – Damascus University – Faculty of Education – Syria).
- Prof. Yasser Mustafa Abdel Wahab: (Medieval History – Kafr El Sheikh University – Egypt).
- Prof. Youssef Tabaja: (Sociology – Lebanese University – Lebanon).

Editorial Board:

- Prof. Hana Al-Jazar: (Philosophy – Damascus University – Syria).
- Prof. Saad Ali Zayer: (Philosophy of Education and Curricula of Arabic language – Iraq).
- Prof. Adel Al-Wachani: (Sociology of Culture and Communication – University of Gabes – Tunisia).
- Assoc. Prof. Neama Hasan Bakr: (Modern and Contemporary History – Ain Shams University – Egypt).
- Dr. Ali Haj Hasan: (Islamic Philosophy – Lebanon).
- Sheikh Dr. Mohammad Nimr: (Educational Curricula – Lebanon).

General Supervisor:
Al-sheikh Jalal al-Din Ali Al-Sagheer

Editor in chief:
Dr. Mohammad Mortada

Managing Editor:
Al-sheikh Dr. Mohammad BG Kojok

Managing Director:
Ms. Aya Baydoun

Technical Director:
Mr. Khaled Mimari

Proofreading:
Dr. Mahmoud Al-Hasan

Translator:
Mrs. Lina al-Saqer

Oumam
For human and social studies

Oumam magazine, for Human and Social studies, is a quarterly Peer-Reviewed scientific periodical, issued every three months by «Baratha Center for Studies and Research» in Beirut, Lebanon. It is concerned with criticizing Western visions of humanity and society in various fields and contemporary challenges in philosophy, history, sociology, anthropology, and other fields. This is on one hand, and on the other hand , rooting them from a rational standpoint, that is consistent with the requirements of human nature, and with the genuine metaphysical cosmic vision of humanity.

Wars of Consciousness Control

Volume (3), Issue (9), 2025 AD - 1447 AH

ISSN:
: 3005-6713
: 3005-6721

Oumam
For human and social studies

issued by:

A quarterly Peer-Reviewed journal concerned with criticizing Western visions of humanity and society

www.barathacenter.com
www.oumam.barathacenter.com
Oumam.magazine@gmail.com

Baratha Center for Studies and Research
Beirut- Baghdad

A quarterly peer-reviewed journal
concerned with criticizing Western
visions of humanity a nd society

umam
For human and social studies

Vol. (3) - Issue (9): fall 2025 AD - 1447 AH

Wars of Consciousness Control

- **First talk:**
  - Constructed Reality, Programming Minds
- **Focus:**
  - Language as Colonial Tool
  - Emotions Psychological Construction
  - Mind Consciousness Wars
- **Foundations:**
  - Qur'anic Perspective of Consciousness: Reason
- **Studies and Research:**
  - End of Hegemonic Illusion
- **Book review:**
  - Mind Domination

ISSN:
: 3005-6713
: 3005-6721

Published by Baratha Center for Studies and Research